رجلنا في بغداد

جون لي أندرسون

يعمل جون لي أندرسن لصالح مجلة (ذا نيويوركر) منذ عام 1998، وكان يعد ويكتب الكثير من التقارير بشكل واسع عن العراق منذ عام 2000. كما أنه قام بإعداد التقارير وكتابتها حول إيران وأفغانستان ولبنان والصومال وفنزويلا وكوبا وليبيريا وزيمبابوي وأقطار أخرى. كما كتب العديد من السير الذاتية للزعماء السياسيين المعاصرين بمن فيهم إياد علاوي وجلال الطالباني وزلماي خليل زاد ومحمود أحمدي نجاد وحامد كرزاي وهيغو شافيز وفيديل كاسترو وأوغسطو بينوشيه.

وأندرسن هو مؤلف للعديد من الكتب مثل (تشي غيفارا: حياة ثورية) وكتاب (قبر الأسد: لمحات من أفغانستان) وكتاب (العصابات: رحلات في عالم المتمردين)، وآخرها كتاب (سقوط بغداد). كما اشترك أيضاً مع سكوت أندرسن في تأليف كتاب (نطاقات الحرب: أصوات من ميادين قتال دولية) وكذلك كتاب (داخل العصبة).

بدأ أندرسن حياته عام 1979 كمراسل لصحيفة (ليما تايمز) الأسبوعية الناطقة بالإنكليزية والصادرة في العاصمة ليما في البيرو. وقد أعد الكثير من التقارير حول الحروب الأهلية لأمريكا الوسطى لصالح مجلة (تايم) خلال الثمانينيات، واستمر في تغطية الصراعات في إيرلندا الشمالية وأوغندا والصحراء الغربية وسريلانكا وبورما وإسرائيل والبوسنة. وقد نشرت أعماله في صحيفة (نيويورك تايمز) وصحيفة (لوس أنجلوس تايمز) و(هاربرز) و(الفايننشال تايمز) و(الغارديان) و(يل بابي) وغيرها من المجلات. وفاز في عام 2003 بجائزة «التميز من نادي الصحافة لما وراء البحار» في نيويورك وذلك عن تقاريره عن أفغانستان. وفي عام 2005 فاز بجائزة «مراسلون دوليون» الإسبانية وذلك عن تقاريره عن العراق.

ولد وترعرع جون لي أندرسن في كاليفورنيا في الولايات المتحدة، وتلقى تعليمه في كوريا الجنوبية وكولومبيا وتايوان وأندونيسيا وليبيريا وإنكلترا. كما عاش فترة من حياته في البيرو والسلفادور والهندوراس وكوبا وإسبانيا. وهو يعيش الآن في منطقة دورسيه في إنكلترا مع عائلته.

علي الياسري

مترجم عراقي يقيم في بغداد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النصوص الأصلية من اللغة الإنكليزية والتي صدرت في مجلة النيويوركر لكاتبها جون لي أندرسن:

Our Man in Baghdad

by **Jon Lee Anderson**

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها من قبل الكاتب

جون لي أندرسون

رجلنا في بغداد

ترجمة
علي الياسري

دقّقه لغوياً
الدكتور عبد الرضا علي

الطبعة الأولى، 2010م

ISBN: ??????????????

جميع الحقوق محفوظة للناشر
مؤسسة شرق غرب ـ ديوان المسار للنشر

eastwest@diwanalmasar.com
www.diwanalmasar.com

Headquarters:
Diwan Cultural Center
Haifa Street, House No. 1
Iraq - Baghdad

Berlin Office:
West-östlicher Diwan e.V.,
Giesebrechtsraße 3,
D-10629 Berlin
E-mail: eastwest@diwanalmasar.com
www.diwanalmasar.com

التوزيع في الوطن العربي والعالم:
مؤسسة الدوسري للثقافة والإبداع

Al Dosari
Tel.: 00973 1 756 4030
Fax: 00973 1 756 4060
P.O.Box: 18361 Manama
Kingdom of Bahrain
www.aldosariculture.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت: نيل وفرات.كوم:
www.neelwafurat.com

إن مؤسسة شرق –غرب ديوان المسار غير مسؤولة عن أفكار المؤلف وآرائه في هذا الكتاب.
وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسسة.

الفهرست

- المقدمة
العراقيون ومجهر أندرسون 7
- رجلنا في بغداد
مهمة زلماي خليل زاد 13
- السيد الكبير
إلى أين سيأخذ جلال الطالباني العراق؟..... 49
- رجل الظلّ
هل بوسع إياد علاوي أن يوحّد العراق؟.....85
- المرشّح..... 125
- في ما وراء الاندفاع
هل يمكن أن ينجح ذلك؟..... 157

المقدمة

العراقيون ومجهر أندرسن

«حيث تنتهي حدود المنطقة الخضراء،
تبدأ حدود العراق الحقيقية»
جون لي أندرسن

هـذا هـو الكتاب الثانـي للكاتب الإعلامـي الأمريكي جون لي أندرسـن بعد كتابه الشـهير (سـقوط بغداد)، أي ثاني عمل يترجم له إلى العربية.

عرف عن هـذا الصحافي حبه للكتابة من مكان الحدث، وعلى الرغـم من صعوبة التحرك بحرية أيام النظام السـابق، فقد زار العراق عدة مرات وأجرى خلالها حوارات جريئة ودوَّن العديد من ملاحظاته حول هذا البلد وهو يحكم تحت قيادة فرد أوحد وحزب واحد.

كان حـاداً ودقيقـاً لم يتـرك أية ملاحظـة حتـى وإن كانت تبدو هامشـية للبعض وغير مهمة فإنها بالنسـبة له تأتي ضمن سياق النص مثل إسمنت مهم لبناء قصة من أرض واقع العراق وأهله.

فكان (سـقوط بغـداد) الذي انقسـم إلى زمنيـن: الأول، حينما كان جون مراسـلاً إعلامياً لصحيفة النيويوركر يدوّن تقاريره اليومية، والقسـم الآخـر حينما سـقط النظام فبـدأت رحلته تسـهل من جانب وتصعـب من جوانب أخرى، فلم يعد هنـاك وزير الإعلام وتهديداته للإعلاميين بالطرد، على العكس تحول هذا الكاتب إلى سائح جوال

فـي بغداد والعديد من المحافظات، كان كارهاً للحرب ومنتقداً حاداً للتصرفـات التي كانت تصدر مـن الحاكم المدني بـازدراء العراقيين فـي بعض القرارات والتصرفـات ومعاملتهم كدرجـة ثانية وهم أهل البلاد، وهذا ما قاله مرة لبريمير نفسه.

حقق كتاب (سقوط بغداد) مبيعات كبيرة في العالم والذي صدر عـن دار (بنغوين) من لندن ثم نشـرته بالعربية دار شـرق غرب ديوان المسـار لأول مرة، إلا أنه احتفظ ببعض الحوارات الطويلة ووسـعها بعد تشـكيل أول حكومة عراقية تلتها الثانية المنتخبة ثم مجيء رئيس كردي يحكم أول بلد عربي.

أندرسـن كان يحـاور هـؤلاء ويـدوّن ملاحظاتهـم وتصرفاتهم وأحاديثهم مع زوارهم أو خصومهم أو مرؤوسيهم. أي أن السياسيين العراقيين كانوا تحت مجهر أندرسن بشكل أو بآخر.

ربما لم يتوقع أحدهم أنه سـيكتب سـيرتهم المهنية كسياسـيين بهـذه الطريقـة لأنهم تعـودوا على صحافة السـين والجيـم والمديح والإطراء أو التنكيل والشتم، لا ثالث بين هاتين الصيغتين.

ولكـن هذا الرجل هو ابن الصحافة الاسـتقصائية، ملتزم بمهنية عاليـة، حاول بعض السياسـيين أن يتجاوز عليها مثـل إعطائه المال، وهـذا عـرف «صدامـي» ونظام يبـدو أنه لـم ينقطع من سـياق الدولة العراقية الجديدة من خلال ممارسات بعض قياداتها مع الإعلاميين العراقيين، إلا أنه رفض تسـلم «مكرمة الرئيس العراقي»، فهذا واجبه وعمله، وبمجرد الحصول على هذه «المكرمة» ستدخل الأمور في منظار آخر لا يريده ولا ينتمي إليه.

ربما يسأل سائل لماذا حشرت شخصية زلماي خليل زاد في هذا الكتـاب الذي يتناول القادة العراقيين أمثـال إياد علاوي وعبد العزيز الحكيم وجلال الطالباني وبعض القصص عن العنف الطائفي.

هذا صحيح، ولكن زاد لعب دوراً مهماً اسـتراتيجياً كمنسق بين

هذه الشـخصيات حينما كانت تعارض نظام صدام وأيضاً في تشكيل الحكومات التي تلت سقوط نظام البعث وصدام.

والقـارئ يـرى هـذا الـدور وفاعليتـه، فمثـلاً لولا تدخـل هذا السـفير الـذي كان أكثر من سـفير يؤدي مهـام دبلوماسـية بين رئيس الـوزراء العراقي آنـذاك الجعفري والرئيس العراقـي الطالباني حينما كان يتشـاجر الاثنان على بناية الناتو والتي تقع ضمن حدود المنطقة الخضـراء لحصلت حرب أهلية عربية كردية داخل المنطقة الخضراء ولتحولـت حمراء، فلولا هذا التدخـل الأمريكي لزاد لانتهت الأمور ربمـا بمعركة تقودها «البيشـمركة من جهة وميليشـيا رئيس الوزراء» كما يصفها أندرسن.

تصـوروا كانت مقدمات الحرب الأهلية خارج حدود المنطقة الخضراء بين طوائف الشـعب العراقي في بغداد على أوجها، وبدل أن تتوحد جهود القادة لإطفاء فتيل هذه الحرب التي ستأخذ العراق إلـى اللاعـراق، كان القائدان يتحاربان حول بنايـة؟! هذه بعض من المشـاهد السـاخرة والمؤلمـة التي يسـوقها جـون عبـر تناوله لهذه الشخصيات.

هـذا الكتاب الذي هو عبارة عن مشـاهدات وحوارات خاضها الإعلامـي والكاتـب الأمريكي أندرسـن مع أبرز وأهم الشـخصيات التي هيمنت على المشهد السياسي في العراق آنذاك، وبعضها ما زال يشـكل ظاهرة حتى اليوم ونشـرت جميعها بنصهـا الأصلي في مجلة النيويوركر الأمريكية الشهيرة.

وفضـلاً عن المشـاهد السـاخرة التي أشـرنا إليهـا، هناك بعض القصص المرعبة وتحديدا قصة أم عامر وقضية ثأرها من أفراد جيش المهدي، تلك القصص تفرض على من يريد أن يعود بالعراق إلى بلد آمن ومسـتقر وبلد مدني، عليه أن يعيد للعديـد من العراقيين آدميتهم التي نهشتها الحروب والفتن والجشع، عليه أن يعمل لبرلمان يؤسس

لثقافة التسامح وينهي إلى الأبد كل ممارسات مؤسساته ثقافة القطيع لأي كان. عليه أن يراجع مع العراقيين قضية حاجة الشعب العراقي الى المصحة النفسية الكبيرة والمسماة الوطن والتي تُبنى على أساس مفهوم المواطنة وليس شيء آخر.

العراق أشبه «ببطل جريح» نعم هكذا يصفه الرئيس الإيراني أحمدي نجاد، وهو فعلاً كذلك، ولكن دواؤه ليس بيدي هذا الرئيس كما يشير إلى ذلك المرجع خامنئي في حواره مع الرئيس العراقي جلال الطالباني، فلن يضمد جروح العراق إلا أهله وقياداته الوطنية لينهض معافى من كل أمراضه وعقده إما موحداً من أبعد نقطة في العمادية إلى الفاو، وإما عراقاً لا تلعب بمصائره خيارات الاصطفاف السياسي التي جربها الشعب العراقي المظلوم وتحديداً شعب الوسط والجنوب بعد 2003، أي انسلاخ المحافظات والشعب الذي ضم إليه عنوة وهو الشعب الكردي ليكون جاراً بمحافظاته الكردية الثلاث التي ستكون حينئذ نواة أول دولة، كردية في تاريخنا الحديث وكما يؤكد ذلك إيمان بعض القادة الأمريكان أمثال غالبيريث الذي قال: «عاجلاً أم آجلاً ستكون هناك كردستان مستقلة. وكذلك تعديل الدستور الذي كتب بضغط أمريكي على حد تعبير الراحل عبد العزيز الحكيم الذي كان هو اتفاقية سلام أكثر من كونه ممارسة لبناء أمة، وكان أيضاً خارطة طريق لتفادي الحرب الأهلية».

نعم نحن في زاوية ضيقة وعلينا فعل شيء، هذا ما ردده الأمريكان يوم قرروا القيام بالتطهير، أي بالقضاء على أية مقاومة لوجودهم أو للتغير الذي فرضوه بعد احتلالهم للعراق، كانوا في تقنية حرب الغزالية وما وراء الاندفاع يستخدمون حيل صدام في احتواء المعارضة، وهذا ما أكده الضابط لجون أندرسن، نعم إنهم يستخدمون أسلوب عدوهم اللدود، فوسيلة مقاومة التمرد على النظام: «هو تحصين الناس وتوفير حاجاتهم».

لقـد وقع بالطبـع الكاتب ببعـض المغالطـات التاريخيـة، التي ربما كان يسـتمع إليها من بعض الناس الذين رافقوه أو التقى بهم في رحلاته المتكررة، وهي «أن السـنّة هم قتلة الحسـين إمام الشيعة وأن السنّة هم من فجروا مرقد الإمام العسكري في سامراء» رغم أن نتائج التحقيـق فـي هذا الحادث لم تثبـت إدانة أي طـرف، ومهما كان فلا يصح هذا التعميم على أهل السنّة .

ثمـة أسـئلة في هـذا الكتاب، وبعد قـراءة أي فصل مـن فصوله ستبقى عالقة في الذهن: هل سينسحب الأمريكان كما تشير إلى ذلك بنود الاتفاقية الأمنية بين العراق والأمريكان؟ وفي الوقت نفسه يبوح هـذا الضابـط للكاتب مـن أنهم أخبروه أن وحدته سـتبقى لسـنوات هناك؟

هل سيعاد النظر بجدية وبلا حساسيات ونفاق سياسي بالدستور الذي كتبه القادة وبتدخل أمريكي وصادق عليه عراقيون تشكل الأمية أكثـر من نصفهم، وهـم لم يثقفوا جيداً حول بنوده التي يشـوب كثيراً منهـا الغمـوض أو التأويل، لقد خرج هذا الدسـتور وبعد أعوام عدة من أفق خارطة الطريق لمنع الحرب الأهلية، فمتى سيكون للعراقيين دستور هو دستور يرقى ببلد اخترعت أرضه أولى مبادئ القوانين في العالم؟

متى سـترتقي الحكومـات العراقيـة إلى هموم شـعبها وحقوقه الإنسـانية المدنية، وتنزع عنها عباءات اللاعدل التي رافقت تأسـيس الدولة العراقية حتى اليوم؟ فعلى حد تعبير السـيد عبد العزيز الحكيم «المشاكل لم تكن بين الناس، إنها ببساطة تاريخ حكومات غير عادلة حكمـت العـراق، فليس في تاريخ العراق وسـجله مـا يورطه بحرب أهلية».

هـل سـيعرف الساسـة كلهـم بجميـع ولاءاتهـم حينمـا تدخل الرصاصة إلى الرأس فإن جميع السياسة تخرج من النافذة؟

وهل حقاً أن أي طريق سـيتخذه العراق «فإن ذلك سيعتمد على ما نفعله» على حد تعبير القائد العسكري للقوات الأمريكية؟

أسئلة كثيرة تبحث عن أجوبة في زمان تبقى الأسئلة معلقة فوق مشانق السياسة ودكاكين الدبلوماسية.

رجلنا في بغداد
مهمة زلماي خليل زاد

في إحدى الأمسيات من أواسط شهر تشرين الثاني استقبل زلماي خليل زاد السفير الأمريكي في العراق زائراً في مكتبه في السفارة الأمريكية في بغداد التي تحتل مبنى القصر الجمهوري القديم لصدام حسين، وهو مكان فيه غرف ذات سقوف عالية وقاعات كبيرة وسلالم مزينة بالعقيق والرخام. وقد أقامت الولايات المتحدة فيها كياناً بيروقراطياً شبه عسكري من حيث درجاته الوظيفية وبيئته العملية غير الهرائية التي هي عبارة عن شيء شبيه بوزراة الدفاع الأمريكية (البنتاغون). ومع وجود خمسة آلاف موظف ومتعاقد، فإن السفارة تعتبر الموقع الحقيقي للسلطة في العراق. أما زائر خليل زاد فقد كان فلاح النقيب وهو عربي سنّي شغل منصب وزير الداخلية في العراق في حكومة إياد علاوي المؤيدة للأمريكان إلى حين هزيمتها في انتخابات كانون الثاني الماضي من قبل ائتلاف الأحزاب الشيعية الدينية.

لقد جاء النقيب إلى خليل زاد تماماً كما يفعل الآخرون من المسؤولين العراقيين إن كانت لديهم قضية عاجلة يريدون مناقشتها. لقد أخبر النقيب خليل زاد أن لديه وثيقة تثبت أن خلفه في وزارة الداخلية (بيان جبر) كان قد أمر بإلقاء القبض على ستة عشر من السنّة الذين وجدوا معدومين في ما بعد. وقال إن (جبر) كان قد

احتجـز أيضـاً ابن صديق لـه لما كان يعتقده أسـباباً سياسـية. ولعدة شـهور وردت تقارير تفيد بأن ألوية وزارة الداخلية المشـكلة حديثاً كانـت تنفـذ عملياتها بأسـلوب فرق المـوت في بغـداد وضواحيها وتقوم باغتيال المشـتبه بهم من السـنّة عـادة. وكان (جبر) وهو أحد المسؤولين الكبار في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق قـد جند عـدداً كبيراً من رجـال الميليشـيات من الجناح العسـكري للمجلـس والذي يعـرف بتنظيم بدر كـي ينضموا إلـى قوات الأمن الحكومية. وقال النقيب: إن الميليشـيات كانت تشـكل مشكلة أبعد مدى من مشكلة المسلحين. وكان يريد من خليل زاد أن يقوم بشيء حيال ذلك.

رفع خليل زاد حاجبيه باهتمام وأشار إلى مساعد له كان يجلس في زاوية الغرفة لأخذ الملاحظات. وأشـار قلقاً إلى أن الميليشـيات كانت فعلاً تعتبر مشـكلة. «فهي جذور للحرب الأهلية في المستقبل أو ما تسـمى بسـيادة أجـواء الحرب» كمـا قال للنقيب. ثـم أردف إنه خطـط لإقامـة برنامج لإخـراج أفراد الميليشـيات من الشـوارع ومن قوائـم الرواتب. إلا أن قلقله المباشـر كان الإرهابييـن الذين يعبرون الحدود السورية إلى العراق.

لقـد كان خليـل زاد معتمـداً لـدى الحكومـة العراقيـة الجديدة ولكـن مع إسـناد مـن مائة وسـتين ألـف جنـدي أمريكي، فإنـه يبدو الشـخص الـذي يربط شـتات الحكومـة معـاً. ويبدو منصبه أشـبه ما يكـون بمبعـوث المفوض السـامي الملكي أكثر من كونه دبلوماسـياً تقليديـاً. فـي الواقـع إن الصراع الـذي يتعامل معه هو صـراع طائفي بشـكل متزايد. فمنذ الغـزو الأمريكي في آذار 2003 شـعر الأقلية من العـرب السـنّة الذين كانت لهـم حظوة لدى صدام حسـين بأنه قد تم تهميشـهم بانتقال السـلطة إلى الشـيعة. لذا فالتمرد العراقي هو سنّي بشـكل كبير والحال نفسـه مع الانتحاريين الجهاديين. لذا فالضحايا

الأساسيون المستهدفون في تصورهم هم الشيعة فضلاً عن الجنود الأمريكان توازناً مع السنّة الذين يقعون ضحايا للمسلحين الشيعة والجنود الأمريكان.

وبعد أسابيع قليلة من زيارة النقيب قمت بمصاحبة خليل زاد في سفرته ليلاً إلى خارج العراق لحضور مؤتمر في فيينا. وفي الطائرة العسكرية أخرج مساعد له عدة حقائب للأوراق تحمل شعار مطاعم ساندويتش (سابواي). وكان لسلسلة المطاعم هذه فرع في المنطقة الخضراء وهي المنطقة الأكثر حماية، حيث يقع مقر السفارة ومقر الحكومة العراقية وحيث يعيش أغلب الأجانب في العراق.

إن خليل زاد هو شخص طويل القامة والوجه وعيناه قهوئيتان وأنفه مدبب كبير وفكّه قوي. وكان لباسه أنيقاً ويفضل البدلات السوداء أو الرمادية الداكنة لرجال الأعمال. ويبلغ من العمر أربعةً وخمسين عاماً ويمشي بقامة منتصبة لكن ساقيه مرتخيتانِ كلاعب كرة سلة. وحين تناولنا غداءنا أخبرني أن القوات الأمريكية قد داهمت في الليلة السابقة بناية وزارة الداخلية واكتشفت 173 سجيناً محتجزين سراً في قبو أرضي. (وظهرت القصة في اليوم التالي على الصفحات الأولى للصحف حول العالم). وكان العديد من السجناء يعانون من سوء التغذية أو المرض الشديد وبدت عليهم علامات التعذيب. وقال خليل زاد إن الجنود كانوا قد وجدوا أدوات للتعذيب بما في ذلك السياط والأسلاك المعدنية التي جلبت إليه لمشاهدتها في مكتبه ذلك المساء. فقال: «إن ذلك أمر سيء جداً».

كان خليل زاد يتمتع بسمعة المفكر الاستراتيجي، وكان رجلاً ذا غرائز سياسية استثنائية ويبدو إن ألاهتمام الذي أبداه للمداهمة لم يكن يبدو عرضياً. وحين أخبرني فيما وجده الجنود بدا واضحاً

أنه كان مستعداً لمثل هذا الاكتشاف وأنه كان قد استنبط خطوط رد فعله مسبقاً. لقد كان وقع القصة مثل وقع الكارثة على حكومة بوش. فالحرب قد تم تبريرها (على الأقل من ناحية استرجاع الأحداث) كأسلوب لجلب الديمقراطية إلى العراق. والآن يبدو أن الولايات المتحدة وجدت نفسها في وضع تساند فيه حكومة تستخدم نفس التكتيكات ضد خصومها كالتي كان يستخدمها صدام. إلا أن خليل زاد لم يكن قلقاً جداً بل حاول أن يجعل الاكتشاف يبدو شيئاً جيداً لأنه سيبعث برسالة إلى جماعة السنّة مفادها أن الأمريكان كانوا يتدخلون لصالحهم. وأنَّ ذلك سيجعل الشيعة في الحكومة يعرفون أن هناك حدوداً لسلطتهم. تلك السلطة التي كانت أمريكا راغبة في فرضها.

في إطار الدعاية التي أحاطت بالسجن السري لوزارة الداخلية كان السياسيون السنّة في واجهة الأشخاص الذين أدانوا الحكومة. وحيث إن الحرب بدأت فإن السنّة على نحو عام قد اعتبروا بعثيين أو عشائريين مستائين أو إرهابيين إسلاميين. (في الواقع إن النقيب وبكل تعابير سخطه كان متهماً بالسماح بالتعذيب حين كان في السلطة). وكانت تلك واحدة من المرات الأولى التي كان السنّة فيها قادرين على الادعاء على نحو مقنع أنهم كانوا ضحايا وقد فازوا بفعل ذلك).

لقد كان خليل زاد كرئيس للبعثة الدبلوماسية الأمريكية في العراق يبدو مثل مندوب سامٍ أكثر من كونه دبلوماسياً.

.....

.....

ومن عدة أوجه يبدو خليل زاد مبعوثاً نموذجياً للعراق. فهو قد ولد في أفغانستان وتلقى تعليمه في بيروت وأمريكا وهو مسلم معتدل مع خبرة طويلة في دوائر السياسة الخارجية الأمريكية.

ومنذ 11 سبتمبر 2001 كان زاد في صميم سياسة الحرب على الإرهاب لدى الحكومة الأمريكية. وحين قامت الولايات المتحدة بغزو أفغانستان كان خليل زاد المساعد الخاص للرئيس لشؤون الشرق الأوسط وغرب آسيا، حيث كان مسؤولاً أمام مستشارة الأمن القومي كوندليزا رايس في حينها. وقد عمل على نحو وثيق مع حلف شمال الأطلسي والخصوم الآخرين لنظام طالبان. وبعد سقوط كابول ساعد على جمع شتات الحكومة الانتقالية لحامد كرزاي. وفي أواخر 2002 حين كانت الحرب على العراق في مراحل التخطيط سماه الرئيس بوش سفيراً للعراقيين الأحرار.

لقد كان خليل زاد من الصقور وكان قريباً من المحافظين الجدد مثل (ريتشارد بيرل) ونائب وزير الدفاع السابق (بول وولفوتز) وكان قد طرح مشروع تغيير النظام في العراق من قرابة أكثر من عقد من الزمن. وقد وصل إلى بغداد قبل أيام قليلة من وصول أول القطعات الأمريكية مع الجنرال (جاي غارنر) الذي أرسل للإشراف على إعمار العراق. لكن بعد أسابيع قليلة تم استدعاء خليل زاد وجاي غارنر على نحو مفاجئ إلى واشنطن وبطلب من البنتاغون وتمَّ استبدال (بول بريمر) بهما، وهو الذي أصبح رئيس سلطة الائتلاف الموقتة. وكان بريمر قد برهن في كل ناحية على كونه غير كفء. فحلّه الجيش العراقي في مايس 2003 قد أعطى المسلحين زخماً واستمرارية توسعية على نحو كبير.

في أواخر 2003 أرسل خليل زاد إلى أفغانستان كسفير للولايات المتحدة. أما رصيده السياسي في الحكومة الأمريكية فقد كان كبيراً نتيجة نجاحه هناك. وبينما كان في كابول، أجرت أفغانستان أول انتخابات حرة لها في التاريخ وفاز بها كرزاي بسهولة. وقد اعتبر كرزاي خليل زاد صديقاً مقرباً ومستشاراً، وقد أحزنه قرار الرئيس بوش في نيسان الماضي تسمية (نغروبونتي)

ليكـون خليفـة لبريمر في بغـداد. وقد طلب كرزاي عـدة مرات من الرئيس بوش مراجعة قراره.

علـى أية حـال لقد نقل بـوش خليـل زاد بعدما فقـدت القوات الأمريكيـة سـيطرتها على الأمن فـي العراق. فقد كان هنـاك أكثر من 100 تفجيـر بسـيارات مفخخـة فـي شـهر نيسـان وحـده. وكان عدد الوفيات من الجنود الأمريكان قد تجاوز 1700 (وارتفع في الأسـبوع الماضي إلى أكثر من 2100). وقد نشـر البنتاغون أول إحصائية له في عدد القتلـى للحرب في العراق، وقدر التقرير أن قرابة 26000 عراقي قد قتلهم مسلحون بين كانون الثاني 2004 وأيلول 2005. ولكن الرقم لم يتضمن عدد العراقيين الذين قتلهم الجنود الأمريكان.

حين منح خليل زاد منصب السـفير الأمريكي اتصل مباشـرة بـ (زبغنيو بريجنسـكي) مستشـار الأمن القومي في عهد الرئيس كارتر، والذي كان أستاذاً لخليل زاد عندما كان الاثنان في الكلية في كولومبيا في بداية الثمانينيات. وقال بريجينسكي مؤخراً: «لقد أخبرته أنه يتعين عليه أن يكون مهتماً بالسياسة وليس عن تنفيذ السياسة. وكان عليه أن يتحمل أكثر من سـابقيه ممن لم يعرفوا شـيئاً عـن العراق. ولا أعرف كم من صنّاع القرار البارزين لدينا قد عرفوا قبل سـنوات قليلة الفرق بيـن السـنّة والشـيعة. لقد كان قـراراً شـجاعاً في أن يضع نفسـه على خط النار. إنه شـخصية براغماتية متفتحة وهو استراتيجي ذو بصيرة. وكانـت له ميزة فريدة في جزء من العالم الذي أصبحت فيه الولايات المتحـدة متورطة وليس لديهـا العديد من الناس فـي القيادات العليا ممـن لديهـم القدرة علـى التعامل مع ذلـك. فصنّاع القـرار البارزون اليوم هم عبارة عن جهلة ودمى».

أخبرنـي (كينيـث أدلمـان) عضـو مجلـس السياسـة الدفاعيـة الاستشـارية والمؤيد البارز لغزو العراق قائلاً: «كنت قلقاً قليلاً حين تم سـحبه من أفغانسـتان إلى العـراق لأنـه كان أفغانيـاً ويتكلم اللغة

الأفغانيـة وكان يقـوم بعمـل جيد هناك، فلـم أصدق أنهـم لم يجدوا شـخصاً يديـر العراق لهم». قـال أدلمان إن خليـل زاد المتحالف مع وزيرة الخارجية رايس «كان يتعامل مع أهم قضية بالنسبة إلى الإدارة الأمريكية. إنه في الصميم». وأضاف: «نحن يقيناً ما كنا لنكون بأفضل حال لو لم يكن هو هناك منذ البداية».

وقد طرح الأخضر الإبراهيمي المستشـار الخاص للأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان نقطة مماثلة حين تحدثت معه وقال: «لقد كنـت تمامـاً ضد الحرب، لكن الانطباع الـذي كان لدي هو أن خليل زاد قد جاء ببعض الأفكار والمشاعر المفيدة عن الوضع».

وأخبرني عادل عبد المهدي النائب الشيعي لرئيس الجمهورية: «إن بريمـر كان إداريـاً بينما نغروبونتي كان دبلوماسـياً أما زلماي فقد كان شرقياً».

سـألت مهدي عمـا يعنيه بذلـك فأوضح قائـلاً: «زلماي يطرح نفسـه على أنـه من المنطقة هـو يتصرف بطريقة وديـة أكثر وهو يفهم حضـارة المنطقـة ويعرف أن بوسـعه أن يدعو نفسـه للمجـيء ويرانا وحيـن يأتي يقـول: «هل لنا بدقيقـة نتحدث فيها معـاً؟»، وهو يعرف أن الناس الآخرين سـيأتون كما جرت العادة لدينا وأنه سـيكون هناك وسيناقش أموراً عديدة معهم ويكون جزءاً من نقاشاتنا».

لقد سـمعت تقييماً مماثلاً من عراقي آخر هو مستشـار لسياسي كبيـر: «إن (زال) يجعلـك تشـعر أن اقتراحاتـه تصـب فـي المصالح العراقيـة وأن جميع اللاعبين الكبـار يحبونه». وأضاف: إن خليل زاد «يعرف كيف يلعب ورقته الإسلامية».

قال موظف كبير سابق في وزارة الخارجية ممن عمل على نحو وثيـق مـع خليل زاد في أفغانسـتان إنـه تأثر جداً بما أنجـزه هناك، إلا أنه حذر بأن العراق سـيكون أصعب. وقال: «في السـنتين الماضيتين

ابتعدنا عن كوننا مسؤولين عن عدم رغبتنا في ما نحن مسؤولين عنه»، فمهمة (زال) هي التعامل مع الفترة الانتقالية التي يعتبر العراقيون مسؤولين عنها على نحو كبير. و(زال) قادر على العمل في بيئة كهذه. ولكن يحزنني أحياناً كوننا وضعناه في هذه المنطقة عام 2003 ثم أخرجناه ثم أعدناه إلى هناك في وقت يمكن أن أدعوه بالمعنى الجاري بالوقت الميت – إنها مجرد إشارة إذ أنها قد تمضي في هذا الاتجاه أو ذاك ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يقول بأي حال إن بوسعه تسمية ذلك هكذا».

أما موجز عمل خليل زاد المتهاوي فهو ضمان الأمن والاستقرار السياسي في العراق يكفي بالسماح بالانسحاب الأمريكي. والسؤال هو ما إذا كان الوضع قد وصل إلى نقطة يتعذر فيه إصلاح الوضع حتى بالنسبة إلى أفضل الدبلوماسيين – سواء كان خليل زاد هو الرجل الصحيح في الوقت الخاطئ أم لا. وهناك مفارقة لا مهرب منها إزاء عودة خليل زاد إلى بغداد. اذ ليس من غير المتوقع منه إنقاذ وضع ساء نتيجة الأحكام السياسية الخاطئة التي أطلقها المسؤولون الذين أبعدوه أنفسهم عن المشهد عام 2003 فقط بل إنه كذلك يتعامل وبطريقة لم يقم بها أحد الصقور من قبل مع نتائج الحرب التي ساعد هو بالبدء بها.

وقال (بيتر دبليو غالبريث) سفير أمريكا السابق في كرواتيا الذي كتب بإسهاب عن العراق والأكراد: «إن خليل زاد على نحو مطلق جزء من عصبة المناوئين الجدد التي جاءت بالحرب على العراق. وأنا أعهد له بجلب أول جرعة من الواقعية رأيتها في هذه الإدارة منذ أن جاء الأمريكان إلى العراق».

أخبرني خليل زاد أنه عام 2003 كان قادراً على التنقل بحرية في شوارع بغداد وشراء البوظة وهو أمر لم يعد بالإمكان الآن تخيله. وعوداً على بدء كان متفائلاً بالنسبة إلى العراق. وبعد سنتين

ونصف كان قد عاد إلى بيئة تغيرت على نحو كبير مع وجود مقاومة قادرة على كسب الفائدة بشنها سبعين هجوماً في اليوم. وبعد مضي أقل من أربعة أشهر على وجوده كانت هناك حملة مكثفة في الكونغرس لسحب الجنود الأمريكان مما كان يبدو للعديد من أعضائه إنها حرب خاسرة.

وقال خليل زاد: «شئنا أم أبينا فقد وضعنا أنفسنا في موضع يرتبط بوقتنا ومكانتنا وأمننا المستقبلي». ثم قال بعدئذ: «أرى نفسي جندياً، أي جندياً دبلوماسيّاً تم إعادة تجنيده. فحين تعيّن عليَّ العودة إلى العراق بعد أفغانستان لم يكن ذلك قراراً سهلاً. فقد قمت بتطوير علاقات جيدة مع العديد من الناس هناك وشعرت أن الكثير قد تم إنجازه إلا أن أفغانستان لا يزال أمامها طريق طويل... ثم تعيّن عليّ بعد ذلك العودة إلى هنا».

في بغداد كان التهديد بالعنف بارزاً جداً وسائداً بحيث أصبح لا مفر منه. والعنف يضرب أحياناً بدقة وفي أوقات أخرى بعشوائية الإعصار. فعندما ضربت سيارات مفخخة يقودها انتحاريون فنادق فلسطين وشيراتون في تشرين الأول وقتلت 17 شخصاً، كنت أنا أمكث في فيلا تبعد بضع مئات من الأقدام عن ذلك، فاهتزت البناية وتطاير زجاج العديد من شبابيكها. واستقرت عشرات الشظايا في الحديقة مع أجزاء ملتوية من مشعة (راديتور) سيارة. وفي الصباح التالي ووسط الأنقاض وجدت أقدام بشرية مبتورة في الشارع الذي لا يبعد سوى بضع ياردات في ما يشبه الأزبال التي لم يتم جمعها بعد.

إن المنطقة الخضراء تعتبر نوعاً من المأوى من الحرب. وباستثناء قذائف المورتر التي تطلق عليها والقنابل التي تنفجر حولها (وأحياناً بداخلها كما حدث في مناسبتين منفصلتين) بشكل دوري، فإن العنف في العراق هو عبارة عن شيء مجرد

بالنسبة للأمريكان الذين يعيشون هناك. لكن في المداخل المحصّنة حيث يتم تدقيق الأشخاص والسيارات وحيث تنتهي المنطقة الخضراء ويبدأ العراق فإن الجنود العراقيين غالباً ما يكونون منفعلين. وخلال مكوثي هناك أطلقوا عيارات نارية فوق رأسي مرّتين: الأولى حينما مرت سيارتي بالقرب من مواقعهم. والثانية في أحد الأيام وبعد لقائي مع خليل زاد كنت على وشك الخروج من المنطقة الخضراء حينما هزّ انفجار كبير المنطقة ودون أن يبعد سوى بضع مئات من الأقدام خارج الجدران ثم أعقبه إطلاق نار، إذ دمرت سيارة مفخخة عجلة يقودها متعاقدون تابعون إلى شركة (دنكروب) العالمية. وقد قتل الانفجار اثنين من أفراد الشركة وكلاهما من جنوب إفريقيا.

إن مسكن خليل زاد في المنطقة الخضراء هو دار كبير من الحجر مماثل للدور الفارهة في المناطق القريبة في بغداد يقع محاذياً للشارع ذي الجدران الكونكريتية العالية. ويسيطر على المداخل جنود وحماية أمريكية ويتعيّن على العربات التي تقترب منه أن تجتاز حواجز من الفولاذ باتجاه مصيدة الدبابات. وكل مرة يغادر فيها خليل زاد المنطقة الخضراء فإنه يكون بمعيّة كل آلة الحرب السيارة وهي رتل من السيارات المدرعة يقودها رجال أمن هم موظفون في شركة بلاك ووتر الأمريكية، وهي شركة تأسست في كارولاينا الشمالية. وأفراد هذه الشركة معروفون في بغداد بدك السيارات التي لا تنزاح عن طريقهم بسرعة. وغالباً ما ترافقه طائرات هليوكوبتر للإسناد الجوي.

أما بالنسبة للمسؤولين العراقيين الذين يعملون في المنطقة ويعيشون في مكان آخر فإن المخاطر تكون مضاعفة إذ تم اغتيال العديد منهم في طريقهم من وإلى مناطقهم. إن هؤلاء المسؤولين عادة يقومون بإرسال عوائلهم إلى الخارج.

في شـهر تشـرين الأول جلسـت في لقاء بين خليل زاد وعدنان الباججي، وهو علماني سـنّي كبير في السـن يبلغ الستينات من العمر وخـدم كوزير لخارجية العراق وكسـفير في الأمـم المتحدة. ويعيش الباججـي فـي بغداد خـارج المنطقة الخضـراء، إلا أن زوجتـه وابنته تعيشـان فـي لنـدن، وكذلك الحـال مع أقـارب أحمـد الجلبي، وهو سياسـي منفي سـابقاً، وكذلك إبراهيم الجعفري رئيس الوزراء وإياد عـلاوي، (أما زوجة عادل عبد المهدي وأولاده فيعيشـون في فرنسـا وقـد اغتيل شـقيقه فـي بغداد في شـهر تشـرين الأول). وفـي إحدى المـرات ذكر خليل زاد أنه ذهب إلـى «المنطقة الحمراء» لزيارة رجل ديـن. بـدا الباججي مسـتغرباً وسـأله: «ما هـي المنطقـة الحمراء؟»، ولدى ارتباكه لوهلة أوضح خليل زاد أنه يعني بغداد.

فـي يوم آخـر التقى خليـل زاد السـفير الذي يمثل أحد شـركاء أمريـكا في التحالف، وهو بلد لديه قطعات في العراق. قاد خليل زاد النقـاش إلى برنامـج الإعمار الـذي كان يأمل أن يحـل بالبلد. إلا أن السـفير الأجنبي كان يريـد الحديث عن قضية الأمن. وكان مسـؤول حكومـي كبير قد اسـتولى على البناية التي كان بلد السـفير قد حصل عليها داخل المنطقة الخضراء لسفارتهم. (وقد طلب السفير الأجنبي عـدم ذكر اسـم بلده أو اسـم المسـؤول العراقي في التقرير لأسـباب أمنيـة). ونتيجـة لذلـك أجبر هـو وموظفـوه على العيـش في ظروف خطرة خارج المنطقة الخضراء.

قـال خليل زاد إن مسـألة السـكن فـي المنطقة الخضـراء كانت مشـكلة، فقد تخاصم مؤخـراً الجعفري وجلال الطالبانـي على بناية فارغة. وقال خليل زاد ضاحكاً: «إن الرئيس كان على وشـك إرسـال قـوات البيشـمركة وهي الميليشـيات الكرديـة». لقد أنصت السـفير الأجنبي إلى هذه الحكاية بصمت مطبق. (علمت بعد ذلك أن رجال الجعفـري والطالبانـي كانوا على وشـك إطـلاق النار علـى بعضهم

حينما تدخل خليل زاد. احتفظ الطالباني بالبناية وهي عبارة عن مقر سابق لحلف الناتو).

حاول خليل زاد تغيير الموضوع إلى مسألة المساعدة المالية التي وعد بها بلد السفير. فأخبره السفير: «هناك تباطؤ في الاستثمار. فهناك المعارضة كما تعرف بسبب قضية السكن. وإن لم تهتم الحكومة العراقية بما يكفي لحكومة تنفق أموالاً طائلة في بلدها إذاً لماذا.....» خفت صوته ثم نظر إلى خليل زاد بتوقع.

وعد خليل زاد بالتحدث مع رئيس الوزراء العراقي حول الدار، ولأول مرة بدا السفير الأجنبي مسروراً فقال: «سوف يحبك رجال حمايتي».

حينما وصل خليل زاد إلى بغداد هذا الصيف كانت مهمته الأولى هي المساومة على حل وسط في الدستور. فالوقت المحدد كان 15 آب وكانت هناك انقسامات عميقة. فقد قاطع السنّة بالأغلبية انتخاب كانون الثاني لبرلمان مسؤول عن وضع وثيقة، وشعر العديد من السنّة أن مصالحهم قد أهملت. ومدّد الوقت النهائي لأسبوعين وبحث من خليل زاد الذي حاول أن يساوم على حل وسط.

أخبرني طارق الهاشمي زعيم الحزب الإسلامي العراقي الذي يهيمن عليه السنّة أن خليل زاد قد ساعد على إقناعه بالموافقة على المسودة. وقال الهاشمي إن العديد من السنّة لم يفهموا أو يوافقوا على قراره. بل إن المتطرفين أطلقوا صاروخاً على مقر حزبه انتقاماً. وحين تحدث خليل زاد قال: «طرحت القضية له وقلت بأن عليه ضمان بقاء العراق موحداً في الوقت الحالي. فنحن على شفا حرب أهلية وأخشى أن يكون المستقبل مظلماً».

وقد وافق حاجم الحسني وهو سنّي معتدل ذو ثقافة أمريكية وهو الناطق بلسان البرلمان الوطني الانتقالي للعراق على أن خليل زاد قد ساعد على جلب السنّة إلى العملية السياسية. وقال: «إن خليل

زاد لعب دور الوسيط ويعلم كل شخص أنه وثيق الصلة بإدارة بوش لذا فقد كان ذلك مفيداً».

أما رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية الشيعي عبد العزيز الحكيم فقد كان أكثر تحفظاً. ففي المفاوضات الدستورية قال: «إن للولايات المتحدة قلقاً كبيراً وهناك الكثير من المصالح الأمريكية معنية بذلك ولا يمكننا أن نقول إن السيد خليل زاد كان محايداً بالمعنى الكامل للكلمة، وهذا له صلة بالاستراتيجية الأمريكية بل حتى إن الرئيس الأمريكي بوش تدخل في العملية باتصاله بي. هذا أمر طبيعي».

لقد خدم (بيتر غالبريث) كمستشار غير رسمي للزعماء الأكراد مسعود البرزاني وجلال الطالباني خلال المفاوضات وحضر عدداً من اللقاءات مع خليل زاد. وقال إن خليل زاد الذي أعرفه لأكثر من عشرين عاماً برهن على كونه براغماتياً. «لقد أدهشني ذلك بصراحة لأنه أيديولوجياً جداً وبراغماتياً جداً. لكني تأثرت بما فعل».

إن قناعة (غالبريث) لها صلة على أية حال بما يعتبره الآخرون نقطة ضعف كبيرة في الدستور. أي أنه يمهد الطريق إلى إقامة دويلات سنّية وشيعية وكردية. وقال (غالبريث): «إن الأكراد حصلوا على كل شيء أرادوه وسيطروا على النفط لديهم وسيادة القانون الكردي على القانون العراقي وعلى جيشهم وتقييد سلطة الحكومة المركزية». بينما ترك العديد من القضايا الشائكة بما في ذلك مطلب الشيعة بمنطقة حكم ذاتي خاصة بهم دون حل. وتمت الموافقة على المسودة في مذكرة وطنية رغم معارضة المحافظات السنّية.

كان (غالبريث) أحد الناطقين الرئيسيين للفكرة القائلة بأن تجزئة العراق ستكون الحل الأفضل. فقد قال: «إن العراق كبلد لن يتحد. المسألة هي ما هي الفترة الفاصلة المناسبة وما إذا

ستكون هناك دولتان أو ثلاثة. لكن عاجلاً أم آجلاً ستكون هناك كردستان مستقلة وهذا ما يدركه خليل زاد. فقد قام بما توجب على الاستراتيجيين القيام به». وأشار (غالبريث) إلى علم خليل زاد بأن الجدل حول التزام الولايات المتحدة بأمة واحدة موحدة في العراق قد تضاءل. «فهو قد فهم بسرعة أن هذا الدستور كان عبارة عن اتفاقية سلام أكثر من كونه ممارسة لبناء أمة وأن ما كان عليه القيام به هو خارطة طريق لتفادي الحرب الأهلية». وقال (غالبريث): «من الواضح أن خليل زاد هو صانع سياسة وهناك سوء فهم مألوف بأن السفراء الأمريكان يذهبون ويحتسون الشاي وينقلون رسائل صيغت في واشنطن. إلا أن السفير حقاً هو مسؤول عن السياسة في ذلك البلد. لديك الخبرة والمعرفة وتعرف الناس بشكل مطلق. إنه موقعك لنقل ذلك. لديك فائدة على الناس في واشنطن. لقد فهم خليل زاد ذلك في أفغانستان ويفهمه الآن في العراق. وهو في إطار صياغة تعليماته. لذا حين يخرج ويتكلم مع شيوخ السنّة أو يؤخر الدستور للسماح بالحلول الوسط فإنه الشخص الذي يجب أن يقوم بذلك وليس واشنطن».

ومن ملاحظاتي لخليل زاد أثناء العمل بدا لي كونه دبلوماسياً أقل من كونه منظراً للفوضى يبحث عن مواطئ للنظام في الفوضى. وقال خليل زاد: «أقول لأصدقائي هناك فوضى تحت السماء وهناك العديد من الفرص متيسرة الآن. وإن صادفكم وضع صعب وصادفكم العديد من اللاعبين وكان بعضهم أسوأ من الآخرين فإن الفوضى ستعمّ».

إن خليل زاد ليس بالمتحدث الموهوب بشكل خاص إلا أن خلقه جميل سوى أن أحاديثه مليئة بالتوقعات والجمل الاعتراضية وهي أصداء لأشياء كان الرئيس بوش وكوندليزا رايس قد قالاها. إن حقل اختصاصه الحقيقي هو اللقاءات المغلقة. وفي مكتبه كان

قليلاً ما يجلس إلى طاولته بل كان يفضل سحب كرسي والانضمام إلى متحدثيه. وحين يكون مع عراقيين كان غالباً ما يضع مسبحة بخرزات خضراء بيده رغم أنه يقوم بذلك بطريقة غير واعية وليس مثل المتدينين المسلمين ممن يستخدمون كل خرزة في المسبحة كوقفة في صلاة ذهنية. بالنسبة لخليل زاد فإن الخرزات تفيد كنوع من الدعم باعتبار أن ذلك إشارة مرئية مناسبة لهويته الإسلامية. إنه يراعي جداً مثل هذا الإتيكيت الاجتماعي. فحينما التقى آية الله حسين الصدر، وهو رجل دين بارز، جلس وظهره منتصباً أكثر من المعتاد وركبتاه مسحوبتان لبعضهما. وقد استخدم مسبحة الصلاة بشكل واضح.

وحين التقى فلاح النقيب جلس خليل زاد أمام مكتبه بينما جلس النقيب على كرسي الزوار. كان لهذا تأثير في جعل النقيب يبدو أعلى قليلا من خليل زاد حينما كانا يتحدثان. وفي هذه المناسبة كان خليل زاد يداعب خرزات مسبحته بالطريقة التي يداعب بها رجل أعمال قلمه. ونادراً ما كان يخيب رأيه بل كان يتفق مع الأحاديث المستفزة للنقيب وقد يقول: «هل تعتقد ذلك؟».

في إحدى اللحظات انحنى النقيب إلى الأمام وسأل بعصبية: «هل بإمكانك أن تخبرني ما إذا كانت الإشاعة التي نسمعها صحيحة – بأن وزراة الدفاع الأمريكية تدعم أحمد الجلبي في الانتخابات؟». قال خليل زاد وقد بدا مستمتعاً: «بوسعي أن أؤكد لك أن ذلك ليس صحيحاً». وأضاف: «إن السياسة الأمريكية تقضي بعدم تفضيل أي مرشح». أنصت النقيب إلى خليل زاد بانتباه وقال: «حسناً إذاً» وبدا مرتاحاً.

لقد كانت الانتخابات البرلمانية المقرر إقامتها في 15 كانون الأول هي المحور الرئيسي في جميع لقاءات خليل زاد. وقد كان خليل زاد ينقل رسائل حول مصالح أمريكا وهي رسائل مغلفة

بالغموض الدبلوماسي لكنها قابلة للتفسير من قبل زواره. وقد وجدت أن هناك قناعة مخلصة بين العديد من العراقيين بأن إياد علاوي رئيس الوزراء السابق قد بقي المرشح المفضل لحكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا. وقد انضم النقيب والباججي إلى ائتلافه. لكن خليل زاد في اجتماعاته معهم طرح قضية الفساد في كل مرة يذكر فيها اسم علاوي. وكانت حكومة الجعفري قد أصدرت أوامر بإلقاء القبض على مجموعتين من مسؤولين سابقين من حكومة علاوي وفي قضية تنطوي على بليون دولار في إنفاقات حكومية مفقودة. وحين سأل خليل زاد الباججي حول هذه التهم أجاب الباججي بامتعاض بأنه يعتقد أنها تهم ذات دوافع سياسية. وحين سأل خليل زاد النقيب حول الفساد قال: «هذا أمر حتمي بسبب عدم الأمن في البلد». ورد خليل زاد ضاحكاً: «لذا فإن كل واحد يكسب ذلك كضمانة؟».

قال النقيب: «بالضبط وأنا أراهن بأن هذه الحكومة بعد انتهائها سيكتشف أنها فاسدة أكثر بعشر مرات من حكومتنا».

سألت خليل زاد ما إذا كانت تهم الفساد تلاحق علاوي. قال إنه بالرغم مما كان لديه من القلق إلا أنه لا يرى أي دليل يرتبط بعلاوي شخصياً وأنه كان قد تحدث إليه حول القضية وأكد بأن عليه أن يبرئ ذمته. إن تأكيد خليل زاد على القضية حين تحدث مع حلفاء علاوي كان على ما يبدو ذا هدف مزدوج: لجعلهم يدركون الحاجة للتعامل مع التهم ولتعزيز الانطباع بأن الولايات المتحدة حيادية أو من الممكن إبعاد الولايات المتحدة إن ظهر دليل أكثر على علاوي.

قال خليل زاد إنه يعتبر علاوي والجعفري وعبد المهدي نائب رئيس الجمهورية الشيعي كأول المتسابقين في الانتخابات، في حين اعتبر أن أحمد الجلبي مرشح وسط. فالجلبي كان لسنوات

مفضـلاً لـدى المحافظيـن الجـدد، إلا أن سـمعته قـد تأثرت بسـبب تمريره معلومات سـيئة إلى وزارة الدفاع، وفي مايس 2004 اتهم بنقل معلومات سرية إلى إيران. إلا أن الجلبي بقي سياسياً بارزاً في العراق – وهـو الآن نائـب رئيـس الوزراء – وحين زار واشـنطن في تشـرين الأول التقى بنائب الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد ورايس.

قـال برهـم صالـح وهـو سياسـي كـردي بـارز: «هناك شـيء واحـد يجـب أن تعرفه حـول زلماي ألا وهـو أن أحـداً لا يمكنه أن يلطخ سـمعته». فخلال المحادثات حول الدسـتور كان السياسيون العراقيـون مثـل «قطيع مـن القطط وهـو كان صاحـب القطيع هذا» كما قال. وأضاف: «إن (زال) اسـتراتيجي بشكل محدد ولكنه أيضاً يمتلـك عينـاً للتفاصيل، فهو لم يمانع من صرف سـاعات طويلة مع لاعبيـن صغـار إن شـعر أن ذلك مهم للهـدف المطلـق. كذلك فإنه جيد فـي التكتيك أيضاً». وأضاف أيضاً بأن قدرة خليل زاد كمهاجر أفغانـي فـي الوصول إلـى قمـة المؤسسـة السياسـية الأمريكية كان مصـدر اهتمام دائم لدى السياسـيين فـي بغداد. وقـال: «العراقيون مفتونون بذلك».

لقد ولد خليل زاد في مدينة مزار الشريف الشمالية من أفغانستان عام 1951. وفي حينها كان والده موظفاً مدنياً في حكومة الملك ظاهر شـاه حيـث كان يعمل في دائرة محلية فـي وزارة المالية. وقال إن أمه «لـم يكـن لديها أية ثقافة رسـمية غير أنها كانت امرأة عصرية واسـعة الاطـلاع دائمـاً. ولم يكن بوسـعها القـراءة أو الكتابـة إلا أنها تجعل الأولاد يقرأون الصحف لها. أعتقد لو أنها كانت قد ولدت في وقت مختلف لكانت شخصية سياسية مرموقة».

وقالت زوجة خليل زاد، (شيرل بينارد) وهي أسترالية – أمريكية تعمل كمحللة سياسـية كبيـرة في مؤسسـة (RAND) وهي مجموعة

بحثيـة حيث كانت هي وزوجها يعملان ولسـنوات: «إن والدة (زال) قـد تزوجت من أبيـه بعمر الثانية عشـرة. وكان والـده بيروقراطياً من الطبقـة فـوق الوسـط وكان كذلـك أوتوقراطيـاً. و(زال) يدعـو أمـه بالطباخة القوية، فهو يعتقد أنه لو لم يكن هناك تقدم اجتماعي للنساء فـي المجتمع فلن يكون هناك فترة من التقدم الاجتماعي البتة. وأحد الأشـياء التي أثارت اهتمام (زال) في الولايات المتحدة هي الطريقة التي تعامل بها النساء».

وحيـن أنهـى خليـل زاد الصـف الثامـن انتقلـت عائلتـه إلـى كابـول، وفي الصـف العاشـر أصبح تلميـذاً لامعاً فـي صفه ومنح فرصـة للتبـادل الثقافـي والسـفر إلى الولايـات المتحـدة. وقضى تلك السـنة مع عائلة في سـيريس، وهـي مدينة قريبة من موديسـتو فـي ولايـة كاليفورنيا، حيـث كان رب هـذه العائلة مهندسـاً يعمل في معمـل لصنع النبيذ يدعى (غالو) وكانت الأم تعمل كمدرّسـة. وحين عاد خليل زاد إلى أفغانسـتان كان قد تغير. وقال: «أصبحت لـديّ قيـم مختلفة واهتمـام كبيـر بالرياضة وأصبحت لـديّ طريقة براغماتية أكثر للنظر إلى الأمور كما أصبح لديّ أفق أوسـع. وكان لـديّ إحسـاس بمـدى تخلـف أفغانسـتان وأصبحـت مهتمـاً أكثر بحاجة أفغانسـتان إلى التغيير».

بعـد الثانوية التحـق خليـل زاد بجامعة كابـول. ويتذكر قائلاً: «فـي أحد الأيام كنت أتمشـى مـع أصدقائي وكان هنـاك إعلان عن اختبارات للترشـيح إلى بعثات إلى الجامعة الأمريكية في بيروت». وقـرروا أخذ الاختبار لمجرد أن يبرهنـوا أن بإمكانهم اجتيازه «مثل أي فاشـل». وبعد فترة علم خليل زاد أنه فاز بالبعثة وكان لديه أربعة أسـابيع للمغـادرة إلى بيـروت. «أتذكر أني قلت لهـم إني لم أخطط للذهـاب. وقد صدموا بذلك». لكن السـفير الأمريكي روبرت جي نيومـن الـذي التقاه خليل زاد فـي حفلة الرابع من تمـوز أقنعه بأخذ

البعثة. (هذا الصيف تسنم ابن نيومان، رونالد منصب والده القديم بعد أن تركه خليل).

وصل خليل بيروت عام 1970 وبقي هناك حتى عام 1974، أي سنة قبل الحرب الأهلية في لبنان. وقد درس العلوم السياسية وتاريخ الشرق الأوسط. في ذلك الوقت كانت بيروت مدينة متطورة وحضرية وكانت الجامعة الأمريكية واحدة من المنابر الفكرية والثقافية في الشرق الأوسط حيث يلتقي الشباب العرب والأوربيون والأمريكان ويدرسون ويناقشون القضايا علناً. ويستذكر خليل زاد ذلك بقوله: «لقد كانت مكاناً رائعاً بالنسبة إلى شاب. فقد كان هناك شباب من جميع أنحاء العالم وقد تعلمت الكثير عن أفغانستان والشرق الأوسط».

والتقى خليل زاد أيضاً (شيرل بينارد) التي كانت تجري بحثاً لنيل الدكتوراه حول القومية العربية. وقالت (شيرل): «أنا تربيت في كنف العسكرية. فوالدي كان يعمل مع قوات الاحتلال الأمريكية في فيينا. وكانت أمي نمساوية وقد تربيت في القواعد العسكرية في أمريكا وأوروبا». و(شيرل) امرأة نحيفة تبدو شابة مع بشرة بيضاء وشعر مجعد. ولها من خليل ولدان، الأكبر في الثانية والعشرين والأصغر في الرابعة عشرة.

عام 1975 ذهب خليل زاد إلى جامعة شيكاغو لإكمال دراسته لنيل الدكتوراه في العلوم السياسية. ويستذكر أوغسطس ريتشارد نورتن أحد زملاء خليل زاد وهو الآن أستاذ العلاقات الدولية في جامعة بوسطن بقوله: «لقد كان (زال) ابن السبعينيات وهو يرتدي الجينز وقصة شعره غير مرتبة. لقد كان يبدو مثل أحد المتطرفين في غرب بيروت في تلك الأيام».

في شيكاغو أصبح خليل زاد أحد طلاب (ألبرت هولستيتر) وهو خبير بالاستراتيجية العسكرية. أما جدل (هوليستتر) فينصب

علـى أنه ينبغي على الولايات المتحـدة أن تحقق التفوق العالمي من خـلال الأسـلحة النووية الاسـتراتيجية، وكان لذلـك تأثير قوي على تفكيـر حركة المحافظين الأمريكان الجدد. ويتذكر خليل زاد أنه كان يجلس في محاضرة يتحدث فيها (هوليسـتتر) عن «حتمية الحرب». هنا رفع خليل زاد يده وسـأل عن «حتمية السـلام الدائم». لقد جذب ذلـك انتباه (هوليسـتتر) فطلب أن يرى خليل زاد بعـد الدرس ودعاه إلى الانضمام إلى ندوة كان يحاضر فيها.

عقد (هوليستتر) ندواته في شقة في شيكاغو، وقد دعا إليها أناساً مثـل (وولفتز) الـذي كان أحد تلامذته كي يتحـدث إلى المجموعة. وقـال نورتـن إن «زاد قد نجح فـي هذه البيئة». وكان (هوليسـتتر) قد شذب شبكة من المفكرين ذوي الذهنية المتماثلة في كل من شيكاغو ومؤسسـة RAND حيـث عمل لعدة سـنوات وحيث عمـل بعد ذلك العديد من باحثيها في مناصب حكومية. (لقد قدم هوليستتر بيرل إلى الجلبي). وحسب نورتن فإن (هوليستتر) كان قد ساعد خليل زاد على إقامـة علاقات في واشـنطن فـي وقت مبكر من حياتـه. وقال نورتن: «بـدون هذه العلاقات ربما كان زاد قد انتهـى كأكاديمي مغمور. فقد استطاع ألبرت أن يعطيه إمكانية الوصول السريع إلى القمم الأولمبية العالية من السلطة وكانت هذه بحد ذاتها مزية كافية».

أخبرنـي خليـل زاد أنه وجد هوليسـتتر شـخصية مدهشـة تذكر بالعديد من الأسماء مثل «جون كنيدي» و«كيسنجر». لقد بدأ بالعمل لصالح مجموعة فكرية كان هوليستتر قد أقامها وهي (مجموعة دعم الكشـف الذاتي) التـي كانت لها تعاقـدات مع الحكومـة الأمريكية. وكتـب خليل زاد عـدة مقالات لصالـح (مجموعة الكشـف الذاتي) حول الانتشـار النووي، وكتب رسالة دكتوراه حول البرنامج النووي الإيراني. قالت شـيرل بينارد: «إن هوليستتر أصبح ذا نفوذ هائل على حياته وهو ما حوّله نحو الاستراتيجية».

في عام 1979 حصل خليل زاد على عرض للتدريس في قسم العلوم السياسية في جامعة كولومبيا. في ديسمبر من تلك السنة غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان. وكتب خليل زاد عدة مقالات حول الحرب ضد السوفييت باستخدام اسم مستعار لحماية أفراد عائلته الذين كانوا لا يزالون في أفغانستان. وقال خليل زاد: «كتبت أن السوفييت قد ارتكبوا خطأ فادحاً بغزو أفغانستان بحيث بات بالإمكان إلحاق الهزيمة بهم. وقد كان ذلك ضد الحكمة التقليدية القائلة بأن السوفييت سوف يهيمنون على الأفغان...». وقد نالت هذه المقالات اهتماماً كبيراً في الأوساط الحكومية.

لقد أصبح خليل زاد مواطناً أمريكياً عام 1984، وبعد مدة قصيرة فاز بزمالة من مجلس العلاقات الخارجية الذي يهدف إلى منح الأكاديميين الخبرة العملية. «لقد كنت أنوي القيام بذلك حول الحرب النووية في وزارة الدفاع. غير أن جورج شولتز وزير الخارجية آنذاك قد سمع بذلك وقال: «لا لا لا، إنس موضوع الحرب النووية نحن نحتاجك هنا من أجل حربين: حرب العراق وإيران وحرب أفغانستان».

قالت شيرل بينارد: «كان يحب التدريس لكنه مثل أي عالم سياسة فإنك ستحب أن يستمع أحد إلى نصيحتك». وأضافت: «حين كان في وزارة الدفاع كان يعود إلى البيت ويصف يومه الذي يجعلني أقتل نفسي لكن عينيه كانتا تومضان».

لقد كانت الولايات المتحدة تسرب المساعدة إلى المجاهدين من خلال وكالة المخابرات المركزية والمخابرات الباكستانية. ولدى وصول خليل زاد عام 1985 وقع الرئيس ريغان توجيهاً سرياً يخوّل بموجبه زيادة في المساعدة إلى الأفغان، إلا أن الإدارة الأمريكية كانت منقسمة حول ما إذا كان ذلك يشمل صواريخ (ستينغر) الحرارية المضادة للطائرات أم لا. وقد جادل خليل زاد بقوة بأنه

يجب إعطاؤهم ذلك. وبعد أشهر من الجدل حصل المجاهدون على صواريخ (ستينغر).

قال خليل زاد: «لقد بعثت صواريخ (ستينغر) برسالة كبيرة. لقد كان سراً معلناً بأننا أصبحنا معنيين، غير أن القناة المخابراتية أعطتنا فائدة الإنكار التي أبعدتها صواريخ (ستينغر). لقد أصبحت القوة والمكانة الأمريكية معنية إذ عبرنا العتبة. لكن في الوقت نفسه كان هناك مقدار كبير من البحث عن الذات حول ما إذا كان ذلك سيجعل الأمور أصعب أو لا بالنسبة للسوفيت في أن يتراجعوا».

لقد قلّلت صواريخ (ستينغر) من الهيمنة الجوية للسوفيت وهي تعتبر الآن من الأمور التي ساعدت على إقناع قيادة الكرملين بالانسحاب من أفغانستان عام 1989. لقد قتلت الحرب قرابة مليون أفغاني وشوّهت عشرات الألوف وخلّفت خمسة ملايين لاجئ. وبعدما غادر السوفييت قطعت الولايات المتحدة مساعدتها عن المجاهدين الذين بعدما غمرتهم الأسلحة تركوا وحدهم في مقاتلة بعضهم بعضاً. وقد أدى ذلك إلى حرب أهلية مهلكة وبروز حركة طالبان ثم استخدام القاعدة لأفغانستان كمنصة انطلاق لها. لقد كان لخليل زاد ما يفتخر به لدوره في مسؤولية الولايات المتحدة عن الانفجار الداخلي - ذلك الانفجار الذي حدد بأن الأخطاء لا تقع على عاتق السياسة التي أيّدها بل على عاتق الذين تساءلوا عنها.

لقد أخبرني في خضم نقاش حول العراق: «دعني أولاً أقدم رأياً موسعاً عن معتقداتي. أنا أعتقد أنه خطأ فادح أن نعتقد عند بداية أي شيء أنك تعرف النهاية. فقد يكون لذلك أحياناً تأثير مضر لما تقوم به وهذا من شأنه أن يعيق خياراتك ويقيّد حيز الاحتمال لديك. ففي أفغانستان مثلاً كان أحد الافتراضات الرهيبة هو أن السوفييت كانوا سيربحون. لذا لم يعط أي اهتمام إلى من كنت تقدم المساعدة وما

عسى أن يحدث بعد الانسحاب السوفييتي. وحيث أنه لم يكن هناك سيناريو لفترة ما بعد السوفييت، فما كنّا إذاً لنسمح لعديد من العرب بالدخول ولما كنا تعاقدنا ثانوياً مع العديد من الأشياء.

لقد كانت الحرب ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان هي التي دفعت خليل زاد لكي يصبح أحد صقور السياسة الخارجية. في عام 1988 كتب تقريراً سياسياً دعا فيه الولايات المتحدة إلى تحويل اهتمامها من إيران إلى العراق. وقال خليل زاد: «إن ذلك كان نوعاً من التحليل الجيوبولتيكي البسيط وإن إيران كانت قد ضعفت بشكل كبير في الصفحة الأخيرة من الحرب العراقية الإيرانية وبرز العراق بعدها كقوة عسكرية هائلة في الخليج.. فعلينا الآن أن ندرس بعض الخيارات الصعبة: هل نساعد إيران بشكل مباشر أم غير مباشر، هل سنلعب دوراً مباشراً في احتواء العراق بأنفسنا أم نقلّل من شأن العراق أو صدام من الداخل؟». لقد سرب أحدهم ذلك إلى صحيفة نيويورك تايمز وذكر أن الإدارة الأمريكية تدرس سياسة جديدة نحو العراق وإيران».

ونتيجة لهذا التسريب عقد وزير الخارجية شولتز لقاءً «طلب شولتز عمن كتب المذكرة. فقال الناس: زاد قد كتبها. وبينما كان شولتز يقرأها بدأ وجهه يحمر أكثر وأكثر. قلت: سيدي أنا آخذ راتباً كي أقدم المشورة الجيوبوليتيكية. ثم بعد ذلك كتب «لا» كبيرة عليها. إلا أن الفكرة قد انتشرت».

ترك خليل الحكومة ليذهب إلى مؤسسة RAND عام 1988. في السنة التالية طلب منه الجنرال (نورمان شوارتسكوف) رئيس القيادة المركزية للجيش الأمريكي أن يشترك في دراسة التهديد الذي يبديه صدام. قال خليل: «خلال أيام حصلت مؤسسة RAND على عقد كبير. فقد دعيت من قبل وزير الدفاع تشيني في حينها للتفكير

ما إذا كنت سأعود إلى وزارة الدفاع وأعمل فيها. وقد حصلت على الوظيفة بعد يومين من بدء الهجوم».

كان خليل زاد غير سعيد من نتيجة الحرب التي طردت صدام من الكويت إلا أنها تركته في السلطة. قال: «لقد فكرت بصراحة بأنه ينبغي لنا أن نساعد العراقيين على التخلص منه. فقد كان هناك سياق من القلق المشروع بشكل واضح وهو أننا لو ذهبنا إلى بغداد فقد نبقى هناك. أتذكر أني أرسلت مذكرة إلى تشيني أقول فيها: "ليس بوسعك أن تتوقف! لدينا فرصة القيام بشيء أكبر"».

بعد الحرب أعطي لخليل زاد مهمة جمع تحليل الموقف الاستراتيجي الأمريكي في عالم ما بعد الحرب الباردة الجديد. وكانت النتيجة هي الإشارة إلى ما يدعى بمسودة التوجيه الدفاعي «سيئة الصيت» لعام 1992. لقد عكست هذه المسودة مساهمات العديد من المسؤولين في وزارة الدفاع بمن فيهم (وولفوتز) و(تشيني)، كما كشفت عن النظرة الاستراتيجية التي يشترك بها خليل زاد. ويتذكر خليل زاد ذلك بقوله: «إن الجوهر المركزي لهذه المسودة كان ينصب على أن القطبية الثنائية قد انتهت، وأن الولايات المتحدة هي القوة الرائدة الوحيدة في العالم وأن هدفنا في هذه الحقبة الجديدة هي الحيلولة دون عودة النظام الثنائي القطب أو النظام المتعدد الأقطاب». لقد حددت المسودة استراتيجية إدامة الهيمنة العالمية لأمريكا من خلال التهديد بالقوة ضد القوى الإقليمية البارزة. وقد سربت المسودة أيضاً إلى الإعلام حيث تعرضت إلى انتقاد شديد، ونتيجة لذلك فإن النسخة النهائية التي تمت كتابتها مرة أخرى كانت أقل صدامية. إلا أن المسودة ينظر إليها الآن على أإنها محددة للعقيدة المتشددة للمحافظين الجدد التي درست من بين أشياء مسألة الحرب التعرضية.

لقد قاوم خليل زاد محاولة وصفه بالمحافظ المتجدد «حسب

علمي أنا لم أجلس مع الناس وأقول: «آه هنا عقيدة وهذا ما تعنيه» كما قال. ولكن في ما يخص العراق على أية حال فقد كان زاد في صميم معسكر المحافظين الجدد لعدة سنوات قبل الحرب. وفي عام 1998 وقّع رسالة مفتوحة إلى الرئيس (كلينتون) دعا فيها إلى القيام بعمل أشد ضد صدام. ومن بين الموقّعين الآخرين كان (رامسفيلد) و(ولفوتز) و(بيرل). وأخبرني خليل زاد أنه كان قد وقّع لأنه كما قال: «حين تركت الحكومة كان هناك إحساس أننا لم نقم بالشيء الصحيح في العراق، أي أن لدينا عمل لم يكتمل».

حينما ظهر خليل زاد في الصحافة على مدى سنوات ارتبط اسمه بصنع السياسة وراء الستار، واعتبر في بعض الأوساط شخصاً غريباً من شأنه أن يشكل نمواً مظلماً للقوة الأمريكية الإمبريالية. وهناك قضية واحدة أثارت الجدل وهي ارتباطه بشركة الطاقة المسماة أونوكال (Unocal) التي أعطت لخليل شكل الشخصية التي رسمها (مايكل مور) في فلمه «فهرنهايت 9/ 11». في أواسط التسعينيات كانت الشركة هذه قد حاولت بغير نجاح ضمان صفقة خطوط الغاز من حكومة طالبان التي استحوذت على السلطة في كابول عام 1996 بعد سنوات من الحرب الأهلية. لقد اقترح (مور) إن الجمهوريين قد تقربوا من طالبان في بداية فورة الصناعة النفطية ثم تحولوا ضدهم حينما لم يقوموا بالصفقة.

لقد عمل خيل زاد كمستشار براتب حول مشروع أنبوب الغاز، وخلال المفاوضات عبّر بشكل علني عن دعمه لطالبان. في عام 1996 وفي مقال افتتاحي للواشنطن بوست كتب خليل زاد إن «طالبان لم تمارس أسلوب الأصولية الإسلامية المناوئة للولايات المتحدة التي تمارسها إيران – إنها قريبة من النموذج السعودي. إن هذه المجموعة تؤيد مزيجاً من قيم البشتون التقليدية ولها تفسير كلاسيكي للإسلام». كما التقى بمبعوثي طالبان في زيارتهما إلى هيوستن.

ويتذكر ريتشارد نورتن مشاركته في ندوة مع خليل زاد في ذلك الوقت. «إحدى القضايا التي ناقشناها كانت تدور حول إمكانية العمل مع طالبان وقد كان متفائلاً. لقد كان (زال) محقاً في العديد من القضايا، إلا أنه بالتأكيد كان مخطئاً في ذلك».

أخبرني خليل زاد: «إن قضية أنبوب الغاز تلك في أفغانستان أصبحت أسطورة في كل مدينة. لقد تم توجيه السؤال لي ليس من قبل أونوكال بل من قبل مركز بحوث الطاقة في كيمبرج. ومن هناك برزت هذه القضية، إلا أني في الغالب ذهبت باتجاه كيمبرج. وخلال ذلك الوقت قمت بالشهادة بضع مرات حول أفغانستان أمام الكونغرس، وقد كنت منتقداً بشدة لطالبان».

قال خليل زاد إن ما غير فكره عن طالبان هو وحشيتهم وليس الصفقة الفاشلة. ولم يكن هو المسؤول السابق الوحيد المعني. وبعدة طرق فإن مشروع الأنبوب النفطي مثّل الباب الدوار الكلاسيكي لواشنطن بين عالم الشركات ومؤسسة السياسة الخارجية.

وقالت شيرل بينارد: «بوسعك أن تنظر إلى الحياة السياسية لـ(زال) وتجد أشياء تنتقدها. مثلاً أونوكال. ويقوم المحللون السياسيون خصوصاً إن كانوا خبراء إقليميين بتحليل المخاطر الخاصة بالشركات. لكن في حالة (زال) فإن ذلك انفجر بشكل لا يمكن السيطرة عليه، فهناك المواقع الإلكترونية والتقارير الإخبارية التي تحاول أن تحدد دور (زال) مع أونوكال كتفسير للهجوم الأمريكي على أفغانستان. إنه أمر مجنون».

بعد انتخاب جورج دبليو بوش في عام 2000، أدار خليل زاد فريقاً انتقالياً في وزارة الدفاع خاص برامسفيلد. فقد أخبرني (كين أدلمان) من مجلس السياسة الدفاعية بقوله: «ربما اعتبره رامسفيلد ضعيفاً لأنه كان مبتسماً على الدوام وكان لطيفاً بالنسبة لمهمة صعبة،

وهـذا ربمـا كان السـبب وراء عـدم حصوله على منصـب نائب وزير الدفـاع لشـؤون السياسـة، ذلـك المنصب الـذي كان يصلـح له لكنه ذهـب إلى (دوغ فيـث) الذي كان غيـر محظوظ كما أصبـح واضحاً فـي ما بعد (لقـد لعب فيث دوراً رئيسـياً فـي جمـع المعلومات التي اسـتخدمت لبناء قضية الحرب لدى الحكومة الأمريكية). لقد ذهب خليـل زاد إلـى مجلس الأمن القومـي بدلاً عن ذلك. وقـال أدلمان: «لقـد كان موظفاً غير بارز، لكن حين جاء الحادي عشـر من سـبتمبر فتش الناس في ما حولهم وكان هو هناك».

في صبيحة الحادي عشـر مـن سـبتمبر 2001 كان خليل زاد في قاعـة تقييم الموقف فـي البيت الأبيض حيث كانـت كونداليزا رايس تتـرأس اجتماعاً. «حيـن ضربت الطائـرة الأولى كان لدينا إحسـاس بأنها قـد ضلت طريقها. وحالما ضربت الطائـرة الثانية تمت الدعوة إلـى الاجتمـاع حيـث اندفعت رايـس. وخرجنـا من البيـت الأبيض إلـى جادة بنسـلفانيا وانتظرنا إلـى حين تم تبليغنا بأن كل شـيء آمن. وبينمـا كنا في الخارج كانت هناك مختلف الشـائعات والأقاويل بأن (الكابيتـول هيل) قد ضـرب ووزارة الدفاع قد ضربت. ثم بدأنا النظر إلى أفغانستان متعقبين القاعدة».

فـي الأيـام التـي أعقبت الحادي عشـر مـن سـبتمبر كان خليل زاد معنيـاً بالمناقشـات حول اسـتجابة الإدارة الأمريكيـة. قال خليل زاد: «كان أمراً مريعاً. لقد أدركت أننا سـنعنى بحرب وأن أفغانسـتان سـتكون مسـرحاً لها. في تلك اللحظة تحددت حقبـة ما بعد الحرب الباردة. فأفغانسـتان كانت هامشية بالنسبة إلى المصالح الأمريكية ثم أصبحت مركزية بين ليلة وضحاها».

أخبرنـي الأخضـر الإبراهيمـي، مسـؤول الأمـم المتحـدة، أنه التقـى خليـل زاد لأول مـرة فـي مفاوضـات بـون في ديسـمبر 2001 لتشكيل حكومة ائتلافية لما بعد طالبان. «كلانا كان لديه التزام عميق

بشـعب أفغانسـتان. ومن الواضح أني مثلت الأمم المتحدة وهو مثّل الولايـات المتحـدة وكل منا جاء ليدلو بدلـوه». إلا أن خليل زاد كما يقـول الإبراهيمي «كانت لديـه قدرة فريدة على الإنصات كما كانت لديه القـدرة على التقاط أو إيجاد الأرضية المشـتركة بين الآراء التي تبدو بالنسـبة إلى المراقب العرضي متضادة تماماً. فالمفاوض الجيد ينصت إلى الآراء التي يتم التعبير عنها ويحاول إيجاد عبارة – أو حتى كلمـة واحدة – تتطابق مـع الرأي المعارض ويسـتخدم ذلك لإيجاد أرضية مشتركة. وبوسعه القيام بذلك».

أخبرني مسـؤول دولي آخر كان قد اشـترك في مفاوضات بون: «إن الإبراهيمي كان شرطياً جيداً وخليل زاد كان شرطياً شريراً. وهذا جيـد فقـد كان (زال) جيداً بشـأن الرد علـى الهاتف وتهديـد الناس. وكان مرتاحاً من هذا الاستخدام للنفوذ».

بعـد عـدة أشـهر تـم تعييـن خليـل زاد لتنظيـم أمـور المنفيين العراقيين تحسـباً لغـزو أمريكي. فعقد مؤتمراً في لندن في ديسـمبر 2002 مـع موفديـن مـن مجاميع بقيـادة الجلبي وعـلاوي والبرزاني والطالبانـي والحكيـم، ثـم مؤتمـراً آخر في شـباط 2003 فـي مدينة السـليمانية الكردية من العراق. وسـافر خليل زاد في رتل لأربعمائة كيلومتر في شمال العراق، وكان بوسعه رؤية قوات صدام على خط السيطرة.

إن هـذه المحادثات وأخـرى أعقبتها كانت بمثابة درس له كما قـال. فمـن بين المؤيدين للحـرب كان هناك جدل حـول ما إذا كان بالإمكان تشـكيل حكومـة موقتة من شـخصيات المعارضة العراقية أو إقامة سـلطة احتلال وقيام العراقيين بدور استشـاري. كان خليل زاد قد فضل الطريقة الثانية لكنه حين تحدث إلى العراقيين «وجدهم معاديـن لذلك بشـدة. لذا حملت رسـالة بـأن ذلك لـن ينفعنا». من ناحيـة قبلـت الإدارة الأمريكيـة بفكـرة الحكومـة الموقتـة لكن مع

مـرور الوقت تـم تعيين بريمر «فتغيرت اللعبـة برمتها» كما قال. فقد وضـع العراق تحت وصايـة الولايات المتحـدة وبريطانيا بقرار من الأمم المتحدة.

قال عبد المهدي نائب رئيس الجمهورية الشيعي: «كنا غاضبين جـداً حيـن وجدنـا ذلك». سـحب كتفيـه وأضـاف: «كانـت الإدارة الأمريكيـة مشوشـة في تلـك الأيـام». ويتذكر الباججي أنـه دعي من قبـل خليل زاد إلى بغداد، ولدى وصوله في أوائل شـهر أيار وجد أنه قـد رحل وتم اسـتبداله ببريمر الـذي يصفه بأنه «رجـل وزارة الدفاع الأمريكية». وأضاف: «لا أعتقد أن (زال) يشعر أن بريمر قد قام بعمل جيد هنا».

أشار (كين أدلمان) باستياء إلى بول بريمر على أنه «كارثة بشكل كبيـر وأنـه كان حريصاً بشـكل واضح على دعم نفسـه أكثـر من دعم العراقييـن لحكم البلد». لقد أخبرني هـو وآخرون أن بريمر قلّما كان يتحدث مـع اللواء (ريـكاردو سانشـيز)، نظيره العسـكري، مما كان لـه عواقب سـلبية. وبالمقارنـة كان لخليل زاد علاقة عمـل وثيقة مع الجنـرال (جورج كيسـي) الذي خلف (سانشـيز) كقائـد أمريكي في العراق. لقد كان (كيسـي) سـهلاً وقارئ كتب تـرأس أغلب المعارك الكبيرة في العراق منذ أن بدأت الحركة المسلحة بشكل جاد، بما في ذلك الهجوم على الفلوجة. وكان له ولخليل زاد مكتبين متقاربين في السفارة وغالباً ما كانا يلتقيان ويتحدثان.

كان لبولنـدا، وهـي إحـدى مـا تبقى من الـدول التي شـكلت ائتـلاف الرئيس بوش فـي الحرب على العراق، عديـد قطعات يبلغ ألف وخمسمائة جندي، وهي بذلك تعد خامس أكبر قوة في العراق بعـد أمريكا وبريطانيا وكوريا الجنوبية وإيطاليا. في الثاني عشـر من نوفمبـر التقى خليـل زاد بـ (رادوسـلاو سيكوريسـكي) وزير دفاع بولنـدا. لقـد كان (سيكوريسـكي) البالـغ مـن العمر اثنيـن وأربعين

عاماً والمتخرج من أوكسفورد مراسلاً حربياً سابقاً. وقد تسلم منصبه في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول مع رئيس وزراء بولندا المحافظ الجديد (كازيميرز مارسينكيوسكي). وقد صحب سيكوريسكي ثلاثة ضباط عسكريين كبار بولنديين وسفير بولندا في العراق (ريزارد كريستوسيك). وجلس الجنرال كيسي كذلك في الاجتماع.

بدأ خليل زاد بالحديث عن خطته لإقامة فرق إعمار عسكرية – مدنية في العراق، خصوصاً وأن مثل هذه الفرق حققت نجاحاً في أفغانستان. وقد كان بحاجة إلى مساعدة بولندا، وأضاف: «نحن نأمل أن تبقوا في الائتلاف. وجورج كيسي هنا يقود جهودنا لنقل السلطة إلى العراقيين لكن ليس لدينا وقت محدد. نحن نثمن المساعدة التي قدمتها بولندا إلينا».

أخبر سيكوريسكي خليل زاد أن بقاء بولندا ضمن التحالف في العراق قد لا يمدد. فالسفير (كريستوسيك) عاش في بغداد تحت خطر كبير، وقد ازداد الخطر بسبب تقرير نشرته صحيفة الواشنطن بوست قبل أيام قليلة بأن بلدين أوروبيين شرقيين كانا يستضيفان سراً سجناء المخابرات المركزية الأمريكية من المشتبه فيهم بالإرهاب. وقد سمت منظمة حقوق الإنسان (Human Rights Watch) بولندا على أنها أحد البلدين، رغم أنَّ بولندا أنكرت ذلك. كان (سيكوريسكي) يعتقد أن وضع بولندا على قائمة أهداف القاعدة سيتحرك الآن، وأن حكومته غاضبة بشأن التقرير.

كان صوت خليل زاد معتذراً وقال إنّه يتفهم غضب بولندا، وسأل عما كان بوسع الولايات المتحدة أن تقوم به، فقال (سيكوريسكي) إن أية تصريحات يمكن الإدلاء بها لإنكار القصة ستكون خطوة جيدة. (على أية حال إنه لم يناقش القصة).

أخبر (سيكوريسكي) خليل زاد أن الاحتفاظ بكتيبة من ألف

وخمسمائة جندي في العراق هو أمر مكلف إذ إن ميزانية الدفاع لبولندا كانت ستة بلايين دولار، والعراق وحده كلف ستة ملايين دولار. فسأل خليل زاد عن الدعم الذي يمكن أن تقدمه الولايات المتحدة.

قال (سيكوريسكي): إن وزير الدفاع العراقي أخبره أنه سيعلن عن عقد نفطي لبولندا. فإن تم ترتيب عقد ثان فإنه سيساعد الأمور أكثر. وطرح (سيكوريسكي) أيضاً بعض الشائعات التي تقول بأن الولايات المتحدة كانت تخطط لقطع مساعدتها العسكرية عن بولندا. فإن صح ذلك فإن الخبر سيكون كارثياً بالنسبة له ولرئيس الوزراء البولندي. فوعد خليل زاد بدراسة ذلك أيضاً.

سأل الجنرال كيسي (سيكوريسكي) عما كانت تفكر به حكومته بالنسبة إلى قطعاتها في العراق: «هل هناك شيء أم لا شيء؟».

أجاب (سيكوريسكي): إنه كان هناك خياران، الأول كان الانسحاب الكامل من العراق والثاني كان الوجود القليل.

قال كيسي مشيراً إلى الخيار الثاني: «سيكون ذلك أمراً مساعداً جداً وهو ما ننوي جميعنا القيام به».

قبل المغادرة أخرج (سيكوريسكي) ميدالية عسكرية بولندية وعلقها على غطاء جيب بدلة كيسي. بينما أخذ له الضباط البولنديون التحية العسكرية. قال كيسي الذي بدا مرتبكاً: «لست متأكداً أني قمت بشيء يستحق ذلك لكني أشكركم».

كان خليل زاد وكيسي مدركين بشكل ينمّ عن حرص للدعم المتضائل في الولايات المتحدة للحرب وللرئيس. وأشار كلاهما بقلق إلى الجدل حول «العودة إلى الوطن»، في إشارة إلى وضع القوات في العراق. فلو غادرت الولايات المتحدة الآن كما قال خليل زاد «فمن الواضح أن حرباً أهلية ستنشب وأن هذه الحرب الأهلية يمكن أن تتصاعد بطرق عدة. وإحدى هذه الطرق هي قيام

الأكـراد بالتحرك لأخذ زمـام الأمور بأيديهم بدلاً مـن اتباع ما اتفقوا عليـه في الدسـتور. ونتيجة لذلك تنشـب صراعات إقليميـة. كما أن هنـاك احتمالاً أن تشـتد الحـرب الطائفية. ويمكنـك أن تتصور بداية حـرب طائفيـة شـيعية – سـنّية طويلة الأمد يمكن أن تشـمل الشـرق الأوسـط برمتـه. كما يمكـن أن تبرز دولـة للقاعدة في غـرب العراق وتؤسـس خلافة مـن نوع معين باسـم طالبسـتان تصـدر الإرهاب – وهـذه السـيناريوهات لا تبـدو حصريـة بشـكل متبـادل». وأضاف: «ولكن الإبقاء على هذا السـياق يجب ألا يفسـر على أنه الإبقاء على السياق في إطار كل شيء تقوم به».

ثـم قال بعـد ذلك: «إننـا لا نقوم بعمـل جيد في وصف أنفسـنا أحياناً. فأنا مسـلم أمثّـل الولايات المتحدة، لذا من الصعب بالنسـبة للنـاس أن يجادلونـي بأن أمريكا هي ضد الإسـلام. إلا أننـا في بداية تطويرنا لعلاقة الثقة سنكون من مؤيدي القضايا المعقولة والشريفة». (فـي محادثة أخرى قال: «إن لـدي أمل باقتناع جميـع العراقيين بأننا نريد حقاً لهم أن ينجحوا. لكن لدينا مشـكلة الصدقية في إقناع الناس بأن الأمور على هذه الشاكلة»).

أخبرنـي خليـل زاد أنـه خطط للتركيـز على أمن بغـداد: «ففي سـياق الحرب وفي سياق تغير سايكولوجية الوضع نحو العودة إلى الوطـن، فـإن قمنا بتوفيـر الأمن في بغداد في السـنة القادمـة فأعتقد أن بوسـعنا أن نحظى بثقة الشـعب الأمريكي في أننا نعي ما نقوم به. لكـن طالما تبقـى عاصمة العراق غير آمنة فـإن الدعم العام للحرب سيستمر بالتآكل».

وأخبرنـي خليل زاد: «إن هذا الشـيء الوحيد وهو الحرب على الإرهاب قد برز على القمة وقد حدد اسـتراتيجيتنا نوعاً ما. أما ما قد تجلبـه الحـرب على الإرهاب من نتائج – إن تمت بشـكل صحيح – فهو التهديد الذي يجعل القوى العظمى أو القوى الكبرى لا تحارب

بعضها بعضاً بل تدعوها إلى التعاون للتعامل معه، إن تم ذلك بشكل صحيح».

سألته ما إذا كان قد شعر بأن عام 2003 هو الوقت الصحيح لشن الحرب على العراق.

توقف لبرهة ثم قال: «حسناً أعتقد أنه كانت هناك قضية يمكن القيام بها حين حدثت استناداً إلى تقييم المعلومات حول ما كان يحدث بشأن أسلحة الدمار الشامل. كما كان بالإمكان طرح قضية أخرى حيث كما تعرف يمكننا القيام بها في ما بعد». وأتذكر محادثة أخبرني فيها خليل زاد مرة أخرى بأن الحرب في العراق كانت «التحدي المحدد لوقتنا». كما أضاف: «إن هذا هو صراع يكون فيه مصير الملايين من الناس في خطر. وهذا ليس مجرد ممارسة أكاديمية» يبدو أنه لم يكن يخبرني ذلك تحفظاً على نفسه.

في أواسط تشرين الأول طار خليل إلى كابول لزيارة قبر أمه وحضور مراسم تشييعها، إذ كانت قد توفيت قبل أسبوع.

وحقيقة أن أم خليل زاد كانت تعيش في كابول بقيت سراً دفيناً. فقد انتقلت إلى الولايات المتحدة عام 1981 حيث عاش الجميع إلا واحداً من أقربائه، لكنها عادت إلى أفغانستان عام 2004. وكانت قد عاشت هناك في بيتها وكان يزورها بشكل هادئ مراراً حسب ما وصفه «بالترتيبات المعقدة». وحين انتقل إلى بغداد الصيف الماضي فإن والدته التي كانت ضعيفة ومريضة قد بقيت في أفغانستان. وفي أواخر تشرين الأول حين غادر بغداد لغرض الاجتماع في واشنطن، قام بأول توقف له غير معلن في كابول كي يزورها، وماتت بينما كان هو لا يزال في الولايات المتحدة. إن بروز صورة خليل زاد واحتمال اغتياله (فقد ألقي القبض على ثلاثة باكستانيين كانوا جزءاً من محاولة لقتله في بداية السنة) كان يعني أنه لم يكن بوسعه ببساطة أن يطير إلى كابول حين علم بالخبر.

أشـاد خليل زاد بأن عمله كان في الغالب ينطوي على السعي مـن مشـكلة نحو أخـرى مثل رجـل الإطفاء. أمـا الشـيء المفقود بالنسـبة إلـى خليـل زاد والإدارة الأمريكيـة فقـد كان التركيز على المصالـح الاسـتراتيجية بعيـدة المـدى. فقـد قـال: «أقشـعر حين أفكـر في مـا يمكن أن نواجهه حيـن نترك العـراق دون أن نوضبه. فمهمـا كان الأمر الذي جـاء بنا إلى هنا إلا أنه ورّطنـا بطريقة تعني أن العالـم كلـه معني بالأمر. فأنا أخدم حسـب أوامـر الرئيس وإن كان علـيّ مغـادرة العـراق الآن فعليّ أن أكتب مذكـرة إلى الرئيس مثل التي كتبتها أيام التخطيط للسياسـة. سـأقول: «سـيدي الرئيس إليـك مـا حصـل وهذه سـتكون مشـكلتك...». أنـا غالبـاً ما أضع رسـالة الاسـتقالة ومعهـا مذكـرة فـي رأسـي. وأنـا غالبـاً مـا أقوم علـى تحديثهـا. لـذا فأنـا دائماً أضـع حقائبـي جاهـزة». وأضاف: «حتـى رجال السياسـة لدينـا ليس لديهـم التقييم الكافـي للعواقب والمخاطر والتعقيدات».

ومضـى قائـلاً: «حيـن كنـا نتعامـل مـع السـوفييت كان لدينا العديـد مـن الخبراء السـوفييت الذيـن يكتبون السياسـة ويصنعون السياسـة، إلا أننـا الآن نتعامـل مـع جـزء مـن العالـم معقـد جـداً تتلاعـب فيـه العديـد مـن العوامـل. وقـد تـم تخصيص مقـدار لا يصـدق مـن المـوارد وسيسـتمر ذلـك لسـنوات قادمة. أعتقـد أننا بحاجـة إلـى أن نضيف أناسـاً ونحصل على أفضل مـا هو موجود، فلدينـا أناس ممتـازون في القمة – الوزيرة رايس ومستشـار الأمن القومي (سـتيفن هادلي) الذين يفكرون بطريقة اسـتراتيجية. وكما تعرف أن الألمان يقولون: «شعور بطرف الأصابع»، وهو إحساس بالمكان وأنت تعرف رائحة المكان وشـعور ذلك. فالاسـتراتيجي الـذي ليس لديه هذا الإحسـاس الفطري حـول المنطقة التي يعمل فيهـا سـيضعنا فـي مشـاكل. فالحكومـة الأمريكيـة ليـس لها أناس

كفايـة في القمة ممـن لديهم هذا الإحسـاس الخاص حول العراق والشـرق الأوسـط فـي أطـراف أصابعهـم. إن لدينا أفضـل الناس يعملـون على ذلك، لكـن إذا أخذنا أهمية ذلك بنظـر الاعتبار فإننا بحاجة إلى أناس أكثر».

السيّد الكبير

إلى أين سيأخذ جلال الطالباني العراق؟

«يعتبر الطالباني شخصية براغماتية بحتة. بإمكانه القيام بدورين في الوقت نفسه».
أحد أصدقائه

في الخامس من تشرين الثاني، وهو اليوم الذي صدر فيه حكم الإعدام بحق صدام حسين، كان جلال الطالباني الزعيم الكردي ورئيس العراق الحالي يقوم بزيارة رسمية إلى باريس. وقد أقام في فيلا (لو موريس) الرئاسية الفارهة في فندق (لويس السادس عشر) المذهب الباذخ الذي يقع في جادة (ريفولي) المطلة على حدائق (توليري). تابعت صدور حكم الإعدام مع الطالباني في الفيلا التابعة له وذلك من خلال شاشة تلفزيون بلازما كبيرة لقناة العربية الفضائية. جلس الطالباني على الكرسي، وحين نظرت إليه لأرى ردّ فعله لم يكن تعبيره يخونني بشيء. ففي الحال وبعد بضع كلمات مبهمة نهض الطالباني وسار باتجاه غرفة نومه. وهرع أحد مساعديه على أطراف أصابعه وراءه، وكان من بين الحاشية التي تسافر معه دائماً، ثم عاد المساعد بعد لحظة ليقول إن الطالباني كان يجلس على كرسي ذي مساند ويسرح في تفكير عميق.

إن حكم الإعدام على صدام وضع الطالباني في موقف مربك. فصدام قد أدين بتهمة القتل الجماعي لمائة وستة وأربعين شخصاً في قرية الدجيل الشيعية عام 1982. وإن كان سيتم إعدامه فإنه سيفلت

مـن المحاكمـة الثانية عن حملة الأنفال عـام 1988 التي راح ضحيتها أكثر من مائة وسـتة وثمانيـن ألف كردي. ومما يسـجل للطالباني أنه كان يعارض عقوبة الإعدام، ولكن طبقاً للدستور العراقي فإن إحدى واجباته هي المصادقة على أحكام الإعدام. وفي إحدى التصريحات العلنية قال إنه قد حلّ هذه المشـكلة فهـو يحترم أية قرارات يصدرها القضاء العراقي. لكنه وبالرغم من هذا كان في وضع مربك.

وبعد ذلـك عاد الطالباني بمزاج أحسـن وجلس بالقرب مني، لكـن قاطعنا فـي تلـك الأثناء وصـول اثنين مـن الفرنسـيين اللذينِ كانـا يرتديان ملابس فاخـرة وهما يحملان أكياس تسـوق كبيرة منَ محلات (فاشـيونابل وأرمينيلغو زيكنا). تقدما من الطالباني وانحنيا بـكل أدب وأخرجـا زوجاً من البدلات الداكنـة اللون من الأكياس. ثـم أخـذ أحد الرجلين شـريط القياس وأوضح أنـه يحتاج لأن يقوم سيادته بخلع بعض من ملابسه لغرض أخذ القياس. وقف الطالباني وبـدأ يحاول جاهداً نزع جاكيته. فهرع إليه أحد الخدم الشـخصيين لمساعدته.

إن الطالبانـي الـذي يبلغ الثالثة والسـبعين من العمـر وله خدان متوردان وشـوارب كثـة وكرش كبير يشـبه كرش طبـاخ المعجبنت، يشـتهر بحنكتـه السياسـية وحبـه المفـرط للطعـام والسـيكار وحس الفكاهـة لديه وتفاؤله الذي لا حدود له وعـدم قدرته على الاحتفاظ بالسـر. وهو يعرف باسـم (مام جلال) الذي يعني العـم جلال باللغة الكردية. وهذا اللقب هو للتحبب والتمييز. وللطالباني شخصية زئبقية مع مزاج عالٍ للمناورة. لقد بقي في الميدان السياسي العراقي بشكل كبير بسـبب قدرته على ابتـزاز خصومه وأحيانـاً حلفائه. وعلى مدى السنوات كان قد عقد صفقات مع كل شخص: من صدام حسين إلى آية الله الخميني إلى الرئيسـين بوش. إنه الشـخص الوحيد في العالم الـذي بوسـعه الادعاء بشـكل لا ريب فيه وبشـكل لا يمكن الاعتذار

عنـه في أنه قد قبّل خدي وزيرة الخارجيـة الأمريكية كونداليزا رايس والرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد. ويشير الطالباني إلى الرئيس (جـورج دبليو بـوش) على أنه «صديق طيب»، لكنه يعتبر (ماو تسـي تونـغ) علـى أنه نموذج للدور السياسـي. وقال لي (عدنـان المفتي)، وهـو أحد الأصدقـاء القدامى المقرّبين من الطالبانـي: «لا أحد مثله. فبإمكان مام جلال تنفيذ سياسـتين مختلفتين في آن واحد». وأخبرني (موفق الربيعي)، وهو سياسـي شيعي يعمل مستشاراً للأمن الوطني: «يصعب عليك أن تحسـبه على أية جهة. فلو كنت إسـلامياً فسيأتيك بآيـات مـن القـرآن، ولـو كنـت ماركسـياً لتحـدث لـك عـن النظرية الماركسـية اللينينية والديالكتيك وديكارت. له قدرة ممتعة للحديث بعدة لغات أحياناً». وهنـا ضحك الربيعي: «ولكن بكلمات محدودة جـداً. له العديد من القصص ويعرف الكثير من النكات. إنه شـخص كريم بشكل استثنائي. فهو ينفق ليومه دون أن يفكر بالغد».

أشـار الربيعي إلى فترة السـتينيات حيـن كان الطالباني متحالفاً مـع صدام. فقال: «في أحد الأيام كان صديقاً جيداً لصدام حسـين ثم أصبـح بعد ذلك عـدواً لدوداً له». (في الواقـع إن الطالباني قد تغازل مرتيـن مـع صدام). ولا يرى الربيعي أي تناقـض في ذلك. بل قال إن الطالباني كان براغماتياً بشكل مطلق. وقال: «ليس لديه أعداء دائمون ولكن لديه أصدقاء دائمين».

وبشـكل مماثل قال عادل عبد المهدي، وهو شيعي وأحد نائبي رئيـس الجمهورية: «قد يـرى بعض الناس في مرونته على أنها تحول مـن مبـدأ لآخـر لكنهـا الحاجة هي التـي تملي عليـه أحيانـاً مواجهة التحديـات المتناقضـة لأجل البقـاء». ولا يملك أي سياسـي عراقي آخـر مـا يملكـه الطالباني من تجربـة وصـلات وذكاء. ونتيجة لذلك فقد احتل منصب الرئاسـة وهو لا يعدو أكثر من كونه منصب مراسيم وهو ليس كمنصب رئيس الوزراء القوي. وأضاف المهدي: «لا أحد

يمكن أن يختلف معك في الرأي حين تقول إن مام جلال هو شخصية تاريخية في العراق».

إلا أن هـذا الـدور يحمل معـه أيضاً بعـض التناقضـات. فبعد عقـود مـن القتـال من أجـل «تقريـر المصير» لأكـراد العـراق، يجد الطالباني نفسـه يدافع عن وحدة العراق. لقد أصبح لديه الآن خيار: إمـا أن يكون الأب المؤسـس «للعـراق الجديد» باعتباره السياسـي الأكبـر سـناً والذي يمكنـه إنقاذ العراق من الحـرب الأهلية – أو أن يقسـم العـراق، وعنـد ذاك بوسـعه أن يكون المؤسـس لدولة كردية مسـتقلة. وكما هـي العادة، غالباً ما يراهـن الطالباني على كل ذلك. فقـد أخبرنـي بقولـه: «أنا كردي من كردسـتان العراقيـة إلا أني الآن مسـؤول عـن العراق». وفـي حديث آخر قـال: «صحيح أنـا عراقي لكـن فـي التحليـل النهائي أنا كـردي». فتحـت طائلة حكـم صدام كان الأكـراد يواجهـون دكتاتورية في بغداد كانت تشـن حرب إبادة ضـد الشـعب الكردي. وكنـا بحاجة إلى جميع أنـواع الدعم من أي شـخص في العالم. فحين تبدأ الحرب وأنت تشـارك فيها فستحتاج إلـى الدعم من أي شـخص. فقد تعاون سـتالين مـرة مع هتلر لأجل إدامة السـلام معه. ودعم تشرشـل سـتالين في حربه ضـد هتلر. في الحـرب لا يكون لديك الخيار. فإما أن تحارب أو أن تستسـلم. فلو كنت تحارب فستكون بحاجة إلى الدعم. فمن أين يأتي هذ الدعم؟ مـن أي مـكان! لا يمكنـك أن تطلبـه. فليـس هناك أسـواق يمكنك زيارتها واختيار أصدقائك في الحرب».

فـي الحرب الحاليـة كانت بعـض صداقاتـه المتناقضة مصدر إزعاج لـه. فقد كانت إيران واحدة من أقوى الحلفاء للأكراد، وكان الطالباني قد خطط ليطير من باريس إلى طهران. إلا أنه أجّل الرحلة فجـأة بطلـب من حكومة بـوش. وإلا كان قد وصل إلـى طهران في السـادس من تشرين الثاني ولكانت صورة الحليف العراقي لأمريكا

قبل يوم من انتخابات الرئاسة غير مريحة بالنسبة إلى البيت الأبيض.

إن بقاء الطالباني في باريس تضمن زيارة للجمعية الوطنية الفرنسية ولقاء خاصاً مع الرئيس (جيسكار ديستان). لقد جلب الطالباني هدايا لكل من المسؤولين الفرنسيين الذين التقاهم. (أخبرني الربيعي: «إنه مؤمن بالكامل بمسألة تقديم الهدايا»)، فقد قدم إلى (سيغولين رويال) مرشحة الحزب الاشتراكي لرئاسة فرنسا هدية هي عبارة عن سجادة كردية محاكة باليد وتمثال من الفضة بطول قدمين يمثل شجرة نخيل وهي الشجرة الرمز العراقية. وقد أخبرها الطالباني: «لقد كان في العراق ثلاثون مليون نخلة قبل صدام حسين، أما الآن فهناك فقط عشرة ملايين نخلة». لقد بدت (رويال) مرتبكة قليلاً لكنها قبلت الهدية.

كما كان الطالباني في باريس لأجل المحادثات بشأن النفط الذي يتراوح معدل الاحتياطي له في منطقة كردستان خمسة وأربعين بليون برميل. في عام 2005 وقعت حكومة كردستان الإقليمية وعلى مسؤوليتها اتفاقاً للتنقيب عن النفط مع شركة نرويجية بدأت بحفر الآبار، وكذلك مع شركات تركية وبريطانية وكندية حيث وقع مع بعضها عقوداً مع استمرار المفاوضات مع جهات أخرى. (لقد جاهد الأكراد بشدة من أجل إدخال فقرات في الدستور الجديد المصادق عليه في عام 2005 الذي ينص على إعطائهم السلطة لعقد الصفقات). لقد كانت فرنسا حتى التسعينيات من أقرب الحلفاء الأوروبيين وأهم رفاق العمل بالنسبة إلى صدام، وعارضت عام 2003 الحرب التي قادتها أمريكا للإطاحة به. ولفترة ما عاقب الأمريكان الفرنسيين بإبعادهم عن صفقات العمل في «العراق الجديد». إلا أن تلك الأيام قد ولّت. وفي الفيلا التي نزل فيها التقى الطالباني بالمدير التنفيذي ومدير آخر من شركة توتال النفطية الفرنسية.

قال الطالباني للمديرين التنفيذيين: «أريد أن أقول إن توتال وفرنسا هما موضع ترحيب من قبلنا. فالعراق يحتاج إلى أصدقاء مثل توتال».

وافق الفرنسيون على ذلك. فقد كانت الشركة تقدم مشروعاً مشتركاً مع شريك أمريكي كما قال أحد المديرين على أمل أن يقوم الجيش الأمريكي بالمساعدة في الأمن. ولم يذكر أحد أنه قبل أسبوعين تم احتجاز أحد مديري توتال ومدير تنفيذي آخر بشأن رشاوى وفساد قيل إن توتال قد دفعتها لأجل النفط العراقي تحت فضيحة برنامج النفط مقابل الغذاء. (توتال تنكر أي اتهام من هذا القبيل). وقال أحد المديرين التنفيذيين إن توتال لم تكن مهتمة فقط بالنفط «فقد جئنا ببعض أطفال العراق ممن لديهم مشاكل في القلب إلى فرنسا لغرض الجراحة». أجاب الطالباني: «إن ما سيكون مفيداً لنا حقاً هو أن يكون لدينا مستشفى لجراحة القلب هناك». وقال: إن كردستان ستكون مكاناً نموذجياً لذلك لأنها آمنة بما يكفي بحيث شرعت إحدى شركات الاتصالات الصينية بالعمل الآن. ابتسم الطالباني وحدق بشكل متوقع في وجوه الفرنسيين.. فتبادلا بضع كلمات سريعة بالفرنسية وتمتم أحدهم بشيء غير ملزم.

حين انتهت زيارته الرسمية إلى باريس قضى الطالباني بضعة أيام لرؤية أصدقائه القدماء مثل (دانيال ميتيران) السيدة الفرنسية الأولى السابقة التي ناصرت القضية الكردية لعدة سنوات. رحبت السيدة (ميتيران) التي تعيش في بيت قديم ذي غرف واطئة السقف في الجادة الخلفية في منطقة (سان جيرمان) بالطالباني وحاشيته وأخذتهم إلى غرفة المعيشة حيث كانت هناك طاولة قديمة وضع عليها طبق صغير من الحلويات المقسمة إلى قطع صغيرة.

لم يكد الطالباني يرتب حاله على كرسي حتى بدأ بحديث مسهب عن الظروف التي تحسنت في كردستان منذ أن كانت

السيدة (ميتيران) هناك. (كانت مدام ميتيران قد زارت المنطقة عام 2002 لأجل افتتاح مخازن كارفور الكبيرة التي تحمل اسم زوجها الراحل في مدينة اربيل عاصمة كردستان). وقال الطالباني: «هناك الآن عشرون بليونيراً وألفا مليونير في السليمانية وحدها». وإزاء هذا الكشف غير المتوقع تجمدت الابتسامة على فم مدام ميتيران الاشتراكية المخلصة، إلا أنها تقبلت سماع أمر كهذا. في الثامن من تشرين الثاني وقع رئيس حاشية الطالباني على فاتورة فيلا (لو موريس) التي قيل إنها بلغت نصف مليون دولار. (لقد كلفت الفيلا التي نزل بها الطالباني وحدها ثلاثة عشر ألف دولار في الليلة). ورافقنا رجال الأمن الفرنسيون إلى قاعة الشرف في مطار (أورلي) ثم طرنا إلى العراق على متن طائرة بوينغ 767 مؤجرة وهي تحمل ألوان الخطوط الجوية العراقية مرخصة من جيبوتي ويقودها طيار أمريكي. ويقال إن الطائرة يملكها رجل أعمال عراقي ثري. وحين اقترب وقت الغداء قام طاقم الضيافة الجوية وكلهم من العراقيين بخدمة الطالباني أولاً بعد أن جاء أحد الخدم الشخصيين ووضع منديلاً حول رقبته.

في بغداد يعيش الطالباني في قصر من الطابوق الأصفر على الساحل الشرقي من نهر دجلة خارج المنطقة الخضراء. ومنذ نيسان 2003 استولى الطالباني على القصر الذي كان يعود إلى برزان التكريتي، وهو الأخ غير الشقيق لصدام الذي كان رئيساً لجهاز المخابرات وحكم عليه مثل صدام بالإعدام لدوره في مذبحة الدجيل. (لقد أعدم برزان في الخامس عشر من تشرين الثاني، إلا أن إعدامه كان عنيفاً لأن حبل المشنقة قد قطع رقبته). أما مكاتب الرئاسة فقد كانت قريبة، وفي قصر كان يعود إلى ساجدة زوجة صدام. وكان القصر قد نهب ودمر بعد الغزو الأمريكي عام 2003. لكن الطالباني قد استعاده. وقد زرت القصر مرتين بعد الإطاحة بصدام حسين ووجدت أن أرضيته تعلوها الأزبال وعجلات الأطفال، وما يثير

الاستغراب وجود بضعة آلات قطع حديدية في غرفة النوم الرئيسية. وفي وسط إحدى الغرف الرئيسية كانت هناك صورة صنعت من الآجر لعائلة صدام حسين لكنها أزيلت.

لقد تم تأثيث القصر كما في السابق بقطع أثاث أنتيك فرنسي. ورغم أن المكاتب الرسمية الرئاسية للطالباني تقع ضمن المنطقة الخضراء، إلا أنه نادراً ما كان يزورها. ويقع مجمع الطالباني على الجزء الشمالي من أعمدة جسر الجادرية. أما على جهة الجزء الجنوبي فقد كان هناك بيت عبد العزيز الحكيم حليفه السياسي والقائد الشيعي للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية. ويقع بيت الحكيم في دار طارق عزيز نائب رئيس وزراء صدام حسين سابقاً. وتتم حراسة المقتربات إلى جانب مكان الطالباني بشكل مشدد من قبل البيشمركة الكردية (وكلمة بيشمركة تعني بالكردية «أولئك الذين يواجهون الموت») حيث يقع تحت إمرة الطالباني قرابة الخمسين ألف من هذه القوات وهي ضمن حزبه، حزب الاتحاد الوطني الكردستاني أو الـ .P.U.K، بينما يحرس جانب الحكيم رجال الميليشيا من منظمة بدر، الجناح العسكري لحزبه. وهناك حماية عديدة مشتركة من كلا الطرفين وضعت عبر النهر وعلى امتداد نصف ميل من شارع يؤدي إلى المنطقة الخضراء.

وفي ما يتعلق بالقضايا الأمنية والسياسية، فإن كلا الزعيمين وميليشياتهما يعملان بشكل وثيق رغم أن الأكراد من ناحية أخرى يبدون أكثر علمانية، بينما الشيعة أكثر تديناً، مما يطرح تناقضاً صارخاً في الأسلوب. وخلال أسابيع انقضت في صحبة الطالباني لم أره أو أرَ أيّاً من مساعديه يؤدي الصلاة. إن الطالباني لا يعارض المشروبات الكحولية وهو يستمتع بلعب الورق مع مجموعة صغيرة من أصدقائه القدماء. في أحد الأيام كنت في السيارة وراقبت بعض رجال الحكيم بزيهم الأسود الرياضي وهم يستعدون للعب كرة القدم في ساحة ترابية مسيّجة هي عبارة عن شريط يفصل المنطقتين.

وقبل بداية اللعب رفع الآذان من خلال ميكروفون فوقف اللاعبون برؤوس منحنية. وهز مسؤول كردي كان معي في السيارة رأسه قائلاً: «ما علاقة الله بالرياضة؟». استدار نحوي وأضاف: «أترى أن علينا أن نتعامل مع كل ذلك».

إن زوجة الطالباني (هيرو) لا تعيش في بغداد مع زوجها بل تمكث في السليمانية حيث تدير مؤسسة ومحطة تلفزيون وتنشر صحيفة. وقبل سنوات مضت علمت (هيرو) نفسها استخدام كاميرا فيديوية وصورت بها معارك البيشمركة مع الجيش العراقي. ولها من الطالباني ولدان: (بافل) الذي يدير جناح مقاومة العصيان في حزب والده، و(قوباد) الذي يمثل حكومة إقليم كردستان في الولايات المتحدة.

في بغداد وفي صباح أحد الأيام دعاني الطالباني إلى جناحه الخاص. كان الوقت مبكراً وكان لا يزال مرتدياً سروال بيجامة فضفاضاً وقميصاً كبيراً مخطّطاً بالأزرق والأصفر. قدم لنا أحد الخدم الشخصيين النسكافيه الحلوة بما يشكل مزيجاً بالكريما (عرفت لاحقاً أن ذلك كان أسلوب الطالباني). أشعل الطالباني سيكاراً. (إنه يفضل السيكار الطويل المعروف باسم تشرشل). وقد فجر قبل يوم انتحاريان نفسيهما في مركز لتجنيد الشرطة خارج المنطقة الخضراء مما أدى إلى مقتل ثمانية وثلاثين من المتقدمين. وكانت تلك آخر حادثة أشار إليها كل واحد عدا الطالباني بأنها تصعيد في الحرب الطائفية. قال بعناد: «لا أعتقد أن العراق على شفا حرب أهلية. فيوماً بعد يوم يتقارب القادة السنّة والشيعة أكثر وأكثر من بعضهم وهذه ليست مبالغة». إن مشكلة العراق الرئيسية هي ليست الطائفية كما قال بل الحرب الإرهابية التي يشنّها البعثيون والقوى الأجنبية مثل القاعدة. ودون أن يفقد اتزانه أضاف الطالباني: إن الوضع أصبح أسوأ بسبب تهور الأمريكان

وسـذاجتهم. وقـال: «أعتقـد أن الشـخص المسـؤول الرئيسـي هو دونالد رامسـفيلد الذي اسـتقال مؤخـراً». (كان الطالباني قد رحب بخطـة الرئيس بوش بإرسـال قـوات إضافيـة تبلغ واحداً وعشـرين ألـف وخمسـمائة جندي إلى بغـداد لما يسـمى بالـ«تطهيـر». وقال في تصريح: «إن الخطة كشـفت عن جهد جديد لتحسـين الأمن في العـراق وإنهـا تتطابـق وتتماثل مع خطـط العراق وأفـكاره» – رغم أن بعـض الأعضـاء فـي الحكومـة كانـوا متوجسـين بشـكل علني. وأخبرني مستشـاره الإعلامي هيوا عثمان: «قـدر تعلق الأمر بنا فإن الأمريـكان يعتبـرون محررين. فـإن أرادوا زيادة أو نقصـان قواتهم فإننا لن نعترض على ذلك»).

بعـد الفطـور نزل الطالباني إلـى الطابق الأرضـي لإنجاز مهامه اليومية. وكان في انتظاره طاقمه الذي يمارس طقوسـاً هي نفسها كل صباح، وكان من بينهم (وفيق السـامرائي) رئيس جهاز الاستخبارات العسـكرية في عهد صدام والذي انشـق عنه وهرب إلى الطالباني في أواسـط التسـعينيات، وهو يعمل الآن مستشـاراً للأمـن الوطني لدى الطالباني ويدير فريقاً أمنياً يشمل العديد من العسكريين المحنكين من جنـوب أفريقيا. فحين يكون للطالباني أي موعـد فإنه ينقل إلى هناك في سـيارة من طراز بي أم دبليو الفئة السـابعة سـوداء مدرعة، ويسبقه ويتبعه أسـطول من سيارات نيسان باترول تقل حماية من البيشمركة. لكن في الأغلب يأتي الناس إلى الطالباني وتميل لقاءاته إلى أن تكون على طيلة النهار ولا يقطعها سوى وجبات الطعام، وتستمر إلى وقت متأخر من الليل.

وكسـياق سـيادي فإن نوري المالكي رئيس الـوزراء هو الذي يأتي إلـى الطالباني وليـس العكس. ويعتبر المالكـي رئيس الوزراء الثالـث منـذ عـام 2004، بينما بقـي الطالباني في هـذا المنصب ولـم يتغيـر. وليـس للمالكـي سـبيل وصـول إلـى القـادة الأمريـكان أو

الأجانب، وغالباً ما يجب أن يتم ذلك من خلال الطالباني. وفي العلن فإن الطالباني يحاول أن ينزل عند رغبة المالكي ويبدو أنه يريد له النجاح. وفي هذا الشتاء تم تداول تقارير تفيد بأن البيت الأبيض له مأخذ على المالكي، وأن إياد علاوي رئيس الوزراء السابق هو المرشح المفضل لدى الأمريكان باعتباره «الرجل القوي» ليحل محله. سخر الطالباني وأخبرني: «علاوي! إنه لا يستطيع السيطرة حتى على عائلته». وأضاف: «المالكي يمكن أن يكون رجلاً قوياً – إن ساعدناه».

وبينما كنت في بيت الطالباني جاء شيخ عربي سنّي من الأنبار ليطلب المساعدة في الحصول على أسلحة. إن عشيرته ستقاوم الإرهابيين كما قال إن كان لديها سلاح. (حين غادر الرجل قال لي الطالباني إنه يرى أن على الأمريكان أن يقدموا السلاح لرجال العشائر. لكنهم تراجعوا كما قال خشية أن يستخدموا هذا السلاح ضد القوات الأمريكية). بعد ذلك التقى الطالباني بالسفير الروسي، وحسب جدول الأعمال الذي حصلت عليه فإنهم ناقشوا رحلة شراء الأسلحة من موسكو والتي كان المسؤولون العراقيون قد خططوا لها. قال الطالباني للسفير: «يجب أن تخبر شركاتك في أن يأتوا ويستثمروا هنا. الفرنسيون سيفتحون مكتباً لهم في اربيل – عليكم أن تقوموا بالشيء نفسه». وكرر الطالباني تعليقاً كان قد قاله إلى فلاديمير بوتن: «نحن لن نضع جميع بيضاتنا في سلة واحدة بل نحن نوزع بيضاتنا بين السلال الأمريكية والروسية والفرنسية».

ومهما كان ارتباط الحكومة العراقية بالمصالح الأمريكية فإن الطالباني لم يتردد في ممارسة وصايته كرئيس بل تجاوز ذلك. وجاء أحد الأمثلة عام 2005 حين اصطدم برئيس الوزراء السابق إبراهيم الجعفري حول الاستحواذ على بناية حلف الناتو في المنطقة الخضراء، وانتهى التوتر بين حماية الجعفري والبيشمركة فقط بعدما

تدخـل السـفير الأمريكي زلمـاي خليل زاد. وحصـل الطالباني على البناية التي قدمها بعد ذلك إلى المالكي.

إن أحد مصـادر قوة الطالباني هي ثروته. يعتقد أن الطالباني مع منافسـه القديم مسـعود البرزاني رئيس إقليم كردسـتان قد جمع ثروة هائلـة تقدر بملاييـن الدولارات كضرائـب على النفـط المهرب من العراق عبر كردسـتان بين عامـي 1991 و2003، حين كان البلد تحت طائلـة عقوبات الأمـم المتحـدة. والطالباني ينفق المال بشـكل كبير على شكل هدايا وشراء الولاءات على افتراض أن أغنى العرسان في العراق هو الذي يفوز بأفضل فرصة لكسب العروس كما يقال.

إن سـلوك الطالباني وأسـلوب حياته هما من عدة نواح أسلوب رئيس حزب سـري. فهو يسـكن قصره كما لو كان معسكراً في قاعدة موقتـة. ومكاتبه الخاصة مليئة بالأثاث وسـيئة الإضاءة وغير مبهرجة فـي الديكور، وتمتلـئ المناضد بأجهـزة الهاتف النقال. أما الأشـياء التي يحبها فهي الطعام والعدد الكبير من الموظفين الشخصيين. وهو غالباً ما ينزل إلى المطبخ ليتذوق أي شيء يصنعه الطباخون ويخطط لقائمـة الطعـام الخاصـة بالضيـوف الخاصين. وكانت له مع السـفير خليـل زاد لقاءات متكـررة ومنتظمة لأكل الباجة، وهـي طبق عراقي مكوّن من رأس خروف محشـي وأحشـائه. (قال خليـل زاد ضاحكاً فيمـا بعد: «نعم أنا أحب الباجة»). ويبعـث الطالباني جراراً من اللبن الخاثر الكردي والجبن والعسـل والحلويـات المصنوعة باليد مرتين كل شهر إلى السفراء الأجانب والسياسيين البارزين.

أخبرني بعض مسـاعدي الطالباني بشـكل خاص عن رجال في حاشـيته يشك في كونهم اسـتفادوا من عقود حكومية حوّلوها باتجاه أصدقائهـم. وفي هـذا الامر فإن حلقة الطالباني ليسـت غير اعتيادية. فمحمـود عثمان وهو عضو برلمـان كردي قريب جداً مـن الطالباني يتذمـر مـن فسـاد الحكومـة وجبنها الأخلاقـي فيقول: «كيـف تتوقع

الحكومة أن يكون لها احترام وهي منغلقة؟ فالزعماء يعيشون في قصور صدام وفي المنطقة الخضراء ولا يخرجون منها أبداً. ولرئيس الوزراء والرئيس أموال طائلة يصرفونها كما يشاؤون بالملايين أو أكثر كل شهر. أعتقد أن الفساد مستشرٍ ومنتظم ويأتي من الأعلى. لقد بدأْ ذلك حين جاء القادة السياسيون وبضمنهم قادة الأحزاب الكردية إلى بغداد واستولوا على البيوت بأنفسهم. إن كل ذلك هو ضد الواقع الذي تمنح فيه أموال التقاعد إلى عوائل الجنود أو الشرطة القتلى والتي لا تتعدى المائة دولار في الشهر».

قبل قبوله فترة الرئاسة الثانية في السنة الماضية أصر الطالباني على أن تكون صلاحياته أكثر من مجرد صلاحيات مراسيم، وقد أضيفت فقرة إلى الدستور تسمح له بعقد اجتماع مجلس الأمن الوطني مرتين في الأسبوع، وهذا المجلس يضم قادة من جميع الأحزاب بما في ذلك رئيس الوزراء. ويجتمع المجلس عادة في قصر الطالباني. وقبل ساعات قليلة من آخر اجتماع قام رجال مسلحون يرتدون زي الشرطة ويضعون علامات وزارة الداخلية التي يهيمن عليها الشيعة على سياراتهم بمداهمة وزارة التعليم العالي التي يديرها السنّة. وقد أجبر هؤلاء المسلحون العشرات من الناس بالصعود إلى سياراتهم واقتادوهم إلى جهة مجهولة. وفي بلد أصبح فيه الخطف مألوفاً، فإن ما حصل كان يشكل جرأة. واستنتج السنّة أن الخاطفين ينتمون إلى ميليشيا عاملة من وزارة الداخلية. وإن كان الامر كذلك فإنه سيكون أوضح مثال عن الكيفية التي تدار فيها الحرب الطائفية ضمن الحكومة نفسها وزارة بوزارة. (لقد تم تسييس هذه الحادثة بحيث لم يتفق أحد على عدد الضحايا. فالسنّة يقولون إنه بلغ مائة وخمسين شخصاً مع ثمانين آخرين في عداد المفقودين. والشيعة يقولون أربعين وعاد الجميع سالمين، بينما يقول الأمريكان خمسة وخمسين وقد أفرج عن العديد منهم في الحال).

ونتيجة لذلك فإن اجتماع الأمن الوطني الذي كان من المفروض أن يركـز على أمن بغداد قد انحدر إلى مجادلات غاضبة بين الشـيعة والسـنّة حـول مسـؤولية الخطـف. وطبقـاً لملاحظـات أوردها أحد المشـاركين، فإن رئيس الوزراء نوري المالكي قـد عزا باللائمة على زملائـه المتخاصمين، وقال: «تطلبـون مني العمل وها أنتم تضعفون الحكومة بهذه النزاعات. أنتم مصدر نصف مشاكلي».

كانـت حكومـة المالكـي قـد تشـكلت بعـد أربعـة أشـهر مـن المفاوضـات البطيئة عقب الانتخابات البرلمانية لشـهر كانون الأول عـام 2005. وقـد فازت ما تسـمى بالقائمة الشـيعية التـي تضم حزب الحكيـم وحـزب الدعـوة والصدريـين بنسـبة 41 % مـن الأصوات، بينمـا فاز الحزبان الكرديّان للطالبانـي والبرزاني بالكتلة الثانية الأكبر وبنسـبة 22 % من الأصوات. وقد اتفق الشـيعة والأكراد على تشكيل حكومة مع ائتلاف من الأحزاب السـنّية الإسـلامية وتحالف علماني يرأسه رئيس الوزراء السابق إياد علاوي، إلا أن اختيار رئيس الوزراء الجديـد أصبـح عملية صعبـة وطويلة. وفـي النهاية ذهـب المنصب إلـى المالكي مـن حزب الدعوة، وقد حظي بدعم زعيم الميليشـيات الشيعية المتطرفة مقتدى الصدر.

إن الصدر، الرجل الممتلئ ابن الثلاثينيّات هو نجل رجل الدين محمد صادق الصدر، الشخصية المرموقة بين الشيعة. وقد قتل الصدر الأكبر الثاني عام 1999، ويشك العديد من العراقيين بأنه قد تم اغتياله بناءً على أوامر من صدام حسين. ومباشرة بعد الغزو الأمريكي حظي مقتدى غير المعروف وهـو الابن الأصغر لرجل الدين ببروز مفاجئ بإعلانـه علـى المـلأ عـن معارضتـه للوجـود الأمريكي فـي العراق. وخـلال أيام اسـتولى علـى مدينة صـدام، وهي حي كبيـر فقير يقطنه مليونا شـخص ويقع في الشمال الشرقي من بغداد، وقد أعيد تسميته بمدينة الصدر. ثم بدأ ببناء ميليشيته التي تعرف باسم جيش المهدي.

في عام 2004 قتل حوالي تسعين أمريكياً ومئات العراقيين حين دعا الصدر إلى المقاومة المسلحة بعد أن أغلقت سلطة الائتلاف الموقتة صحيفته، وكان لديها أمر إلقاء القبض عليه بتهمة القتل. لكن بعدما وعد الصدر بنزع سلاح ميليشياته والدخول في المعترك السياسي تراجع الأمريكان.

لم ينزع الصدر سلاح الميليشيا – التي تموّل بصورة أو بأخرى من قبل إيران بشكل مباشر ـ وقد أصبح قوة حاسمة. وشارك أتباعه بأوامر منه بالانتخابات وفازوا بأكبر عدد من الأصوات لأي حزب شيعي. وقد أعطي الصدر أربع وزارات، وبعدئذ علق وزراؤه مشاركتهم في الحكومة احتجاجاً على لقاء المالكي مع الرئيس بوش في نهاية شهر تشرين الأول. وبعد أسابيع قليلة تحرك المالكي نحو إلقاء القبض على مئات من أتباعه فأنهى الصدر مقاطعته. (فبينما الصداقات المتناقضة هي السمة السائدة للطالباني فإن المواقف المتناقضة هي التي تميز الصدر).

لقد ساعد الطالباني على ضمان أن يذهب العديد من المناصب الرفيعة التي لم يحظَ بها الشيعة إلى الأكراد. (وعدد من هذه المناصب قد أعطيت لأصدقاء الطالباني وأقربائه). فأحد نائبي رئيس الوزراء هو كردي، ويرأس الأكراد العديد من الوزارات بما في ذلك وزارة الخارجية، بينما يرأس وزارة الموارد المائية صهر الطالباني. من وجهة النظر الأمريكية هناك ببساطة عدد كبير من المؤهلين الأكراد أو على الأقل إن العديد منهم يشعرون الولايات المتحدة بالارتياح. (قال خليل زاد إنه في عام 2002 كان قد خمّن أن يكون الطالباني رئيساً محتملاً. «فهو متحدث لبق وقد عملنا معاً بشكل جيد. أنا منحاز له – إنه صديقي»).

إن إحدى أكبر المشاكل التي تواجه جميع الفئات في الحكومة العراقية – وكذلك الأمريكان – هو الحالة المزرية

للقوات المسلحة العراقية. فالكثير من ترسانة العراق قد دمرت في غزو عام 2003، وتمّ حلّ جيشه من قبل سلطة الائتلاف الموقتة. وما بقي من معدات فقد نهبت، ويعتقد أن الطالباني والبرزاني هما المستفيدان الكبيران من هذا النهب. فحالما سقط صدام بعثا بقوات البيشمركة لنهب الأسلحة الثقيلة بما فيها عشرات الدبابات وعادوا بها إلى كردستان. أما العصابات المسلحة والمسلحون فقد نهبوا الكثير مما ترك.

أمّا تدريب «الجيش العراقي الجديد» فقد كان عبارة عن عملية هروب من الخدمة وفساد. (ويقف وزير الدفاع السابق، أي حازم الشعلان، متهماً بسرقة أكثر من بليون دولار رغم أنه أنكر ذلك). كما أن ولاءات العديد من الجنود مشكوك فيها. ويعتقد أن المسلحين قد تسللوا إلى صفوف الجيش ويرفض العديد منهم الخدمة في أي مكان غير محافظاتهم. ويتكون الجيش من 112 فوجاً، ولكن طبقاً لشهادة الجنرال (جون أبي زيد) في الخريف الماضي فإن أيّاً منها غير قادر على العمل من دون المساعدة الأمريكية.

أما وزارة الداخلية العراقية التي يهيمن عليها الشيعة فتدير الأجهزة الأمنية والشرطة. ففي بغداد وجنوب العراق يعتقد أن جيش المهدي ومنظمة بدر والميليشيات الأخرى هي التي تسيطر على قوات الشرطة المحلية. كما أن الميليشيات وفرق الموت التي تنفذ أعمال القتل الانتقامية والشرطة هي جميعها مختلطة ويصعب التمييز بينها. وفي المناطق السنّية كذلك تعتبر الشرطة سنّية بشكل مشابه. والشرطة بشكل عام هي هدف مفضل لدى الإرهابيين حيث قتل أكثر من إثني عشرَ ألفاً منهم منذ عام 2003.

لقد احتفظت القوات الكردية بالشمال حيث يقبع أكثر من مائة ألف مقاتل هناك. واقترح البرزاني إمكانية استخدام بعضهم في بغداد أو لتحل محل القوات العراقية في المدن الشمالية مثل كركوك

والموصل. لكن الحجة الواضحة هي أن كركوك الغنية بالنفط ستكون بمثابة الجائزة للأكراد.

بعد لقاء مجلس الأمن الوطني تحدثت مع نائب رئيس الجمهورية عادل عبد المهدي وهو عضو علماني في حزب الحكيم. وكنت قد التقيت عبد المهدي قبل عام في تشييع جنازة أخيه الذي قيل إنه اغتيل من قبل السنّة. وقال: «نحن نجتمع هنا ولكن ليس جميع الحاضرين هم دعاة اللاعنف، وفي الوقت ذاته هناك أصحاب الشوارع الذين يمتلكون قدراً كبيراً من القوة والسلاح ويعرفون ما يريدون فعله». وبعض أعضاء الحكومة «يحبون هذا الوضع. ويعتقدون أن بإمكانهم الاستفادة منه لمصالحهم السياسية».

في وقت لاحق في عمان سمعت شيئاً مشابهاً من رئيس الوزراء السابق إياد علاوي الذي يقضي معظم وقته الآن خارج العراق. فقد اتهم أناساً ضمن وزارة الداخلية بقتل بعض رفاقه. وقبل أيام قليلة تم تعذيب مدير أمنه في بغداد حتى الموت. «فقد اقتلعت عيناه وألقيت جثته في الشارع. هذا ما تفعله الحكومة» كما قال.

إن علاوي مثل العديد من السياسيين قد توقف عن التكهن بأن الجيش العراقي يمكن أن يوفر الأمن. وقال علاوي إن المشكلة التي تواجه حزبه هي أنها لا تملك ميليشيا خاصة بها. « فلو كان لدينا واحدة لكنا أقوى».

إن الطالباني وحليفه الحكيم لا يعتبران ميليشياتهما تكوّنان مشكلة كالتي تكوّنها ميليشا الصدر. فمنذ عام 2003 حاولا إقناع الأمريكان بالسماح لميليشياتهما في أن تكونا تحت قيادة موحدة لكي يستطيعا محاربة المسلحين بحرية أكثر. لكن الأمريكان عارضوا ذلك خشية التسلل الإيراني إلى المجاميع الشيعية.

أخبرني مسؤول في حزب الحكيم: «بدلاً من أن يدعونا نعمل ضد البعثيين والإرهابيين جعلونا نجلس على الجدار، وهذا قد منح

الآخرين – جيش المهدي وما شابه – القوة في الشارع». وأضاف قائلاً: «المشكلة هي أن الشيعة الشباب لم يعودوا ينصتون إلى المرجع» ـ وهو السلطة الدينية الشيعية الأكبر ـ «ولا إلى تنظيماتهم السياسية. إنهم يريدون الانتقام فحسب».

لقد جاءت نقطة التحول بالنسبة إلى الشيعة في شباط الماضي حين دمرت الانفجارات مرقد الإمام حسن العسكري في سامراء. وقال المسؤول: «عليك أن تفهم أن هجمات سامراء كانت بالنسبة للشيعة كهجمات الحادي عشر من سبتمبر بالنسبة إلى الأمريكان».

بعد سامراء نفذت ميليشيات الصدر أعمالاً انتقامية لا على التعيين ضد المدنيين السنّة. وقد قاد أحد رجال الصدر البارزين في المدينة ويدعى (أبو درع)[1] فرق الموت التي استهدفت السنّة واغتالت أحد محامي صدام. ولكن حين سألت المسؤول الأمني العراقي الكبير وكان شيعياً حول كيفية كبح جماح هذه النشاطات، فقد أثار جوابه تساؤلات عدة. وأشار إلى أن (أبو درع) لديه أقارب في مدينة الصدر، وقال: «سأذهب وآتي بعائلته وأصدقائه. بعبارة أخرى سأجعلهم رهائن. ثم سأجلس مع مقتدى وأقول: «إن لم تسلمه فسأعبث بمدينة الصدر» باعتبار أن أبو درع هو أحد الوسائل لدى مقتدى. ومقتدى لا يفهم أي شيء سوى القوة». وهنا ابتسم المسؤول الأمني.

إن الطالباني شأنه شأن العديد من كبار السياسين العراقيين ينظر إلى الصدر بمزيج من التعاطف لاسم والده كما قال لي. أما مفتاح

(1) أبو درع: شخصية دموية يعتقد أنها تنتمي إلى جيش المهدي، نسبت إليها أغلب أعمال العنف الطائفي الذي كان يسود العراق بعد عام 2003، وقد اعترف مؤخراً قائد القوات الخاصة في الجيش العراقي البرواوري أن أبو درع هو عميل مزدوج لإيران والقاعدة. (المترجم).

إضعـاف الصدر كما أخبرني الطالباني فهو إيران. «فلو قام الإيرانيون بتهدئة جيش المهدي وتوقف الاغتيالات وإن لم تكن هناك ما تدعى بـ«فـرق الموت» فإن من سـيبقى هـم فقط الإرهابيـون. وإن صمتت سـوريا فسـتبقى القاعـدة فقط وبوسـعنا أن نلحـق الهزيمـة بالقاعدة بسهولة جداً».

مضـى الطالباني بقولـه: «إن أحد الأخطاء الرئيسـية للأمريكان فـي محاربة الإرهاب هو شـد أيدينا وأيدي الشـيعة، بينما أطلقت يد الإرهابيين في الوقت نفسه ليعيثوا في الأرض فساداً. فلو تركونا نعمل لاسـتطعنا في أسـبوع واحد أن نطهر كركوك والمناطـق المجاورة». (لقـد كان مضمـون الطالباني واضحـاً: «فتطهير» هي مـرادف لمحو المعارضة ومرادف لقتل الأعداء أو إلقاء القبض عليهم).

ثم رفـع الطالباني صوته ليسـخر من الأمريـكان: «كلا... لا... لا، الأكـراد يجـب ألا يتحركوا إلـى المناطق العربية لأن ذلك سـيثير الحساسـية، فلـو تركـوا الشـيعة يقومون بتطهيـر الطريق مـن النجف إلى بغداد لاسـتطاعوا أن يقوموا بذلك في غضون أيام. وإن سـمحوا للناس في الأنبار بتحرير مناطقهم لاستطاعوا ذلك، إلا أنهم يقولون، أوه كلا فتلـك سـتكون ميليشـيا أخرى، إنهم لا يفهمـون الحقائق في العراق. فمنذ البداية كانت لدينا هذه المشكلة معهم». وأضاف قائلاً: «خطة خاطئة وأسلوب خاطئ وسياسة خاطئة».

لقد عمل الطالباني في السياسة منذ عام 1946 حين كان في عمر الثالثة عشـرة، والعراق كان محكوماً من قبل العائلة الملكية الهاشمية التـي نصّبهـا البريطانيـون حيث انضم إلـى التنظيم الطلابـي الكردي السري. وقد كان هذا التنظيم جزءاً من حركة الاستقلال الكردية التي بدأت تأخذ شـكلها خلال انهيار الامبراطوريـة العثمانية بعد الحرب العالميـة الأولى، حين فشـلت الدول الأوروبيـة المنتصرة في إعطاء الأكـراد دولـة لهم. لقد تـرك تقسـيم الامبراطورية العثمانيـة الأكراد

منتشـرين بين العـراق (حيث يقدر عددهم بأربعـة ملايين كردي، أي مـا بيـن 15 % إلى 20 % من مجموع سـكان العراق) وسـوريا وتركيا وإيران. اما كردستان الكبرى كما يتصورها الانفصاليون فتضم أجزاء مـن كل الـدول المذكورة. وقد ولـد الطالباني في قريـة (خيلان) في الجنوب الشـرقي مـن كردسـتان العراقية وهـي منطقة تهيمـن عليها عشـيرته وكان والده شـيخاً محليـاً. وفي الثامنة عشـرة من عمره كان الطالباني أصغر عضو في اللجنـة المركزية في الحزب الديموقراطي الكردي الذي يدعمه الاتحاد السوفياتي الذي كان بقيادة ملا مصطفى البارزاني (والد مسعود البارزاني). وقد درس القانون في بغداد (عدا فتـرة انقطـاع قضاهـا مختفياً) وأكمـل خدمتـه الإلزامية فـي الجيش العراقي. ثم عاد والتحق في عام 1961 بالانتفاضة المسـلحة التي قام بهـا الملا مصطفى البارزانـي. وبعد ثلاث سـنوات انفصل الطالباني عـن البارزاني لينضم إلى مجموعـة انفصالية يقودها (إبراهيم أحمد) والد زوجته المستقبلية، (هيرو). إن (إبراهيم أحمد) لم يحبذ شروط التفاوض لـدى البارزاني مع الحكومة المركزية. لقد كانت تلك فترة عدم الاسـتقرار السياسـي العنيف في العراق حيث توالى على حكم العراق أربعة رؤسـاء في غضون عشر سنوات. وبعد الانقلاب البعثي عام 1968 عقد الطالباني صفقة مع صدام حسين الذي كان نائباً آنذاك للحصول على حقوق أكثر للأكراد وللحصول على دعمه في محاربة البارزانـي – فقـط ليتصالح مـع البارزاني حين غيّر صـدام ميوله. لقد كانـت بدايـة لسلسـلة من الانقسـامات ضمن الثـورة الكرديـة والتي يتحمل الطالباني مسـؤولية كبيرة إزاءها والتـي قوّت صدام لفترة من الزمن.

لقد كان الطالباني ماركسياً ثم ماوياً حيث «جذبته أفكار (ماو) فـي مـا يتعلق بالحرب الشـعبية وذلك لأجل القتال فـي الجبال ضد الدكتاتوريـة». وكان قد سـافر إلى الصين عـام 1955 على رأس وفد عراقي للطلبة الاشـتراكيين. ويسـتذكر الطالباني تلك الفترة فيقول:

«التقيت بشـو ان لاي، رئيـس الوزراء وقبّلته أيضـاً. ورأيت الرئيس (مـاو) ولكـن ليس عن قـرب». كما كان منحـازاً أيضاً إلـى القضايا العربية القومية المناهضة للاسـتعمار في حينها. وخلال رحلاته في السـتينيات قـام بعقد صـلات مهمة لـه – مع جمال عبـد الناصر في مصر والملك حسـين ملـك الأردن ومعمر القذافي وياسـر عرفات والرئيـس حافـظ الأسـد في سـوريا. (فـي مكتـب الطالبانـي هناك صـورة واحدة علـى الجدار هـي صورته مـع حافظ الأسـد. وقال: «لقـد كان حافـظ الأسـد طيباً معي جداً».) في أواسـط السـبعينيات قضـى الطالبانـي وقتاً فـي بيروت يعمل مـع الجبهة الشـعبية لتحرير فلسـطين وهي تنظيم فلسطيني ماركسي. لقد كانت تلك فترة شائكة لا يتحـدث عنها الطالباني سـوى القليل، إلا أن الأكراد القريبين منه يشـيرون إلـى أنه في تلـك الفتـرة كان متطرفاً جداً وأصبـح في فترة ما متورطاً بالمؤامرة الفلسـطينية لخطـف طائرة أمريكية في أوروبا. وقيـل إنـه ترك التورط فيهـا حين أخبره أحد المعارف بأن الموسـاد تخطط لاغتياله.

أخبرنـي الطالبانـي: «لقـد كنـا نعتبر الولايـات المتحـدة عدواً للشـعب الكـردي العراقـي». وخـلال الثمانينيـات رأت الولايـات المتحـدة مـن ناحيتها أن الأكراد مثيرو مشـاكل وأنهـم بمثابة مخلب سـوريا وإيران. فـي تركيا حليف أمريـكا في الناتـو كان الانفصاليون الأكراد يشـنون حرب عصابات لا هوادة فيها والتي رد عليها الجيش التركي بحملة قاسية لمقاومة التمرد. وقد قتل آلاف الأكراد المدنيين. وفـي ذروة الحرب العراقية الإيرانيـة تحالف الطالباني مرة أخرى مع صـدام ثم عارضه وتحالف مع إيران. فكان التحرك التالي لصدام هو حملـة الأنفال التـي أبادت أعداداً كبيـرة تقدر بآلاف القـرى الكردية وبشكل رئيسي في الأراضي التابعة للطالباني.

فـي مدينة حلبجـة وبين 16 و17 آذار 1988 قتل أكثر من خمسـة

آلاف كردي مدني حينما ألقت الطائرات الحربية الغازات الكيمياوية المميتة، وقيل إن من بينها غاز الأعصاب والخردل والسارين والتابون وفي اكس. ورغم أن هذه الهجمات أصبحت في ما بعد حجة إدارة بوش الحالية للإطاحة بصدام، إلا أن إدارة ريغان التي كانت تدعم صدام في حربه مع إيران قد اهتمت قليلاً بذلك. وحين أذيعَ خبر حلبجة فإن البيت الأبيض ألقى باللائمة على إيران. وبعد حملة الأنفال عاش الطالباني متنقلاً بين دمشق ثم طهران. وأضاف الطالباني: «كنا نحاول أن يكون لدينا علاقات جيدة مع الولايات المتحدة، لكن في ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة متحالفة مع صدام حسين ومع حكومات العراق وتركيا والأقطار الأخرى. ويجب أن أقول لك إنه حتى حين غزا صدام حسين الكويت فإن وزارة الخارجية لم تكن مستعدة لتنصت إليَّ. فقد ذهبت إلى الولايات المتحدة لكنهم رفضوا حتى مقابلتي».

بعد هزيمة صدام في حرب الخليج الأولى في أوائل عام 1991 انتفض الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال، وقاد الطالباني قواته في السليمانية وكركوك. ومع مراقبة أمريكية لهذا الوضع فقد أطلق صدام جيشه ضدهم. وهرب مئات الألوف من الأكراد في وسط برد الشتاء القارس مما أثار أزمة إنسانية. وأعلنت الولايات المتحدة وحلفاؤها عن نطاق أمني في الشمال وبدأ الطالباني والبرزاني (اللذان تصالحا بشكل موقت) بشروط التفاوض حول تحقيق تسوية مع صدام. وهناك صورة سيئة الصيت للطالباني وهو يقبّل صدام حسين على خده. وأخبرني الطالباني عن طريق الإيضاح: «لكنك تعرف كان الشعب الكردي في خطر الإبادة». وقال: «إن صدام كان مؤدباً جداً خصوصاً معنا. فقد جاء إلى الباب ليستقبلنا وقبلنا. لقد كان ودوداً في اللقاء». وكشفت المحادثات كيف تبادل الطالباني ما أسماه «بالكلمات الخشنة» مع طارق عزيز نائب رئيس الوزراء بشأن حلبجة. وقال الطالباني إنه حين التقى بصدام حسين في ما بعد فقد

اعتذر صدام عن افتقار عزيز للكياسة ولكن بدون التعبير عن أسف لما حصل، وقال: «أنا أفهم مشاعركم حول حلبجة والأنفال».

كما التقى الطالباني مع ابن عم صدام (علي حسن المجيد) المعروف بـ (علي كيمياوي)[1] بسبب دوره في الهجمات (يخضع المجيد الآن إلى المحاكمة في بغداد. وفي شريط بث عن المحاكمة سمع أنه كان يناقش خططه في استخدام الأسلحة الكيمياوية. وفي حديث آخر وصف المجيد جلال الطالباني بالـ «الشرير والقواد لأنه كان يريد هدنة ليوم واحد لكي يثبت نفسه على أنه منقذ للأكراد»). وفي اللقاء وحسب ما قاله الطالباني فإن المجيد أخبره: «أنت تبالغ ـ العدد الذي قتل في الأنفال هو ليس مائة واثنين وثمانين ألفاً بل فقط مائة وستة آلاف» وهنا يضحك الطالباني ساخراً.

وقال: «القتال ليس لعبة كرة منضدة، بل إنه قضاء كل طرف على الطرف الآخر. حين كنا نقاتل صدام حسين كنا نقتلهم وكانوا يقتلوننا. إنه شيء اعتيادي، إنها الحرب. وحين نوقف الحرب فإن كلا القاتلين يجلسان ويستقبلان بعضهما. وهذا يحدث في كافة أنحاء العالم. (ماو) قد جلس مع (كان جاي جيك) وهذا الأخير قد قتل زوجته وابنه وآلاف من الشيوعيين. لكن حين حان الوقت للمحادثات الخاصة بالسلام كان يجب أن يجلسا معاً. هذه هي مسيرة الحياة».

وحين تطور النطاق الأمني للأكراد إلى نطاق حظر الطيران

---

(1) لقد تم إعدام علي حسن المجيد مؤخراً بعدما أدين على خلفية أعمال قتل جماعي أهمها كان ضرب حلبجة بالأسلحة الكيمياوية وإبادة قرابة خمسة آلاف كردي. وقد تأخرت محاكمته وتنفيذ حكم الإعدام به، مما أثار حفيظة البعض حول هذا التأخير، خصوصاً وأن محاكمة صدام حسين وبرزان التكريتي وطه ياسين رمضان جاءت سريعة وتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم بعد انتهاء هذه المحاكمات. (المترجم).

تراقبه الطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية، فإن نطاقاً كردياً حقيقياً للحكم الذاتي يقع خارج نطاق سلطة صدام حسين قد برز وتقاتل بشأن السيطرة عليه كل من الطالباني والبرزاني. وكان سبب أحد النزاعات هو عائدات النفط المهرب. وأخبرني أحد الأصدقاء القدامى للطالباني «أنه يكون بأحسن حال حين يكون الوضع سيئاً، ويكون ميالاً لارتكاب الأخطاء حين يكون في أحسن حال. في عام 1991 برز الطالباني لدى الأكراد كسياسي معروف عالمياً. وبدلاً من أن يتحرك ليصبح باني الأمة تحرك باتجاه المعركة ولعب بالنار وقلّل من شأن كل ما قد بناه. وهو قد لا يحبني لأني أقول ذلك. إنه مغامر وربما مقامر».

عام 1994 نشبت حرب أهلية بين جيشي الطالباني والبرزاني، وفي وسط الاقتتال هذا قدم الطالباني مساعدة لقاعدة تابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ولأحمد الجلبي الزعيم العراقي في المنفى، وكلاهما كان متورطاً بعدة محاولات انقلاب فاشلة. وقد شن الطالباني هجوماً على قوات صدام حسين إلا أنه فشل وقتل مئات الناس في هذه الهجمات. واستمر الطالباني في قتال البرزاني الذي دعا بشكل يثير الغرابة قوات صدام حسين إلى الشمال.

حين وقّع الرئيس كلينتون قانون تحرير العراق عام 1998 ووعد بتقديم الدعم الأمريكي لجماعات المعارضة العراقية، ذهب كل من الطالباني والبرزاني إلى واشنطن لغرض تسوية خلافاتهما. وكان عندئذ أكثر من مائة ألف من الأكراد قد قتلوا من كلا الطرفين. وقال الربيعي: «لقد تقاتلا، نعم تقاتلا حرفياً وألحقا خسائر كبيرة ببعضهما. إلا أنهما الآن أصدقاء».

يشير التاريخ الكردي إلى عدم ثبات أي شيء. وحين سألت صديقاً مقرباً من الطالباني ما إذا كانت أيام العنف ستعود قال إنه لا يستطيع أن يتكهن بذلك.

بالنسبة إلى بعض الأشخص في واشنطن كان إعطاء الأكراد وطناً مستقلاً في الشمال وإعطاء وطن مستقل للشيعة في الجنوب وترك السنّة في الوسط ـ بما يقسم العراق إلى ثلاثة أقسام ـ يبدو كطريقة للخروج من الحرب الأهلية. وكان المؤيد البارز لهذه النظرة هو (بيتر غالبريث) وهو مسؤول سابق في وزارة الخارجية الأمريكية الذي ذكر في كتابه الموسوم «نهاية العراق» المنشور في السنة الماضية «إن كل كردي أعرفه يريد كردستان مستقلة» (في مذكرة عام 2005 صوت 98 % من الأكراد لصالح الاستقلال).

قال الطالباني عن (غالبريث): «إنه أحياناً يتكهن. فلو قال إنه لا يوجد كردي لا يريد أن يرى كردستان مستقلة لكان ذلك صحيحاً نوعاً ما. لكن ليس هناك كما أعتقد أي زعيم كردي من يقول «نريد الاستقلال» لماذا؟ لأن ذلك مستحيل. دعني أقول لك. اني اشتراكي» وهنا توقف برهة من أجل أن يصف ذاته وأضاف: «إلا أني أعتقد أن من المستحيل في رأيي خلق مجتمع اشتراكي الآن في العراق. دعنا نتصور أن كردستان عراقية قد أعلنت الاستقلال وأن إيران وسوريا وتركيا والعراق لم تحاربها بل فقط أغلقت حدودها. كيف سيتسنى لنا العيش؟ دعنا نقول إن لدينا النفط – كيف سيتسنى لنا تصديره؟». ثم مضى قائلاً: «ويمكنك أن تتأكد أنه لو أعلنت كردستان الاستقلال فإن إيران ستهاجمها وتركيا ستهاجمها وسوريا ستهاجمها والعراق لن يقبل بذلك. ونحن لا نستطيع أن نقاوم جميع هذه الأقطار». وفي وقت لاحق أخبرني (غالبريث) أنه بالرغم من أنه يعرف أن الطالباني يريد الاستقلال إلا أن الأمر يبدو «انتحارياً» الآن. وأضاف: «صحيح أن كونه رئيساً للعراق يخدم القضية الكردية أولاً بالمساعدة في الحفاظ على سلطة الأكراد، وثانياً بأن يكون اللاعب الكبير في العراق فذلك تعزيز للقضيّة الكردية».

يبدو أن الطالباني يشترك في هذا الرأي. فقد أخبرني: «لقد

وجهنا من قبل الغضب العربي. لكن الآن أصبح العرب يسألوننا „رجاءً أرسلوا البيشمركة، أرسلوا القوات الكردية لتهدئة المنطقة، وعلينا أن نتجاوب معهم. في هذه الأيام يشعرون أن الأكراد هم حماتهم».

في الواقع وطبقاً لمسؤول كان حاضراً في اجتماع مجلس الأمن الوطني عقد في أواخر شهر تشرين الثاني إثر أربعة تفجيرات أدت إلى مقتل أكثر من مائتين من المدنيين الشيعة، طلب محمود المشهداني وهو سنّي ورئيس البرلمان العراقي من الطالباني جلب البيشمركة إلى بغداد. وفي الاجتماع اشتكى المالكي بأن الأمريكان لم يقدموا له المساعدة للسيطرة الكافية على الأمن. فقواته لا تمتلك الرشاشات الثقيلة لأن الأمريكان حسب اعتقاده لا يريدون ذلك. فقال الطالباني: «أخي العزيز المالكي نحن جميعاً معك وسنحاول أن نعمل مع أصدقائنا الأمريكان. ولا تقلق ـ سنحاول أن نحصل لك على أسلحة ثقيلة سراً». وحين قال ذلك وضع الطالباني يده على فمه وقال بشكل مسرحي: «شششششش».

عندما نشر تقرير (مجموعة بحوث العراق) في السادس من شهر كانون الاول كان الطالباني ساخطاً. فمن بين عدة أمور دعا التقرير إلى زيادة التدخل الأمريكي في العمليات العسكرية للجيش العراقي وسيطرة الحكومة المركزية على عائدات النفط (وقال: إن عقد الصفقات الإقليمية كان غير متطابق مع المصالحة الوطنية). وقد وصف الطالباني التقرير بأنه «غير عادل» و«مجحف» وقارنه بالشروط المفروضة على أية «مستعمرة».

وكانت هناك توصية واحدة لم يعترض عليها الطالباني وهي أن الرئيس بوش بدأ في إجراء محادثات مباشرة مع سوريا وإيران. وكان قد أخبرني قبل أسبوعين «أن من مصلحتنا أن تكون العلاقة بين الولايات المتحدة وإيران حول العراق اعتيادية على الأقل وإن كانت

لديهما أية اختلافات أخرى فيمكن أن يأخذوها إلى أنحاء أخرى من العالم». وكان على وشك أن يغادر في رحلته الرسمية المؤجلة إلى إيران، وكان ينسق مع المالكي والآخرين في الحكومة بشأنها. وكذلك كان يطلع الأمريكان على كافة المستجدات، وقال: «هناك شيء واحد يجب أن أخبرك عنه وهو أننا لا نخفي علاقتنا مع إيران عن أمريكا».

حين سألت خليل زاد عن مبادرات الطالباني بشأن إيران قال بحذر: إنها يمكن أن تكون عديمة الفائدة. وأضاف: «أعرف أن لديه علاقات جيدة مع الإيرانيين وله تاريخ طويل من التعامل معهم. لكني أعتقد أن تعليقاته متشائمة بشأن أداء ونوايا الإيرانيين. وأنا أكثر شكاً بهم وأعتقد أنه كذلك لأنه يعرفهم جيداً».

يدرك العراقيون أنَّ بلدهم ليس مصدر القلق الوحيد لأمريكا مع إيران ـ فهناك البرنامج النووي الإيراني ودعم إيران لحزب الله وحماس. وقال مسؤول أمني شيعي كبير إن الطالباني لو حصل على تنازلات فإن على الولايات المتحدة أن تتابع المفاوضات لأن إيران «ستستفيد من ذلك وستحاول فرض القضية النووية عليهم لكن تلك هي قضيتهم». وأخبرني أحد كبار المسؤولين الأكراد بأنه كان يتعين على إيران «أن توضح بأن العراق والولايات المتحدة لن يأتيا إلى المفاوضات خاليا الوفاض. بل عليهما أن يتعاملا بالطريقة نفسها من خلال أقلياتهم الطائفية». وقد سمى بعض المجاميع مثل الأذريين والبلوش وبالطبع الأكراد. وقال بأني يجب أن أعير اهتماماً إلى حزب الحياة الحرة الكردي وهي جماعة كردية إيرانية قامت بشن هجمات حرب عصابات داخل إيران، وقيل إنها تحظى بالدعم السري من الولايات المتحدة. (لقد أحجمت وزارة الدفاع عن التعليق على ذلك). وقال: «إنها تعمل من داخل أراضي مام جلال».

لقد كانت طهران باردة ومكفهرة في السابع والعشرين من شهر

تشرين الثاني حين وصل الطالباني وحاشيته على متن طائرة من طراز بوينـغ 767 طارت به مـن باريس. وقد كان على متنها أيضاً العديد من الـوزراء ومجموعة من الصحفييـن والمصورين. وخلال هبوطها في طهران جاء أحد مسـاعدي الطالباني إلينا وسلم كل شخص استمارة لغرض توقيعها. لقد كانت مطبوعة بالعربية، وقد افترضت أنها كانت وثيقة هبوط رسمية أو شيء من هذا القبيل، ولكنه سلمني ظرفاً سميكاً ثـم تحرك بعيداً. وكان فـي داخل الظرف ألفـا دولار. وبعد أن هبطنا سـألت هذا المسـاعد عن سـبب إعطائه المال لنا، فقال: إنه «هدية من الرئيس». شـكرته لكني قلت إنه ليس بوسـعي أن أقبله، وسلمت الظـرف إليـه مجـدداً. لقـد بدا عليـه الارتبـاك. وترجم مسـاعد أقدم إيضاحاتي حول «أخلاقيات المهنة» جعلت هذا المساعد يشعر بعدم الفهم. وفتح المسـاعد الأقدم ظرفه وأصدر صفيراً وقام بعدّ الخمسة آلاف دولار «أعتقد أنه أعطاني نفس المبلغ الذي أعطاه إلى الوزراء. إنـه يقوم بإعطاء هذه المبالغ من جيبه الخـاص كما تعرف». وقال إن الطالبانـي يقدم أموالاً في كل رحلة إلـى كل من على متن الطائرة بما فـي ذلك الحماية وطاقم التضييف على الطائرة والطيار. وقد حسـبنا المال الموزع من قبل الطالباني خلال ساعة الرحلة وبلغ حوالي مائة ألف دولار. وفي طهران اسـتقل الطالباني سـيارة مرسيدس ليموزين سـوداء، بينما ركبنا جميعا في سـيارات أصغـر. وبينما كنا نمضي في طريقنـا عبـر المدينة كان التناقـض مع بغداد صارخـاً. فلم يكن هناك جنـود مسـلحون ولا حواجز إسـمنتية ولا نقـاط سـيطرة أمنية. ومن شـارع لشارع كانت المحلات مضاءة بوهج بعلامات النيون، وكانت الأرصفة مليئة بالناس وخصوصاً المتسوقين في المحلات. إلا أن ما يجذب الانتباه أكثر بالنسـبة إلى العراقيين هو العدد الكبير من النسـاء والفتيات في الشارع، إذ إن رؤية نساء في الشارع العراقي أصبح نادراً. وتهور اثنان من الرجال في السيارة معي وقاما بأخذ الصور للنساء من خلال هواتفهم النقالة.

استيقظ الطالباني في صباح اليوم التالي لزيارة قبر آية الله الخميني ثم التقى بالرئيس محمود أحمدي نجاد والقائد الأعلى آية الله علي خامنئي. وأخبرني بعض المصادر المقربة من الطالباني أنه طلب أثناء محادثاته تغييراً في السياسة الإيرانية – وبشكل خاص «سيطرة» إيران على ميليشيات الصدر والتحالف بدلاً عن ذلك مع الحكومة وإقناع حلفائها ومؤيديها بمن فيهم سوريا وحماس وحزب الله في أن يقوموا بالشيء نفسه. ثم طلب الطالباني بأن تفتح إيران اتصالاتها مع القوات المتعددة الجنسية في العراق وتعمل مع الحكومتين العراقية والأمريكية في خطتهما الأمنية لبغداد. وربما كانت القضية الأكثر جدلاً من وجهة النظر الأمريكية – ويفترض أنهم يعرفون بها – اقتراح الطالباني بقيام بغداد وطهران بتبادل المعلومات الاستخبارية وأن تساعد إيران على تدريب وتجهيز القوات الأمنية العراقية. وقال أحد العراقيين الذين حضروا الاجتماع إن الطالباني أخبر خامنئي أن العراق يقف الآن على مفترق طرق، فإما «البناء أو الهدم ويحتاج إلى مساعدة إيران». ومضى قائلاً: «إن القائد الأعلى قال إنه يتفهم ذلك وسيقوم بكل ما في وسعه. وبالمقابل أراد من العراقيين أن يأخذوا زمام السيطرة على أمنهم من الأمريكان».

لقد شعر المسؤولون في حاشية الطالباني أن المحادثات كانت تسير بشكل جيد. وأخبرني أحدهم أن الطالباني تحدث عن العنف في العراق مما جعل خامنئي يكرر: «أوه كم هذا فظيع نحن نصلي لأجلكم». أخيراً قاطعه الطالباني قائلاً: «ما نحتاجه هو ليس الصلاة بل نحتاج إلى الدواء». فأجاب خامنئي: «أنا سأقدم صلواتي وهو...» وهنا أشار إلى أحمدي نجاد: «سيقدم الدواء».

في وقت لاحق وفي مؤتمر صحفي قال أحمدي نجاد: «العراق أشبه ببطل جريح». فقال الطالباني الذي وقف مبتسماً إلى جانبه: «بوسعنا فقط الأمل بشفائه». ضحك الحاضرون، وقد كانت تلك

لحظـة من لحظات مام جـلال المميزة. وأضاف أحمـدي نجاد: «إن أفضـل طريقـة لدعـم العراق هـي الحكومـة المنتخبـة ديموقراطياً». ومهمـا بـدا ذلك غير متجانس مـع الظروف الفعلية، إلا أن مسـؤولي الطالبانـي أخـذوا ذلـك علـى أنه إشـارة أخرى بـأن الإيرانييـن كانوا مستعدين للمساعدة. فقد أخبروني أنها كانت المرة الأولى التي يتفق فيها الإيرانيون بشكل علني مع الحكومة العراقية الحالية.

جـاء إلـيَّ وزير عراقـي بعد ذلك وبدا متحمسـاً وقـال: «أترى؟ لقـد أخبرتـك أن الأمـر أكثر مـن كونـه رمزيـاً!». وبعد وقفـة قصيرة انحنى المسـؤول وهمس بأذني بشكل مثير: «لقد منحنا هؤلاء الناس أسـلحة!». في تلك الأمسـية سـألت مسـؤولاً عراقيّاً كبيراً ما إذا كان يعتقد أن الإيرانيين سـيقومون بذلك بالفعل، فقال: «لنرى – أنت غير قادر على التنبؤ بالأمور مع هؤلاء الناس».

قال المسـؤول إنه كان قلقاً من «الرسـائل المختلطة» التي تأتي مـن الغـرب. «لقد أكـدت فـي محادثاتي مـع الإيرانيين أنـه لا ينبغي لهم الافتراض بأن وقوع الأمريكان في المسـتنقع العراقي سيجعلهم عاجزيـن عـن القيـام بعمـل ضـد إيـران». في وقـت لاحق اسـتذكر المسـؤول حديثـاً له مع الرئيـس الإيراني: «قال أحمـدي نجاد: نحن مسـتعدون لأسـوأ سـيناريو». وأكمل المسـؤول أن أحمدي نجاد لم يكن يبدو مموهاً. «فقد قال إنهم كانوا يصدرون الأغذية بشـكل كبير خلال الأشهر الثلاثة الماضية وكانوا يكدسونها كفعل احترازي».

فـي المسـاء التالـي غادرنـا إلـى بغـداد. وكان أحـد الحـراس الشـخصيين للطالباني يحمل هدية اسـتلمها الرئيـس وهي عبارة عن سجادة مؤطرة كبيرة رسمت عليها صورة الطالباني.

في الثالث من شـهر كانون الأول قام (كريسـتوفر شـايز) عضو الكونغـرس الجمهوري عـن ولاية (كونيكتكت) والسـفير خليل زاد بزيـارة الطالبانـي فـي قصره ببغـداد. وإلـى جانب قوات البيشـمركة

الاعتيادية فإن جيشاً صغيراً من العجلات العسكرية الأمريكية والجنود قد وقفوا في الخارج للحماية. وكان (شايز) ابن الستين يرتدي قميصاً أزرق وبنطالاً خاكياً قد فاز بالانتخابات التكميلية لعضوية الكونغرس. وكان مؤيداً متحمساً لحرب العراق عام 2003، وهو اول قاض يزور العراق بعد الإطاحة بصدام حسين. وكانت زيارته تلك هي الخامسة عشرة كما أخبر الطالباني. على أية حال بعد زيارة في آب الماضي تغير موقف (شايز) من الحرب. فقد أصبح أول عضو كونغرس جمهوري يدعو إلى جدولة انسحاب القوات الأمريكية. وفي تشرين الأول دعا إلى استقالة دونالد رامسفيلد.

يبدو أن الطالباني كان يريد إعادة التأكيد على (شايز) بخسارات الجمهوريين في الانتخابات التكميلية. وقال: «حين فاز تشرشل بالحرب العالمية الثانية لم يفز بإعادة انتخابه». وكان ابنه (قوباد) الذي يعيش في واشنطن قد أخبره أن هناك ثلاث قضايا رئيسية في الانتخابات وهي العراق والصحة العامة والاقتصاد.

وقال (شايز): «حسناً إن الحرب في العراق كانت تشكل خمسين بالمائة». لقد أخذ صوته يعلو بشكل خطابي: «إن ما أحتاج أن أقوله لكم هو أن العراق يشكل قضية كبيرة، فقد كان أكثر من نصف الناخبين ضدي والنصف الآخر معي. وكل ما يراه الناس هو القتل والتعذيب. وهم يسألون: ما الفائدة من الإطاحة بصدام حسين في الوقت الذي كل ما نراه اليوم هو الشيعة والسنّة يتقاتلون مع بعضهم؟ إنه سؤال لا أعرف كيف أجيب عنه».

وقال الطالباني: «إن الشعب الأمريكي لا يعرف أساساً بأنا امتلكنا حقوقنا الآن. فقد كان لدينا ثلاث عمليات انتخابية. والشمال أصبح حراً وفي الجنوب هناك أماكن مستقرة».

يبدو أن ذلك لم يكن الجواب الذي توقعه (شايز)، وبعد وهلة غيّر الطالباني لهجته: «دعني أكون صريحاً معك. نحن نحتاج لدعم

أكثر بشأن القوات الأمنية العراقية». فقال (شايز): نعم لدينا بعض الالتزامات وقد ارتكبنا بعض الأخطاء الكبيرة – حل الجيش العراقي مثلاً – إلا أن الناخبين لدي بحاجة لأن يروا تقدماً حقيقياً وجهوداً حقيقية عن المصالحة الوطنية».

لقد تحول الجو في القاعة إلى جو مشحون «علينا أن نقوم بهذه الأشياء، إنه من واجبنا» كما قال الطالباني لشايز وبنظرة متشنجة. «لكن هذا البلد كان محكوماً من قبل الديكتاتورية». ثم بدأ في وصف حكم صدام.

قاطعه (شايز) وأخبره أنه بحاجة إلى جدول زمني لسحب القوات الأمريكية. وسأل: «إن استمر قتال الشيعة والسنّة وإن غادرت أمريكا عند موعد الانتخابات القادمة فماذا سيحدث في العراق؟».

قال الطالباني: «أنا سأخبرك. لن يكون هناك أي عراق».

وعند نهاية هذا اللقاء أشار (شايز) إلى أن حملة انتخابات الرئاسة لعام 2008 ستبدأ في الحال. وكان يؤيد (جون مكاين) وخمن أن (هيلاري كلينتون) ستكون للديموقراطيين. وقال: «في الحملة ستكون هناك أصوات حذرة أكثر حول العراق. لذا ينبغي إجراء تحسينات ولكن ليس حسب التوقيت العراقي». ويمضي (شايز) بقوله: «لقد ترعرعت على دراسة روعة حضارتين عظيمتين هما حضارة العراق وحضارة مصر. نحن حساسون إزاء عظمتكم. ونرى أنكم قد تملكون نفطاً أكثر من العربية السعودية ولديكم ماء يمكن أن يجعل العراق سلة الخبز للشرق الأوسط. المسألة هي أننا ذهبنا إلى العراق نقول إن صدام حسين لديه أسلحة دمار شامل ثم قلنا إن السبب كان الدكتاتورية المقيتة، لكن ما إن رأى الناخبون لدينا أعمال العنف بين الناس الذين من المفترض أننا قمنا بتحريرهم فإن الأمر سيصبح صعباً بالنسبة لي». قال الطالباني: «أنا واثق أن بوسعنا القيام بالكثير».

فقـال خليـل زاد: «السـيد الرئيـس السـؤال الكبيـر هـو العنف الطائفي». فرد الطالباني بأن حكومته تعمل على إنهاء ذلك.

لقـد كان ذلك حـواراً غريباً. فالطالباني و(شـايز) كانا كممثلين يقومان بالتدريب على أدوارهما في مشهد مسرحي لكنهما يقرآن من نصّين مختلفين وإن أياً منهما لا يلائم الوضع الحالي. فمن ناحية قال (شـايز) إن العراقيين كانـوا بحاجة إلى تنظيم بلدهـم، فرد الطالباني: «إن ذلك سـينفع إن سـمحتم لنا ببناء قواتنا وشـراء الأسلحة وما إلى ذلك».

قال (شايز) مقاطعاً: «هذا هو قراركم».

فرد الطالباني: «كلا إنه كان قراركم والآن هو قرارنا».

خلال شـهر كانون الأول بدا الطالباني مترقباً لمبادرته الإيرانية. وكان لديه سـبب ليشـعر بعـدم الارتياح كمـا اتضح في مـا بعد. ففي مداهمات شـنّها الجنود الأمريكان في 21 كانـون الأول ألقوا القبض علـى عـدة إيرانيين بضمنهـم رجلان كانـا يمكثان بالقـرب من قصر الطالبانـي فـي مجمع الحكيـم. وقد اتهـم الأمريكان هـؤلاء الرجال بأنهـم مـن كبار العمـلاء الإيرانيين وادعـوا أنهم اسـتولوا على وثائق تشير إلى استعدادات لهجمات في العراق. تقدم الطالباني ليقول بأنه «غيـر مرتاح» حـول عمليات إلقـاء القبض وإن الرجال هـؤلاء كانوا «ضيوفـه». وبعـد ثمانية أيام تم إطلاق سـراح الإيرانييـن الذين كانوا يحملون جوازات سفر دبلوماسية فعادوا إلى إيران.

وحسـب مـا ذكـره مسـؤول فـي حـزب الطالبانـي أن الرئيـس رأى أن العميليـن «كانـا يعمـلان طبقـاً لروحية» التفاهـم التي توصل إليهـا مـع إيران. ولغـرض إعطاء هـذا الحادث بعضاً من مـاء الوجه، أضـاف المسـؤول أن الوثائـق قد قدمـت للطالباني ليراهـا، وكان قد أخبـر الأمريكان أنه كان هناك «سـوء ترجمة» – فالوثائق كانت عبارة

عـن «خطـة لتقريـب جيش المهدي مـن منظمة بدر» – وهـذا ما أقنع الأمريكان بإطلاق سراح الرجلين.

ثم في الحادي عشـر من شـهر كانون الثاني، وبعد يوم مما قاله الرئيس بوش بأن الولايات المتحدة تعمل بقوة لإنهاء التدخل الإيراني والسـوري في العراق، داهمت قوات الكوماندوز الأمريكية المكتب الإيراني في اربيل العاصمة الكردية. وقد تم احتجاز خمسة إيرانيين، ووصـل الأمر إلى حـد إطلاق النار بيـن القوات الأمريكيـة ومقاتلي البيشـمركة. واحتج البرزاني بشـدة على الحادث كما احتجت إيران. أمـا الطالبانـي الذي كان على وشـك أن يطير إلى سـوريا فقد احتفظ بصمت حكيم. وأخبرني المسؤول في حزب الطالباني أن الرئيس قد شـعر بالاستياء من حادث اربيل خصوصاً أنه جاء مباشرة بعد حادث بغداد. لكن بعد ذلك جاء خليل زاد إلى السـليمانية ليلتقي الطالباني. وحسـب المسـؤول أخبر خليل زاد الطالباني أن ينقل إلى السـوريين نيابة عن البيت الأبيض اسـتعداد الولايـات المتحدة للحوار. (خليل زاد ينكر ذلك). وأضاف المسـؤول أن اسـتقبال الطالباني في سـوريا كان حاراً جداً مما تركه يعتقد أن السـوريين كانون مسـتعدين لذلك، وأشـار المسـؤول أنه بخلاف إيران التي حولـت الفوضى في العراق إلـى صالحهـا الاسـتراتيجي فـإن كل ما حصـل عليه السـوريون من الصراع كان عبارة عن مئات الآلاف من اللاجئين العراقيين.

إن إعـدام صدام حسـين الـذي نفذ في الثلاثين من شـهر كانون الأول كان عمليـة وحشـية ومشوشـة. فبينمـا وقـف علـى المقصلـة والحبل حول رقبته أثاره بعض الجلادين الملثمين وبعض من حضروا الإعـدام. ومن بين الكلمات الأخيرة التي سـمعها صدام هي هتافات تشيد بمقتدى الصدر. ويقال إن المالكي قد رفض بشدة طلب السفير خليـل زاد من بين عدة أشـخاص بالانتظار إلى مـا بعد عيد الأضحى لتنفيذ حكم الإعدام صباح يوم العيد بالنسبة للسنّة. وفي وقت إعدام

صـدام كان الطالباني في السـليمانية. وقبل سـاعات من الإعدام كان قد وجد الحل الأمثل لمشـكلته بالنسـبة إلى حكـم الإعدام. فقد قال (هيوا عثمان)، مستشـاره الإعلامي: «لا يمكن أن يكون الأمر أفضل مـن ذلـك. فقد وجد حلاً فـي بعض قضايا جرائم الحـرب الدولية إذ لم يعط الدسـتور السلطة على تغيير حكم المحكمة بطريقة ما، وكان ذلك رحمة من السماء وقد حلت هذه الأزمة الأخلاقية لديه».

أما بالنسبة إلى رد فعل الطالباني إزاء الإعدام فقد قال (عثمان): «أتذكر مـا فعله في باريس حين أعلن حكم الإعدام وذهب إلى غرفة نومه لأكثر من ساعة؟ هذه المرة استمر الأمر لثلاثة أو أربعة أيام. ولم يره أحد».

رجـل الظـلّ

هل بوسع إياد علاوي أن يوحّد العراق؟

قبل أيام قليلة من بداية رأس السـنة الجديدة، وفي يوم مشـمس رائـق في العاصمـة الأردنيـة عمان، تناولت الشـاي مع إيـاد علاوي رئيـس وزراء العـراق للحكومة الانتقالية. وجلسـنا فـي باحة إحدى الشـقق التي لا تثيـر الانتباه خصصت كمقر محلي لتنظيمه السياسـي المسمّى بالوفاق الوطني العراقي.

لقد احتشـد العديد مـن رجال الأمن العراقييـن والأردنيين عند نهايـة الباحـة وكانـوا يدخنون السـجائر. ولم يكـن بالقرب مـن إياد علاوي سـوى الحارس الشـخصي الأمريكي الـذي كان يرتدي بدلة سـوداء ونظارة سوداء تعطيه هيئة العميل السري. وقد أسدلت جميع ستائر نوافذ الفيلا المطلة على الباحة.

لقـد كان عـلاوي فـي رحلـة توقف ليوميـن في عمـان وهو في طريـق عودته إلـى بغداد بعدما قضـى عطلة أعياد الميـلاد مع زوجته وأطفالـه الثلاثـة الذين يعيشـون في لنـدن. حين وصلـت الفيلا كان عـلاوي يجـري حديثاً في الداخل مع أحد زعماء السـنّة وهو الشـيخ ماجد عبد الرزاق السـليمان رئيس إحدى عشـائر الدليم المتنفذة في محافظة الأنبار التي تضم الرمادي والفلوجة، تلك المدن التي ابتليت بالأعمال المسلحة ضد الاحتلال الأمريكي للعراق.

وكنت في وقت سـابق قد التقيت بالشـيخ السليمان، وهو رجل

قصير ممتلئ البنية، وعرفت أنه موالٍ بشكل كبير لإياد علاوي الشخصية العلمانية الشيعية.

قادني أحد المساعدين إلى الباحة الخارجية بانتظار أن ينتهي علاوي من حديثه مع السليمان. وبعد برهة انضم علاوي إليّ. لقد كان رجلاً طويلاً ضخماً برأس أصلع كبير وحنك مدبب ويتحرك بمشية متثاقلة، وكان يرتدي بذلة صوفية رسمية على الموضة رمادية اللون مع ربطة عنق حمراء داكنة وقميص أزرق. جاءت لنا امرأة شابة صغيرة بأقداح الشاي ثم عادت بعد لحظات لتجلب لنا قطع النستله من فيرورو روشيه.

كان علاوي في ذلك الحين لا يزال يترأس الانتخابات الوطنية الأولى في العراق منذ إزالة صدام حسين. وقد حدد موعد الانتخابات في الثلاثين من كانون الثاني. وكان علاوي نفسه يسعى إلى الحصول على مقعد في البرلمان الانتقالي الذي سيضم في عضويته 175 عضواً. وكان من المقرر أن يقوم البرلمان بكتابة الدستور وانتخاب رئيس الوزراء الجديد. ورغم أن علاوي قد صور الانتخابات على أنها انتصار للديمقراطية في العراق، إلا أن الأحداث في الأسابيع الأخيرة لم تكن تبشر بالخير. ففي السابع والعشرين من شهر كانون الأول انسحب الحزب الإسلامي العراقي، وهو الحزب السياسي الإسلامي الرئيسي لسنّة العراق، من الانتخابات بسبب بعض المخاوف الأمنية. وفي اليوم نفسه فجر انتحاري سيارة مفخخة خارج مبنى عبد العزيز الحكيم، وهو أبرز القادة الشيعة في البلد، مما أدى إلى مقتل خمسة عشر شخصاً. وفي الحادي عشر من كانون الثاني أيضاً اعترف علاوي في مؤتمر صحفي أنه «لا تزال هناك بعض الجيوب» في العراق حيث يحول العنف دون ذهاب الناس إلى صناديق الاقتراع .

لقد كان هدف الانتخابات هو تعزيز روح الوحدة الوطنية في

العراق، لكنها كما يبدو قد زادت من التوترات بين المجاميع الطائفية في البلد. فإزالة صدام حسين قد أضعفت الأقلية السنّية في العراق التي حكمت لأكثر من خمسة قرون. لذا فقد نجم من عداء السنّة لقوات الاحتلال الأمريكي ومخاوفهم من أن يخضعوا إلى هيمنة الغالبية الشيعية أعمالاً مسلحة عنيفة. والعديد من السنّة يخشون أن تفوز الأحزاب الشيعية بالانتخابات وتؤسس حكماً ثيوقراطياً دينياً مرتبطاً بإيران. وهذا قد دفع ببعض القادة السنّة إلى مقاطعة الانتخابات.

سألت علاوي ما إذا كان قلقاً من أن تؤدي الانتخابات إلى عنف أكثر. فلو كانت هناك نقطة ضعف سنّية واكتسح الشيعة الانتخابات فهل سيعمق ذلك الفصل الطائفي في البلد ويؤدي إلى حرب أهلية شاملة؟

بدا علاوي دقيقاً في اختيار كلماته بغية تجنب استخدام كلمة «سنّي» وأجاب: «قد أكون مخطئاً بالطبع لكني لا أعتقد بوجود مكونات الحرب الأهلية أصلاً في العراق. هناك أشخاص يحاولون إثارة المشاكل الدينية والطائفية في البلد. إن مشكلة الانتخابات في العراق هي ليست الأمن بل المشاركة. وهناك من يحاول منع ذلك عن طريق إخبار الناس بعدم التصويت وتنفيذ الهجمات وجرائم القتل. لقد كنت أحاول ضمان المشاركة بالتحدث مع الناس وحتى مع ما يسمى بالمقاومة – رجال العشائر في الأنبار والموصل والشيعة كذلك والأكراد». (الأقلية الكردية في العراق تتركز في الشمال تغازل دائماً فكرة الاستقلال).

أخبرني علاوي أنه كان قد التقى بأعضاء سابقين من حزب البعث تابعين لصدام (وعلاوي بدأ مشواره السياسي كبعثي في الخمسينيات من القرن الماضي حين كان شاباً وقبل صعود صدام حسين إلى السلطة، أي في وقت كان فيه البعث يمثل مناهضة الاستعمار ويمثل القومية العربية).

قال علاوي: «لقد سألت هؤلاء البعثيين ما الذي تريدون تحقيقه – أن تعيدوا صدام، أن تخرجوا القوات المتعددة الجنسية من العراق؟ إن أردتم إعادة صدام حسين إلى السلطة فانسوا ذلك «خلص» إنه انتهى. لقد انتهى مثل فأر مختفياً في جحر في الأرض. وهذا أمر مهين. أو إن أردتم جلب بن لادن أو أي شخص مثله إلى العراق فسوف نحاربكم من مكتب لمكتب. إننا لن نقبل بذلك أبداً. وإن أردتم إخراج القوات المتعددة الجنسية إذاً انضموا إلى الانتخابات. استخدموا صوتكم لإخراجهم».

لقد أشرت في السابق إلى أن مثل هذا الحديث لم يحظ بدعم كبير،حتى إ علاوي قال: «كلا إن هذا ليس هو التوقيت المناسب».

في هذه الأثناء جاء أحد المساعدين إلى علاوي وهو يحمل ملحوظة قدمها إليه فقرأها ثم استدار نحوي واعتذر. قال إن هناك شخصاً مهماً يتعين علي أن أقابله. ولم يخبرني من كان هذا الشخص لكنه طلب مني الانتظار لحين عودته.

بعدما غادر علاوي دخلت لأتحدث مع الشيخ السليمان. لقد كان يجلس مع رجلين آخرين على مقاعد جلدية سوداء في غرفة زينت بسجاد إيراني وفيها أعمدة ديكور على الطراز اليوناني مع صورة زيتية تمثل حضارة وادي الرافدين القديمة.

أحد الرجال كان مساعداً للشيخ، بينما الآخر هو عقيل الصفار أحد كبار مساعدي علاوي. كان الشيخ يرتدي جلابية «دشداشة» رمادية بأزرار من الفضة والماس في الأكمام.

كنت قد زرت الشيخ السليمان قبل أسبوع في بيته في عمان وأخبرني أنه هرب من العراق إلى الأردن عام 1996 بعدما أصبح معارضاً لنظام صدام. وحين استقر في الأردن انضم إلى جبهة الوفاق الوطني العراقي التي كانت في تلك المرحلة عبارة عن منظمة تعمل في المنفى وتكرس جهدها للإطاحة بنظام صدام. وكانت هذه

المجموعة التي يديرها علاوي تعمل تحت رعاية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية منذ عام 1992. وكما قال الشيخ فإنه وعلاوي كانا قد ساعدا على تمهيد الطريق للقوات الأمريكية لتدخل محافظة الأنبار في الأشهر التي سبقت الغزو الأمريكي للعراق في آذار عام 2003، وذلك من خلال ضمان عدم قيام ضباط الجيش العراقي بمحاربة قوات التحالف. ثم جاءا معاً إلى العراق في نيسان 2003 بعد سقوط بغداد، وقد قضى علاوي بضعة أيام في منزل الشيخ في محافظة الرمادي قبل أن يمضي في طريقه إلى بغداد. على أية حال بعد ثمانية أشهر هرب الشيخ السليمان إلى الأردن مرة أخرى بسبب تهديدات جاءته بالقتل من قبل مسلحين اتهموه بأنه متعاون مع الأمريكان وهذا أمر لا يبتعد عن الدقة. لقد كانت مشكلة السليمان مماثلة لمشكلة علاوي الذي غالباً ما يشير إليه العراقيون وخصوصاً السنّة بأنه (أي علاوي) لعبة بيد الغرب.

قال الشيخ في إطار ذلك: إن «الأمريكان غير مخلصين لأصدقائهم. أنا أقول ذلك باعتباري شخصاً يعتبر عميلاً لهم. لقد خانونا وسمحوا بنهب بغداد ودخول اللصوص إليها».

ورغم صداقته مع إياد علاوي إلا أنه قال إن ليس بوسعه كزعيم سنّي أن يدعم الانتخابات في ظل الظروف الحالية. وقال لي: «أنت من أمريكا. لو الذي حدث في الفلوجة كان قد حدث في مدينتك فهل بوسعك أن تجري انتخابات هناك؟» (كان السليمان يشير إلى هجوم قوات مشاة البحرية على الفلوجة في شهر تشرين الأول والذي أدى إلى تشريد سكانها البالغ مائة وخمسين ألف شخص وهدم العديد من دور المدينة.) «فلو استمرت الانتخابات كما هو مخطط لها فإنها ستكون انتخابات ناقصة لأن العراق كبيت واحد، لا يمكنك أن تبني غرفة واحدة ولا تكمل بقية الدار».

قال الشيخ إنه جاء إلى الفيلا ليطلب من علاوي أن يوافق على

تأجيل للانتخابات مدته ستة أشهر لأن مثل هذا التأخير كما قال سيجعل حظ السنّة أكبر في الفوز بها. لم يعط علاوي أي التزام وذكره بأن الجدول الزمني للانتخابات قد حدد من قبل الأمم المتحدة إلا أنه قال: «سنرى ما يمكن أن نفعله».

تحسر السليمان وأشار بيده يائساً بما يعني أنه عرف بأن الانتخابات ستمضي قدماً كما هو مخطط لها.

في لقائنا السابق كان السليمان قد أخبرني أنه بغض النظر عن نتائج الانتخابات إلا أنه يأمل أن يبقى علاوي قائداً للعراق. فبعد خمسة وثلاثين عاماً من حكم صدام حسين يحتاج العراقيون إلى صرامة ولكن بعدالة، وقال: «نحن لم نعد نحترم القوانين ونحتاج إلى شخص يوقفنا، رجل قوي وحازم، شخص يمكن أن يبني جيشاً قوياً ويعيد بناء مؤسسات الدولة. في هذه المرحلة يعتبر علاوي أفضل رجل لهذه المهمة. وبعد أسبوعين من موعد اقتراب الانتخابات أردت أن أعرف ما إذا كان منظور الشيخ السليمان قد تغير.

كان الشيخ مشوشاً بينما كان مساعده يحاول أن يقرأ نص رسالة قصيرة على هاتفه الخلوي يبدو أنها كانت موجهة إلى الشيخ الذي راح يطلب منه الإعادة والتركيز؟ أعاد المساعد قراءة الرسالة محدقاً مرات عدة. وأوضح الصفار، المساعد الأقدم لعلاوي بأن الشيخ كان عاجزاً عن تفسير نص الرسالة لبعض الوقت، وأخيراً طلب من مساعده القيام بذلك. لقد كانت إحدى الرسائل كانت عبارة عن تهديد بالموت وتحذر الشيخ السليمان ليقطع علاقته بعلاوي خلال ثمان وأربعين ساعة وإذا لم يفعل فمصيره القتل. وأضافت الرسالة أن فريق الاغتيال قد أرسل إلى الأردن لتنفيذ الحكم في حالة عدم إذعانه لذلك. ولكن الوقت المحدد قد مرّ عليه عشرة أيام. ابتسم الصفار كما يبدو بغير انزعاج بينما ظهر الشيخ السليمان مرتعباً بشكل عميق. لقد فتح عينيه وصرخ موجهاً أوامره إلى مساعده الذي

قـام بعـدة اتصالات من هاتفه النقـال ربما كانت كمـا يبدو اتصالات بالمخابرات الأردنية.

فـي هـذه النقطة عـاد عـلاوي وأوضح السـليمان مـا حدث له بشـأن رسـالة التهديـد. انزعج علاوي مـن ذلك لكنه اسـتدار نحوي وأشـار إلـى الأرض وقـال بطريقة رجـال الأعمال: «هل نسـتمر في الحـوار؟» لقـد تم تعيين علاوي رئيسـاً لـوزراء العراق فـي حزيران، وتـم ذلك في مراسـم خاصة مع بـول بريمر رئيس سـلطة الائتلاف. ومنذ تسـلم عـلاوي للمنصب فقد أصبـح العراق أقل عنفـاً، وكانت جهوده في استعادة الأمن الشغل الشاغل لقيادته. قال بعدما عدنا إلى الخـارج: «لقد أردت أن أجسـد حكـم القانون. أريـد أن أرى العراق موحداً وقوياً». وكانت إحدى قراراته هي إعلان حالة الطوارئ، وفي الأسـابيع الأولى من فترة حكمه تجشـم علاوي عناء إظهار نفسه بأنه رجل صاحب قرار وشـجاعة، وربما قد يقـول أحدهم صاحب تهور أمـام مشـهد التفجيرات بسـيارات مفخخة حـول بغداد مباشـرة بعد تسـلمه منصبه. لقد استخدم هذه المناسـبات كي يلعن الإرهاب علناً ويدافع عن حكم القانون. (وحاول مستشاروه الأمنيون منعه من هذا النشاط).

وبشكل أقل شد للأعصاب سرت شائعات متواصلة قبل أسبوع مـن فترة حكم علاوي أنـه قد أعدم وقتل العديد ممن يشـتبه بكونهم إرهابيين محتجزين كسـجناء في مركز شـرطة في بغداد. وحين سأله مراسـلون عن ذلك أنكر علاوي بكونه قام بإعدام أي شـخص، لكنه أضـاف أن بإمكانه القيام بأي شـيء ضروري لحمايـة العراقيين. لقد كنت في بغداد في تلك الفترة وكان العديد من العراقيين الذين تحدثت معهـم يؤمنون بهذه الشـائعات بل ويرى صحفيون ودبلوماسـيون أن علاوي كان قد بثها بنفسه بغية تعزيز سمعته المتشددة.

على أية حال، في أواخر حزيران جلست في مقابلة كان يجريها

(بول ماكجو) وهو مراسل لصحيفة (سيدني مورننغ هيرالد) لرجل ادعى أنه شاهد على الإعدامات. وقد وصف كيف أن علاوي توجه إلى سبعة متهمين تم إيقافهم أمام الحائط في باحة مركز الشرطة وكانت وجوههم مغطاة. وبعدما تم إخباره عن جرائم هؤلاء من قبل مسؤول في الشرطة، طلب علاوي مسدساً ثم أطلق النار في الرأس على كل سجين. بعد ذلك قال الشاهد إن علاوي أعلن للحاضرين: «هكذا يجب أن نتعامل مع الإرهابيين». وقال إنه يوافق على ما قام به علاوي مضيفاً أن من الأفضل لهؤلاء أن يموتوا لأنهم تعرضوا للتعذيب لأيام عديدة.

في الأشهر التالية سرت هذه القصة التي لم يتم تأكيدها بشكل حازم أو نفيها بشكل قاطع (بل إن علاوي نفسه لم يتطرق إلى الحادثة معي أصلاً). فخلال زيارتي إلى الأردن أخبرني وزير سابق معروف أن مسؤولاً أمريكياً كان قد أكد أن عمليات الإعدام قد تمت بالفعل وقال له: «أية فوضى هذه، لقد تخلصنا من ابن عاهرة واحد ليكون لنا آخر».

وكما في الماضي فإن العراقيين كانوا يخفون مشاعرهم الحقيقية حول طغيان صدام الوحشي بالإشارة له على أنه حازم. والعراقيون اليوم يشيرون إلى علاوي على أنه رجل «شديد». وهذه عبارة مؤدبة بشكل غريب تخفي درجات متفاوتة من الخوف والاشمئزاز والإعجاب. وأخبرني أحد أصدقاء إياد علاوي من العراقيين الذين كانت لهم صلة وثيقة بالعائلة الملكية الهاشمية في الأردن بأن إياد «شقي، لكنه شقي في الوقت الذي يحتاج أن يكون فيه كذلك. والأمريكان الذين أعدوا ذلك يدعونه بديل صدام». وأخبرني صديق قديم آخر لعلاوي وهو عراقي يعيش الآن في الأردن أن علاوي خلال تجمع عائلي خاص صادف مؤخراً، قال علاوي إنه صدم لدى عودته إلى العراق بعد ثلاثين سنة قضاها في المنفى من الدرجة التي

أحـط بها حكـم صدام المجتمع العراقي. وقال هـذا الصديق متذكراً مـا قاله عـلاوي: «إن العراقيين أصبحوا كذابيـن ومحتالين وقتلة ولا يحترمون سـوى القوة الوحشـية وكانت تلك هي طريقته في التعامل معهـم». وفـي لحظة من العاطفة الجياشـة قال علاوي: «سأسـتخدم القـوة الوحشـية» ثلاث مـرات كما لـو كان ينطق بقسـم ضارباً بكف على كف.

إن عـلاوي رجـل مزاجي رغـم محاولتـه جاهداً إخفـاء ذلك. وخـلال الأزمة فـي النجف فـي آب الماضي ظهر عـلاوي في العلن ويده ملفوفة بضمادة طبية، وكانت هناك شـائعات تقول بأنه قد ألحق الأذى بيـده فـي نوبـة غضب خـلال لحظة حرجـة. وسـألته عن هذه القصة فضحك وأشـار بخجل إنها قصة صحيحة رغم أنه لم يكشـف عن السـبب الرئيسـي للحادثة. وقال: «بينما كنا نواجه الأزمة لم أكن أحصل على معلومات كافية بل كانوا يخبرونني فقط بالمعلومات التي كانت تسـرني، أي المعلومات التـي لم تكن دقيقة. فالمعلومات التي حصلـت عليها كانت أمنيات وليسـت واقعـاً. وهنا ضربت يدي على المنضـدة بقوة أدت إلى كسـرها، فقد كسـر عظم في الرسـغ والآخر فـي اليـد». وأراني جـزءاً من يـده في المكانيـن اللذين أشـار إليهما. وقد أشـار إليهما بيده الأخرى. ثم أضـاف بقوله: «لكن ذلك لم يكن سـوى البدايـة. وأنت تعرف نحـن أناس عاطفيـون ونؤمن بالصحيح والخطأ».

لقـد برهنت شـخصية الرجـل القوي لعـلاوي على أنهـا مفيدة مـن الناحية السياسـية، وقد سـاعدته علـى تعزيز تصـوره بأنه يحمي السـيادة العراقيـة حتـى وإن كان العراق لا يزال بلداً محتلاً ومشـروع أمنـه مشـروعاً أمريكيـاً بحتاً. في شـهر آب حاول عـلاوي التفاوض علـى إنهاء انتفاضة النجف التي قادها رجل الدين الشـيعي المتطرف مقتـدى الصدر. وحين انتهـت المحادثات إلى طريق مسـدود قامت

قوة مؤلفة من ألفي رجل من مشاة البحرية وألف وثمانمائة من أفراد الجيش العراقي بقتل قرابة ألفي مسلح ومئات المدنيين قبل التوصل إلى صفقة. وكان علاوي قد أصدر أمراً رسمياً لبدء الهجوم وذهب بطائرة هيلكوبتر إلى النجف خلال القتال، لكن الأمريكان قد أخذوا زمام الأمور.

لقد كانت إحدى أولويات علاوي الرئيسية كما أخبرني هي تأسيس جيش عراقي مدرب جيداً ومجهز جيداً يكفي ليحل محل القوات الأمريكية، وقد أسس مديرية وطنية للأمن والشرطة الوطنية مكرسة لمقاومة الإرهاب. لكن أحد كبار الضباط الأمريكان الذين عملوا عن كثب معه أخبرني أن علاوي محبط بشكل هائل لعدم وجود جيش أفضل. وقال إن الأمر بالنسبة له مثل بستاني بدون مسحاة صغيرة.

في تشرين الثاني تسلم علاوي مسؤولية القرار بإرسال مشاة البحرية إلى الفلوجة مما أدى إلى مقتل الآلاف، على الرغم من أن ذلك أعاد المدينة إلى سيطرة الحكومة. لكن هجوم الفلوجة لم ينه الأعمال المسلحة للسنّة. فقد اتسعت هذه الأعمال واكتسبت زخماً وشدة. وبعد عملية الفلوجة أصبحت مدينة الموصل الشمالية التي قتل فيها اثنان وعشرون جندياً أمريكياً وعراقياً في خيمة الطعام حين فجر انتحاري نفسه قبل أعياد رأس السنة مسرح الحرب الكبير الجديد. وفي بغداد سادت عمليات الاغتيالات والتفجيرات الانتحارية وأصبحت حوادث روتينية. وأخذ المتمردون يسيطرون على بعض المناطق ويهاجمون الدوريات العسكرية الأمريكية ويقتلون رجال الشرطة العراقية ويعدمون مسؤولي الانتخابات.

وفي عشية رأس السنة، أي بعد يوم من لقائي معه في عمان، طار إياد علاوي عائداً إلى بغداد من دون أن يعلن عن ذلك وفي رحلة منفصلة وكذلك فعلت أنا. بعد ثلاثة أيام قام انتحاري بالهجوم على

الشـريط الأمني الذي يحمـي دار إقامته في غرب بغـداد تماماً خارج المنطقـة الخضـراء. وقـد أمطر الحـرس المحيـط بالبنايـة المهاجم الانتحـاري بوابـل من رصاص رشاشـاتهم مما أدى إلـى أن يصطدم بالحاجز الأمني وتنفجر سـيارته. لم يكن علاوي في حينها في البيت وقد قتل أربعة من الحرس جراء الانفجار.

فـي ذلـك اليوم كانـت هناك عـدة هجمات أخرى بمـا في ذلك تفجيـر انتحـاري قرب المطـار ممـا أدى إلى مقتـل ثلاثـة بريطانيين وأمريكـي واحـد وجميعهم مـن المتعاقديـن الأمنيين. وفي المسـاء انتشـر الخبـر بأن علاوي قـد اتصل بالرئيـس بوش للطلـب بإمكانية تأجيل الانتخابات. وتصادف هذا الخبر مع بيان تحذيري عام أصدره رئيـس جهـاز المخابرات اللواء محمد الشـهواني مفـاده أن هناك في العراق مسلحين أكثر من عديد القوات الأمريكية حيث يقدر عددهم قرابة المائتي ألف بما في ذلك المتعاطفون معهم.

وحسـب ما قالـه أغلب النـاس الذين تحدثت معهـم فإن القلق الرئيسـي لعلاوي هـو ليس احتمال وجود العنف فـي الانتخابات بل احتمال أن يفقد السـيطرة. وعلى الرغم مـن أنه يبدو متأكداً من الفوز بمقعـد فـي البرلمـان، إلا أن حزبه يمكـن أن يتراجـع وراء المجاميع الدينية الشـيعية. وسألت علاوي عن السبب وراء سعيه إلى المنصب وما إذا كان يطمح بمنصب رئيس الوزراء فأجاب مثل أي سياسي جيد بأنه قد وضع نفسه كمرشح لأن أصدقاءه وحزبه كانوا قد ضغطوا عليه للقيـام بذلك. وقال: «بالطبع أريد أن أكون جزءاً من العملية». وحتى إن كان سيخسـر في الثلاثين من كانون الثاني كما قال بشدة: «فسوف أضغط بكل ما أراه صحيحاً لأجل البلد».

أخبرنـي علـي علاوي ابن عم إياد في لندن الشـهر الماضي بأنه «يعتبـر إياد أحد رجال الظـل كما يحلو للفرنسـيين أن يطلقوا عليه». ويملـك علـي علاوي أيضـاً بيتاً في لنـدن يقع خارج شـارع كنزكتن.

لقد وصف علي علاوي، بأن إياد ذو شـخصية غامضة ومراوغة وهي صفات يعزوها إلى سـيرة عـلاوي الأولى كبعثي تبعتها سـنواته التي قضاهـا يعمـل مع أجهزة المخابـرات الغربية ضد صـدام. وقال علي علاوي: «إنه يفهم ثقافة المخابرات الخاصة بالتصفيات»، وكان بهذا يشـير إلى أسـاليب جهاز المخابـرات العراقية. ويعتقـد أن ذلك كان السـبب وراء اختيار إياد علاوي في نيسـان الماضي من قبل (روبرت بلاكويـل) المبعـوث الخـاص للرئيس بـوش إلى العـراق والأخضر الإبراهيمـي مبعوث الأمـم المتحدة لمنصب رئيـس وزراء الحكومة الانتقالية. وكان علي علاوي وزير دفاع العراق خلال الأشهر الأخيرة لمجلـس الحكـم العراقي المنحل. وفي ذلك الوقـت كانت النية هي إعـادة تأسـيس دولة أمنيـة وأن إيـاد كان الرجل المطلـوب كما قال. ويرى إياد أن الحافز على السـلطة أساسـاً هو كونها لعبة اسـتخبارية. أي أنها عبارة عن «نوع من التوظيف الذهني».

لقـد ولد إيـاد علاوي عام 1945 لعائلة بغدادية يعود نسـبها إلى آلاف السـنين. وكان والـده شـيعياً عراقيـاً طبيبـاً. أما أمه فهـي لبنانية شيعية وهي مديرة مدرسة من أشراف عائلة عسيران. وبترابط بيزنطي مميـز للعوائل العريقة في الشـرق الأوسـط نزاعات حـادة على مدى سـنوات إلا أنهمـا حافظا على علاقـة ظاهرها يبـدو صداقة محترمة. وقالت تمارا الداغستاني، وهي عراقية صديقة لكلا الرجلين: «إن إياد وأحمد مؤدبان تجاه بعضهما بعضاً. نعم هناك تنافس بينهما إلا أنهما يقومـان بذلك بطريقة رزينة. فأنا لم أسـمع أياً منهما يتحدث بالسـوء عن الآخر».

لقد نشأ علاوي في الأعظمية، وهي منطقة غنية سنّية في الغالب تقع شـمال غـرب بغداد وعلى ضفة نهر دجلة حيـث تقع على الضفة الأخـرى منطقـة الكاظمية حيث يعيـش الجلبية. وقـد درس علاوي فـي أفضـل المدارس في العراق وهي مدرسـة كلية بغـداد. وكان من

بين الطلبة الآخرين أحمد الجلبي وعادل عبد المهدي وزير المالية الحالي. وكأطفال خلال الخمسينيات كان آل علاوي وآل ألجلبي أعضاء النخبة وأحفاد عراقيين كانوا وزراء وأعضاء برلمان في سنوات الحكم الملكي الذي أقامته بريطانيا في العراق. وخلال العطل الصيفية كان علاوي يسافر مع عائلته إلى لبنان وأوروبا.

عام 1958 أطاحت ثورة دموية قادها الجيش بالحكم الملكي وأنهت بذلك حياة العوائل الأرستقراطية مثل عائلة علاوي والجلبي. حتى إن بعض أقربائهما القدماء والمعنيين بالسياسة قد هوجموا من قبل الغوغاء لأن هؤلاء رأوا فيهم أفراداً في حكومة الأثرياء الكريهة. وقد أرسل علي علاوي وأغلب أبناء عمه إلى الخارج لغرض الدراسة. وذهب علي إلى مدرسة خاصة في إنكلترا. بينما انتقل الجلبية إلى لبنان عام 1959. ودرس إياد علاوي وأحمد الجلبي في كلية (ام أي تي) ثم انخرط كلا الرجلين في عالم البنوك، وفي أواسط السبعينيات دخل كلاهما في عالم السياسة للمنفيين العراقيين.

في أثناء ذلك كان إياد علاوي يدور في فلك سياسي واجتماعي مختلف. فقد بقيت عائلته في العراق. وعمل بشكل عميق في صفوف حزب البعث الذي انضم إليه بعمر الثانية عشرة. وأخبرني أحد أقربائه قائلاً: «حقيقة أن إياد علاوي أصبح بعثياً فهو أمر لم يكن مستغرباً من ولد عراقي بعمره وصفه. ففي تلك الأيام لديك خيار في أن تكون إما شيوعياً أو بعثياً». وقد ناهض البعثيون حكم الرئيس عبد الكريم قاسم الذي اعتبرت حكومته متأثرة بالشيوعيين. ويتذكر هذا القريب قائلاً: «لقد أصبح علاوي منظماً وأحد المقاتلين في الشارع. وقد ألقي القبض عليه عدة مرات ولكن من دون تحمل عواقب كثيرة بسبب نفوذ عائلته وصلاتها».

وكشاب درس إياد علاوي الطب في جامعة بغداد لكنه مع ذلك بقي متورطاً بالسياسة البعثية بشكل عميق. وقد أخبرني محمد

صـادق البـدري وهو صيدلي سـنّي عراقـي كان يدير إحـدى مصانع الأدوية التابعة للدولة خلال حكم صدام بأنه التقى علاوي عام 1960 حين انضم إلى الحزب. وبعد ذلك أصبح علاوي مسـؤوله الحزبي. وقال: «لقد كان علاوي هادئاً جداً لكنه يبدو قوياً». ولم يكن مرناً بل شديداً كما لم يحبذ مناقشة الأشياء كثيراً. وإن كان يعطى أوامر فكان يتوجب عليه مراعاة أن يراها تنفذ من قبلنا وبعد ذلك فقط كان يمكننا النقـاش ولكـن ليس قبل ذلك. قال البدري إنه وعـلاوي غالباً ما كانا يدخلان في العديد من الصدامات مع الشيوعيين في الجامعة.

عـام 1963 قـاد البعثيون انقلاباً ضد قاسـم قتل علـى أثره آلاف الشـيوعيين مـن قبـل مؤيـدي الانقـلاب. وتحدثـت مـع العديد من العراقييـن الذين ادعوا أن علاوي كان متورطـاً في التحقيقات البعثية للشـيوعيين خـلال تلك الأيـام الداميـة. وأخبرني أحـد العراقيين أن عـلاوي كان شـيوعياً فـي مقتبـل عمـره ثم غيـر جلدته السياسـية إثر التطهيـر البعثـي. وقال هـذا الرجل إن عـلاوي كان حاضـراً حين تم تعذيبه، ولكن على الرغم من مرور أكثر من أربعين سنة فإنه لا يستطيع أن يتذكر ما إذا كان علاوي شخصياً قد ساهم في سوء معاملته تلك أم لا. وقال أيضاً إنه قد تم ضربه بينما كان معلقاً من كلاب في السقف. وحين يتم إنزاله تكون قد خلعت أكتافه.

لقـد أنكر عـلاوي تورطه فـي التعذيب والقتل وقـال: «في عام 1963 كنـت مجرد طالـب في الثانوية وأنا معـروف بمعارضتي للجنة التحقيـق والحرس القومـي للبعثيين وهم الذين قتلوا الشـيوعيين ثم بعـد ذلـك حين انشـق حزب البعـث انضممـت إلى جماعـة صغيرة عارضت أعمال العنف في عام 1963».

بعـد الانقـلاب اسـتولى علـى السـلطة ضابـط فـي الجيش هو عبد السـلام عـارف وهـو رئيس تحالـف من الفئـات المتنافسـة بما فيهـم البعثييـن. وفـي نهاية السـنة تم تطهيـر البعثييـن. وحوالى ذلك

الوقـت أصبح عـلاوي صديقاً لصدام وسـاعد على تسـهيل سـطوع نجمـه العنيف. وتآمـر الاثنان ضد الحكومة وتم زجهما في السـجن معـاً. وأخرج علاوي بكفالة من عائلته بينمـا هرب صدام عام 1966. ومباشرة استأنف علاوي وصدام تآمرهما.

في تموز 1968 اسـتعاد البعثيون السـلطة بالقوة. ولعب علاوي دوراً فـي الانقـلاب متبعـاً أوامر حزبه. وبعـد يوم من تشـييع جثمان والدتـه عاد مسـرعاً من بيروت للمسـاعدة في الاسـتيلاء على محطة إذاعـة بغـداد. وكان النظـام الجديـد يقـوده أحمد حسـن البكر الذي أصبح الرئيس الجديد للعراق، بينما برز صدام حسين ابن عمه البعيد إلى مركز السـلطة الفعلية المهيمنة. في عام 1979 أزاح صدام حسـين قريبه وتسلم هو مقاليد الأمور.

خلال حديثي مع علاوي في عمان أشار إلى شعوره بالمسؤولية عـن هذه الفتـرة الكارثية فـي التاريخ العراقي وفي السـنوات الدموية التـي أعقبت ذلك. وكان هذا الشـعور بالمسـؤولية كما قال هو الذي دفعه إلى محاربة صدام لعدة سنوات.

لقـد أخبرني علاوي أنه بعد أيـام قليلة من انقلاب عام 1968 تم اغتيـال محام مرموق من بغداد من قبـل قتلة يرتبطون بصدام فتغيرت ميولـه. وقـال إنه حيـن أخذ صـدام يقوي سـلطته تعمقـت لديه (أي لـدى علاوي) أخطاء صـدام. ففي عام 1971 وبينمـا كان علاوي في زيـارة إلى لبنان قررت القطيعة النهائية معهم أي البعثيين. وقام بعض الأصدقاء في بغداد بالاتصال به وأخبروه أن صدام يجري تطهيراً في النظام وحذروه من العودة إلى العراق. فقرر علاوي السـفر إلى لندن لإكمال دراسـته الطبية. ولكـن كما هو الحال فـي الغالب فإن رصيد علاوي عما حدث في ما بعد لا يتناسب مع ذكريات الآخرين.

القصة التي يتداولها الكثير بشـكل واسـع عن السـنوات الأولى لإياد علاوي في لندن هي أنه كان لا يزال يعمل لصالح حزب البعث

العراقي ولصدام باعتباره رئيس شبكة تشرف وتراقب العدد الهائل من المهاجرين العراقيين والطلبة الشيوعيين في أوروبا. وقال محمد صادق البدري: «حينما ذهب علاوي إلى لندن أصبح مسؤولاً عن حزب البعث في المملكة المتحدة». بعد ذلك أصبح مسؤولاً عن خلية المخابرات التي كانت تعمل من السفارة. ومهمتها هي مراقبة الطلبة العراقيين، وكان علاوي يعرف الكثير منهم وأراد التأكد من أن هؤلاء الطلبة مستمرين في موالاتهم للحزب. كما قال البدري إن علاوي اصطدم مع صدام حين سمع الأخير أن علاوي كان قد اتصل بجهاز المخابرات البريطاني (ام. أي 6). فدعاه صدام للعودة إلى بغداد لكنه رفض فتقاعد من الحزب كما يقول البدري. وأخبرني علاوي أنه لم يبدأ العمل مع المخابرات البريطانية إلى حين عام 1990، لكن ما من شك أن تحالفاً معيناً قد بدأ قبل ذلك بسنوات. وقد استفاد كلا الطرفين من هذه العلاقة، فبالنسبة إلى البريطانيين كان علاوي معارضاً عراقياً قوياً تمنح معرفته وصلاته وسائل محتملة للنفوذ المستقبلي هناك. أما بالنسبة إلى علاوي فإن العلاقة مع جهاز المخابرات البريطاني قد أكدت له البقاء المستمر في بريطانيا وجهزته بالمال لأجل بناء عمليته السياسية أثناء بقائه في المنفى.

لقد قدم علاوي إيضاحاً مطولاً وصعب الإدراك عن نشاطاته في لندن. فقد أخبرني أنه حينما انتقل إلى هناك لم يكن لديه شيء أكثر يعمله مع حزب البعث العراقي أو مع صدام حسين. قال إنه كان مرتبطاً ليس مع حزب البعث العراقي بل مع الحركة البعثية العالمية، وكان يخدم فيها كرئيس لفرع أوروبا الغربية لحزب البعث العربي. في عام 1975 ترك تلك الجماعة كذلك كما قال لأنه رأى أن صدام كان يضع سيطرته عليها كثيراً. لقد أخبرت علاوي أن العديد من العراقيين الذين تحدثت معهم كانوا تحت انطباع في أنه كان يمثل حزب البعث العراقي أو المخابرات العراقية خلال السنوات الأولى له في إنكلترا. فاحتج قائلاً: «لا لا. أولاً أنا لم أعمل كموظف حكومي مطلقاً ولم

أعمل في المخابرات أو أي شيء من هذا القبيل. ثانياً لم يكن هناك أي شيء يدعى بالمخابرات حين غادرت العراق». وأوضح أن التنظيم المعروف بذلك الاسم قد جاء إلى الوجود فقط في عام 1973. ومن الناحية الفنية فإن كلمة «المخابرات» هي المرادف العربي لكلمة (Intelligence) الإنكليزية.

وأضاف بأنه حين تم ايجاد وكالة تمهيدية للمخابرات فإنه كان يقف ضدها في الاجتماعات الحزبية. ثم قال علاوي بعد ذلك إن هذا الاجتماع الحزبي كان الأخير الذي رأى فيه صدام. وقال: «لقد تركت أيديولوجية حزب البعث في عام 1971. وقد كانت هناك قضيتان خطرتان جداً، الأولى هي النخبوية والثانية هي التفكير السري والهياكل التنظيمية السرية. وأنا قد وقفت ضد هاتين القضيتين. أرى أن هذا شيء من الماضي وهو يسخر من الشيوعية القديمة. هذا هو السبب الذي كنت قد رفضت فيه جميع العروض التي وضعت أمامي في أن أكون عضواً في الحكومة. واستمر ذلك من عام 1969 حتى مغادرتي العراق. لقد عرض علي منصب سفير حين كنت لا أزال طالباً في الطب. فقد عرض علي أن أكون سفير العراق في لبنان كما عرضت علي مناصب وزارية، لكني رفضت كل ذلك لأن ذهني في حينها كان واضحاً في أنني لا أستطيع أن أعمل داخل حزب البعث بسبب النفوذ المتزايد لمحور صدام».

وفي حوالى ذلك الوقت كان علاوي قد حصل على درجة الماجستير في علم الأمراض من كلية لندن الجامعة، وكان على وشك إكمال أطروحة الدكتوراه في علم أمراض الروماتزم من مستشفى (كايز). وكان قد بدأ بالالتقاء بشكل منظم مع المنفيين الآخرين إلا أنهم لم يشكلوا بعد في حينها مجموعة معارضة. مع ذلك كان صدام قلقاً بشكل واضح من نشاطاتهم. وقال علاوي: «إن صدام بدأ حقاً بالاعتقاد أننا كنا نشكل جماعة للإطاحة بالنظام».

وبـدءاً من عـام 1975 تم اغتيال العديد مـن أصدقاء إياد علاوي المقربيـن من قبل قتلة يعتقد أن صدام كان قد أرسـلهم لهذه المهمة. وقـد قتل أحدهم في بيروت والآخر قتـل بعد عودته إلى بغداد خلافاً لنصيحـة عـلاوي. سـألت عـلاوي عن سـبب اعتقـاده أن صـدام لم يسـتهدفه بشكل مباشـر فأوضح أن صدام ولسنوات قد حاول إغراءه بالعودة إلى الحزب وأرسـل مبعوثين إلى لندن لأجل هذه الغاية. إلا أنه رفض تلك المحاولات.

عـام 1978 جـاء أخيـراً من يتبعـه. ففـي إحدى الأمسـيات كان عـلاوي وزوجته (اثـور) نائمين فـي بيتهم في إحـدى ضواحي لندن حين دخل رجلان كان أحدهما يحمل فأساً وهاجماه. وقال مستذكراً: «لقد ضرباني على رأسي وصدري وساقي. حتى ظهرت عظام ساقي وكان الـدم في كل مكان. وقد أصيبت زوجتي بشـكل كبير جراء هذا الهجـوم كذلك وهي تحـاول الدفاع عني». وخلال الصراع اسـتطاع علاوي الإمسـاك بالفأس من يد مهاجمـه الذي هرب مع رفيقه. وهنا أصبـح صوت عـلاوي منخفضـاً ومتألماً وذكر أن الحـادث أدى إلى أن تصبـح زوجته تعاني مـن اللوثة العقلية. (عـام 1981 طلق علاوي زوجتـه أثور التي ماتت في السـنة الماضية نتيجة إصابتها بالسـرطان وتزوج ذانا زوجته الثانية عام 1987).

قضـى علاوي قرابة السـنة في المستشـفى يتعافى مـن الاعتداء الذي يعتقد أن صدام قد أمر به. وقضى فترة النقاهة يتساءل عن عمله في السياسـة. قال: «حين كنت راقداً في المستشـفى فكرت مع نفسي هـل يسـتحق الأمر الاسـتمرار في محاربـة صـدام أو لا؟ فقررت أن مصيري ومصير بلدي وكل شـيء أمثله يتطلب مني قطعاً أن أحارب. وفـي اليـوم الـذي غادرت فيـه المستشـفى وكان يـوم خميس ذهبت مباشرة لأرى بعض أصدقائي وأخبرتهم أن علينا أن نتحد الآن وعلينا أن نعمل بنشاط للإطاحة بالنظام».

في أواخر السبعينيات كان علاوي قليل الظهور. فقد عمل كمستشار بدوام جزئي في برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة الذي كان يدير برامج تدريبية طبية في الأقطار النامية. وقد ذهب في مهمات إلى كولومبيا وبنغلاديش من بين عدة أماكن. ومع هذا الغموض المقصود قال علاوي إنه أصبح مهتماً بعالم الأعمال في اليمن ومنطقة الخليج العربي عام 1982. وأشار علي علاوي إلى هذه الفترة بأنها كانت فترة «سبات» بالنسبة إلى ابن عمه وقال إنه لا يعرف حقاً ما كان إياد يرمي إليه. في الأوساط السياسية العراقية كانت هناك حكمة متداولة تقول إن إياد علاوي كان يعمل بشكل وثيق مع جهاز المخابرات البريطاني. وأخبرني أحد السياسيين العراقيين وكان يعرف علاوي لسنوات أن البريطانيين قد عهدوا إليه بصفقات النفط في اليمن ليسمحوا له بجمع المال. وقد أخبرني (وارين ماريك)، وهو ضابط ميداني سابق يعمل مع وكالة المخابرات المركزية وكان يقدم الدعم للجماعات العراقية في المنفى، بأن علاوي كان يمثل رصيداً بالنسبة إلى (ام أي 6) إلى حين أن قدمه البريطانيون إلى الأمريكان في أوائل التسعينيات. وقال (ماريك): «نحن لم نعرفه إلى حين أن قدمه لنا البريطانيون وقالوا لنا إنه كان بعثياً إلى حين أن انضم إلينا». وهنا توقف (ماريك) ليوضح: «انضم إلينا يعني أنه جاء إليهم أي انشق». وقال (ماريك) إنه كان قد سمع شائعات بأن علاوي كان قد عمل كقاتل لصالح صدام في أوروبا وكان يقتل البعثيين الهاربين والخونة قبل انشقاقه وقال: «لا أعتقد أنه كان قاتلاً. بل أعتقد أنه كان من مديرية المخابرات البعثية».

بعد هزيمة صدام في حرب الخليج عام 1991 تبنى علاوي دوراً علنياً أكثر كزعيم لتنظيم جديد هو الوفاق الوطني العراقي. ومنذ ذلك الحين كما يقول علاوي: «فقد كنت أكرس كل وقتي للعراق». إن هدف الوفاق كان الإطاحة بصدام عن طريق انقلاب يقوده البعثيون المنشقون وضباط الجيش. وفي الوقت ذاته كان أحمد الجلبي قد

أسس تنظيماً منافساً وهو تنظيم المؤتمر الوطني العراقي الذي تموله أيضاً وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبالأجندة نفسها. إلا أن استراتيجية الجلبي كانت مختلفة. فباعتباره مناهضاً شديداً للبعثيين فقد دار في مخيلته أن تكون هناك انتفاضة شعبية ضد صدام تكون قاعدتها في شمال العراق حيث كان قد أقام علاقات له مع الميليشيات الكردية.

عام 1991 تمت الموافقة على خطة الجلبي من قبل وكالة المخابرات المركزية وجمع الآلاف من المقاتلين وأغلبهم من الأكراد في شمال العراق. وكانت الخطة عبارة عن كارثة. فقد بعث صدام بقوة مسلحة قامت بذبح المئات من جنود الجلبي. بعد ذلك سحبت وكالة المخابرات المركزية تمويلها من الجلبي.

أما الخطة المنافسة لعلاوي فقد وضعت قيد التنفيذ عام 1996 مع موافقة البيت الأبيض وتمويل وكالة المخابرات المركزية. (وقال خالد الشمري الذي يعمل الآن كمستشار في عالم الأعمال في بغداد إن علاوي أخبره في أواسط التسعينيات أن الوفاق الوطني العراقي قد استلمت ستة وعشرين مليون دولار من الولايات المتحدة). وادعى علاوي أنه أدام الاتصال مع عصبة من ضباط الجيش العراقي ممن يفترض كونهم موالين له. لكن يبدو أن أحداً من هؤلاء قد خانه. ففي حزيران كان صدام قد اكتشف وجود مؤامرة فباشر في الحال بملاحقة وحشية للمتآمرين داخل الجيش. وأعقب ذلك بعمليات إلقاء القبض وتعذيب وإعدام المئات جراء ذلك. وكانت تلك بمثابة نهاية لمحاولات إدارة كلينتون الفاشلة في الإطاحة بصدام.

قال (ماريك): «لدي شكوى من علاوي لعدة أسباب. أولاً بدا علاوي يخبر الناس أن الجلبي لم يعد الشخص الرئيسي لدى الأمريكان بل نحن». هنا ضحك (ماريك) بمرارة: «لقد كان ذلك تحركاً جيداً كما أعتقد بالنسبة إلى سياسي لكن ذلك لا ينفع كثيراً في

توحيد المعارضة. ثانياً إنه لم يقم بشيء جيد في محاولته للانقلاب، أليس كذلك؟». ومضى قائلاً: «إن علاوي لم ينجز الانقلاب الهادئ الذي طلب منه أن يقوم به. لكن ما الذي أنجزه؟ ربما هناك شيء لم أذكره لكن يقيناً أنا لم أر الكثير».

أما عن بقية فترة التسعينيات فيمكن القول إنه بينما كان صدام في السلطة فإن علاوي والجلبي بقيا في المنفى يقومان بتوفير المعلومات الاستخبارية من وكلائهما داخل العراق إلى الحكومتين الأمريكية والبريطانية وانتظار شيء قد يؤدي إلى التغيير. ومباشرة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 بدأت إدارة بوش بالتخطيط للحرب ضد العراق. وظهر الجلبي وعلاوي مرة أخرى إلى السطح كشخصيات بارزة للمعارضة العراقية التي أصبحت فاعلة بشكل مفاجئ.

لقد ساعدت المعلومات الاستخبارية لكليهما على تعزيز قضيتي حكومة بلير وبوش ضد صدام في مستهل الحرب. وكان كثير من هذه المعلومات خاطئة. في الواقع إن الادعاء غير الموثق للحكومة البريطانية والذي تبناه الرئيس بوش بأن صدام وفي خمس وأربعين دقيقة يستطيع أن ينشر أسلحة دمار شامل كان مصدره حركة الوفاق الوطني العراقي. وسببت هذه الحادثة غضباً في بريطانيا. وأوضح متحدث باسم علاوي وهو (نك ثيروس) في ما بعد بأن «الوفاق الوطني العراقي قد سمعت هذا الادعاء من مصدر واحد ومررته إلى المخابرات البريطانية بنية طيبة».

وبخلاف الجلبي الذي أصبح سيئ الصيت في أمريكا لأنه زرع العديد من القصص المشكوك فيها حول برامج أسلحة صدام فإن علاوي قد برز نوعاً ما دون ضرر من سوء المعلومات الاستخبارية. في الربيع الماضي هبطت فرص الجلبي السياسية أكثر بعدما اتهم بتقاسم الأسرار الاستخبارية الأمريكية مع إيران. وقد داهمت

القـوات الأمريكيـة بيته في بغـداد وقطعـت وزارة الدفـاع الأمريكية علاقتها معه. وقبل ذلك بأسـابيع قليلة كان علاوي رئيساً للوزراء في الحكومة الانتقالية.

لقـد كان تعيينه لهـذا المنصب مفاجأة. فعـلاوي كان قد حافظ على مظهر واطئ خلال السـنة الأولى مـن الاحتلال، وكانت صلاته الجيدة مـع المخابـرات البريطانية والأمريكية قد دمرت سـمعته بين العراقييـن. مـع ذلك فقد كانت لـه صلات طويلة مع صناع السياسـة الأمريـكان ممـن كانـوا يثقـون به. وطبقـاً لمـا قاله مسـؤول أمريكي فـي بغـداد كان مطلعـاً على عمليـة الانتخـاب أن عـلاوي كان ينظر إليه كمرشـح بأقـل المسـؤوليات. وقال: «لـم يكن هنـاك الكثير من المرشـحين بصراحـة. وكان من الواضح أن المرشـح تعين أن يكون شـيعياً». لقد أوضح أن الأمريكان شعروا بعدم الراحة من المتنافسين البارزين (سياسيون شـيعة يمثلون أحزاباً دينية مرتبطة مع إيران). في الأخير تم حسم تسمية علاوي حين وافق عليه أعضاء مجلس الحكم العراقي بالإجماع. إن بروز علاوي المفاجئ من الغموض أشـار إلى درجة مؤثرة من الغريزة السياسـية ليسـت أقل مـن معرفة كيف ومتى يجب أن يقدم نفسه كشخص مفيد.

قال المسـؤول الأمريكي في العراق الذي عمل بشكل وثيق مع علاوي خلال السنة الماضية إنه لم يفاجأ من نجاح علاوي. فعلاوي يلعب بأوراقه وهي قريبة من صدره لكن بعد كل شيء هو متآمر بعثي سابق، وهذا بحد ذاته السبب في عدم الاستغراب من أن علاوي ليس ديمقراطياً ليبرالياً. وضحك هذا المسـؤول ثم أضاف: «إنه مدرك أننا شـيء ضروري بالنسـبة للعملية. إنه يمتلك غرائز سياسـية جيدة وأنا أحبه».

أشـار (روبـرت بايـر)، وهـو ضابـط ميدانـي سـابق فـي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في الشـرق الأوسط، إلى أن كثيراً من

ميل الأمريكان إلى علاوي يأتي من شخصيته. فقد قال: «أنا لا أعرف شخصاً لا يحب علاوي. إنه مضياف وبراغماتي. إنه شخص يتحدى الأمريكان بلغتهم ولكن ليس بتبجح».

في الصباح الذي تلا الهجوم على مقر إقامة علاوي كنت أتناول طعام الإفطار مع عادل عبد المهدي وزير المالية. وقبل ساعة من ذلك سمع دوي انفجار عنيف آخر في المدينة (واتضح أنه شاحنة مفخخة قتلت عشرة أشخاص). وعادل عبد المهدي يعتبر سياسياً شيعياً محنكاً كان قد عانى من سلسلة مربكة من التحولات. فقد كان بعثياً في بداية حياته ثم تحول إلى الماوية، والآن هو عضو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي يعتبر أحد أبرز الأحزاب الدينية الشيعية في العراق. إن عبد المهدي كان مرشحاً في انتخابات الثلاثين من كانون الثاني. وهو يبحث عن مقعد في البرلمان كممثل للتحالف العراقي الموحد الذي يتكون من ائتلاف واسع من الأحزاب الشيعية، وقد حظي بمباركة الزعيم الروحي الأكثر نفوذاً في العراق آية الله العظمى السيد علي السيستاني. أما علاوي الذي لم يستطع التعاقد مع أي تحالف من الأحزاب الشيعية الدينية فإنه يمضي لحاله في تحالف جبهة الوفاق العراقية ومجموعة من الأتباع السنّة والشيعة.

رغم أن عبد المهدي وعلاوي هما متنافسان سياسيان حالياً إلا أن عبد المهدي كان صديقاً مقرباً لعلاوي خلال أيام البعث الأولى، وأخبرني أنه لا يزال يكن له الاعتبار كصديق وكرجل طيب. ثم تحدثنا عن الأحداث الأخيرة بما في ذلك حديث علاوي الأخير مع الرئيس بوش. قال عبد المهدي إنه فسر الاتصال الهاتفي لعلاوي بالرئيس بوش على أنه ذريعة لكسب مزيد من الوقت لبناء قوة حزبه. لقد بدأ علاوي قوياً لكنه أنجز أقل مما تصور الآخرون أن بمقدوره إنجازه. وقال عبد المهدي موضحاً إنه كان يتحدث عن إنجاز

عـلاوي كرئيـس وزراء للحكومـة الموقتة وعن ترشـيحه السياسـي. فقد أنجزت حكومته بعض الأشياء في الميدان الأمني. وعندما تسنم المنصب كانت النجف والفلوجة خارج نطاق السيطرة. لكن لا يزال يعيـش الكثيـر مـن الناس فـي وضع أمني قلـق. قال عبـد المهدي إن نقطة الضعف الرئيسـية لـدى علاوي هي عجزه عـن عقد تحالفات. وبالنسـبة إلـى الانتخابات قال إن علـى علاوي صياغـة بطاقة وطنية كان مـن شـأنها أن توحد الائتلافيـن. فعلاوي كما قـال عبد المهدي كان رجلاً معتاداً على المؤامرات أكثر منه على المتاجرات السياسية. فبـدلاً من بناء تحالفات بغير رضا ركز علاوي على مسـاعدة البعثيين السابقين كما قال.

كانت سـلطة الائتـلاف الموقتـة ومباشـرة بعد الإطاحـة بنظام صـدام قد منعت أعضاء حزب البعث وضباط الجيش من احتلال أية مناصب حكومية. وكان مغزى هذه السياسة هو تطهير الجو السياسي العراقـي، لكـن كان لذلـك أيضاً تأثير فـي تأجيج الأعمال المسـلحة وخلق جبهة واسـعة من الرجال العاطلين المسـتائين. ولدى تسـلمه المنصب بدأ علاوي بقلب الموازين. مثلاً وضع خططاً لإعادة بعض حرس الحدود السـابقين. وقد سـمى عبد المهدي تلك الجهود بأنها إعـادة البعـث. وقال عـن علاوي: «حتى عندما شـكل جبهـة الوفاق الوطني فأنا لا أستطيع أن أتذكر أي شخص فيها لم يكن بعثياً. وحتى في أواخر الثمانينيات كان علاوي لا يزال يأمل بتشجيع حزب البعث للإطاحـة بصـدام حسـين... ويعتقـد بعـض الناس بـل وحتى بعض الأمريـكان أن بوسـعهم وضـع حد للأعمال المسـلحة فقـط بإعطاء وظائـف للبعثييـن. لكنـك بحاجـة إلى حكومـة تنظر إلى المسـتقبل وليس حكومة يشـكلها أناس لهـم حنين إلى الماضي. علينا أن نكون واضحين: ذلك هو الخطأ الكبير في السياسة الأمنية».

جاء أحد المسـاعدين إلى الغرفة وسـلم عبـد المهدي ملحوظة

بظـرف أصفر مع شـيء كتب فيه. قرأهـا وقال بصراحـة: «لقد اغتيل محافظ بغداد للتو. اسـمه علي الحيدري». رفـع حاجبيه قليلاً وقال: «شيعي آخر».

اسـتأنف عبـد المهـدي حديثـه وكان مصـراً علـى أن تمضـي الانتخابات حسـب الجدول الزمني المقرر لها. وقال إن المسـلحين يحاولـون الحيلولة دون ذلك بأية وسـيلة، بالاغتيالات والتفجيرات وما إلى ذلك، إلا أن الناس ستكون هناك وهذه رسالة قوية».

في الأسـبوع الأول من شـهر كانون الثاني ذهبت لرؤية علاوي في مقر سـكناه الرسـمي في بغداد. وكان هناك حـراس يرتدون الزي الأسـود ويحملون رشاشات الكلاشينكوف عند المدخل في الطريق المـؤدي إلى بيتـه. وبينمـا انتظر الحـراس التخويل بإدخالـي جعلوا سـائق سـيارتي يتراجع ويوقف سـيارته. وعلى بعد خمسة عشر قدماً رأيت بقعة سـوداء كبيرة على الطريق وبعض آثـار العجلات بالقرب منها. البقعة كانت لسـيارة مفخخة فجر انتحاري نفسه فيها قبل أربعة أيام.

بعـد ذلك تم السـماح لنـا بالمـرور، وكان يرافقنـا بعض رجال الشرطة لنجتاز بعض العوائق الإسمنتية، فأدركت أن الشارع كان أحد الشوارع الكبيرة في السابق والذي يمر بالقرب من متنزّه الزوراء. ولا تزال بعض الألعاب ودولاب الهواء وأراجيح تنتصب خلف السياج. وكان الحشـيش أصفرَ وقد نما بشـكل كبير. أما البيوت على الجانب الآخر من الشـارع فقد كانت فخمـة، إلا أن زجاج العديد من نوافذها قـد تكسـر وتطاير جـراء الانفجار من دون شـك. مررنـا بالقرب من مجمـع مكاتب بخمسـة أدوار مع علامة ضوئية كبيـرة كتبت بالعربية والإنكليزية (الوفاق الوطني العراقي)، ثم اقتربنا بعد ذلك من شـارع مسدود. وبعدما أوقفنا بعض الحراس الخفر العراقيين تم أخذي إلى الأبـواب حيـث مررنا بحراس آخريـن ثم اتجهنا نحـو حديقة جميلة

حيث كان يجلس علاوي في الشمس على كرسي بلاستيكي. كان يرتدي بنطالاً أزرق وقميصاً زيتونياً من الكوردروي. بدا وجهه متعباً لكن عينيه كانتا تومضان. سألني ما إذا كنت أرغب ببعض الشاي أم القهوة وطلب ذلك من اثنتين من الخدم الآسيويات اللتين مرقتا عبر الحديقة نحو المنزل، وهو عبارة عن بناء من الطابوق حديث الطراز في شكله. وكانت طائرات الهيليوكوبتر تأزّ فوقنا وقد سمعت بعض الطلقات في البعيد.

أخبرته أني كنت قد سمعته يصف عمله على أنه «رهيب». فقال موافقاً: «إنه متعب. المسؤولية كبيرة وهي مهمة صعبة لبناء مؤسساتنا من الصفر». علاوة على ذلك ومنذ أن أصبح رئيس وزراء للحكومة الموقتة فقد استطاع رؤية عائلته فقط في بعض المناسبات وخلال زيارات قصيرة كتلك التي قام بها إلى لندن إبان أعياد الميلاد. وحين كان عضواً في مجلس الحكم الموقت حيث كان العراق لا يزال تحت سلطة الائتلاف الموقتة لم يكن يعتبر نفسه هدفاً واضحاً، وقد انتقلت عائلته إلى عمان لتكون قريبة منه كما أشار. لكنه ابتهج وأشار إلى البيت «إن إحدى بناتي هنا معي الآن وهي تقضي العطلة معي لكن عليها المغادرة بعد ذلك في الحال». لقد أخبرني أن لديه ابنتين بعمر السادسة عشرة والخامسة عشرة وابن بعمر الثامنة وجميعهم من زواجه الثاني.

سألت علاوي عن سمعته كرجل «شديد». أومأ برأسه وقال: «هناك عدة أسباب لذلك. فحين كنت شاباً شاركت في عدة أحداث سياسية بما في ذلك انقلاب عام 1968. كما قاومت النظام بشدة حتى عندما أرادوا قتلي. وأنا أتحدث دائماً عن الحاجة لوجود عراق قوي مع جيش قوي ليس هدفه تهديد جيراننا بل الدفاع عن أنفسنا. إن همنا هو إعادة جيشنا واستعادة قدرته وإعادة بناء قدرتنا الاستخبارية». وتفاخر في حديثه عن زياراته إلى النجف خلال القتال في الصيف الماضي: «أنا لا أجبن في وجه التهديدات».

إن عـلاوي مؤدب ومحبوب في أثناء الحديث، وهو ينسـل من المواضيع التي يشـعر أنّهـا غير مريحة ويتجنـب المواجهة ويعبّر عن موافقته متى ما يجد ذلك ممكناً. وقد سألني أحد السياسيين العراقيين مرة بشـكل مجازي بعدما شجبه بقوة وقال إنه غير ثقة ومخادع قائلاً: «ما الشيء اللطيف عن علاوي؟ الحديث معه شيء لطيف».

تحدث علاوي بتفصيل متحمس عن خططه لبناء جيش العراق. وقـال إنه كان يخطط لدمج الحرس الوطني العراقي المشـكل حديثاً مـع الجيش الذي يدربه الأمريكان. وسـتكون حـدود العراق آمنة في الحال كما ادعى ويعود الفضل في ذلك إلى قراره بدعم بعض حرس الحـدود ممن أقصاهم قـرار بريمر باجتثاث البعـث. وأكد أن حرس الحـدود ممن كان يسـتدعيهم كانوا الجناح الأقل تأثراً بالسياسـة في جيش صدام. بل إن وحدات حرس الحدود هي الوحدات التي اعتاد صدام أن يبعث إليها غير المرغوب فيهم».

لقـد أخبرني عادل عبد المهدي ونقـاد آخرون لإعادة البعث أن علاوي كان قد استقدم العديد من الضباط وعناصر المخابرات الذين يقال إنهم ارتكبوا أعمال عنف كثيرة أيام صدام. وقال علاوي بحدة: «أنـا أتحداكـم أن تجدوا في كل النـاس الذين حولي شـخصاً واحداً هـو بعثي أيديولوجي وأن تكون يداه ملطختين بالدماء». وقد تحدث عن رئيس جهاز مخابراته اللواء الشـهواني وهو بعثي سابق انضم إلى قائمة الوفاق الوطني في أواسـط التسـعينيات. بعـد محاولة الجماعة الفاشـلة لتنفيذ الانقلاب ذكرني علاوي بأن أبناء الشهواني الثلاثة قد تـم تنفيذ حكـم الإعدام فيهم من قبل صدام. وقال علاوي إنه مسـتاء جداً من أيـة أقاويل يقذف بها رجل قدم مثل هذه التضحية لمناهضته صدام.

قال علاوي إنه حتى قبل الحرب حينما سـمع أول مرة باجتثاث البعـث فـي العراق فإنه وقف ضـد ذلك بقوة. وقـال إن البرنامج كان

ينبغي أن يسمى اجتثاث الصداميين أي الموالين لصدام حسين، لأن في رأيه أغلب العراقيين الذين كانوا أعضاء في حزب البعث خلال سنوات صدام قد استخدموا ذلك كوسيلة للعيش ووسيلة للحصول والبقاء في الوظائف وغيرها من امتيازات الدولة. وقال إن البعث «انتهى» كأيديولوجية تماماً كما انتهت الماركسية-اللينينية. فقد ولى زمانها. أما بالنسبة إلى البقية من البعث كالنخبوية والسرية واستخدام القوة فإنه لا مجال لذلك بعد الآن. إنه وقت الديمقراطية وحكم القانون».

حين ناقشنا تعذيب وإهانة المحتجزين في سجن أبي غريب من قبل الأمريكان اختار علاوي كلماته بعناية كبيرة وقال: «كما تعرف أن مثل هذه الأمور تحدث وقت الحرب. طبعاً لا ينبغي أن تحدث لكنها تحدث وبوسعك أن تفهم أن المسؤولين عن ذلك يجب أن يحاكموا، لكنك تعرف أيضاً أنه تحت وطأة الحرب وفي غياب العمل القضائي فإن مثل هذه الأمور تحدث. نحن يجب أن نستعيد المؤسسات القضائية بحيث تحول دون حدوث مثل هذه الأشياء. لكننا الآن في وسط الحرب ونحارب الإرهاب. وعقول الإرهابيين مغلقة وهم مصممون على القتل والتدمير ليس فقط هنا في العراق بل في كل العالم. لذا فإن وضع خط للمحققين لا يمكنهم تجاوزه سوف يرميهم في طائلة الأخطاء. فأنت تمسك بمجموعة من المشتبه فيهم وتأخذهم إلى التحقيق. ربما بعضهم مذنب وبعضهم بريء. ففي هذه الحرب المقيتة التي يأتي بها الأشرار يعاني الأبرياء دائماً».

وهنا أشار علاوي بشكل غامض إلى زيارة أخيرة قام بها مع مسؤول عراقي يحتجز بعض المشتبه بضلوعهم بالإرهاب في السجن. واستذكر قائلاً: «رأيت أن هناك ألماً في وجهه وكان بوسعي أن أرى أنه كان عدائياً جداً نحو المحتجزين. لذا طلبت منه أن يهدأ. وفي الواقع أنا رتبت له أن يذهب في إجازة ليأخذ قسطاً من الراحة.

فالعواطف الإنسانية كما تعرف هي أمور لا يمكنك السيطرة عليها». وقال إن ذلك هو السبب الذي عارض فيه زيارة صدام حسين وهو في السجن. «ربما كنت أريد أن أقول له أنت جبان بل وأهينه».

سألته ما إذا كان قد قتل أحداً؟

أجاب: «كلا، أبداً».

هل عذب أحداً أو كان حاضراً عند تعذيب أحد من الناس؟

«كلا» هزّ علاوي رأسه بشدة. وبعد لحظة أضاف: «لكن أن تقتل دفاعاً عن النفس نعم. فقد أصدرت أوامرَ إلى شرطتي بقتل الإرهابيين حين يعجزون عن إلقاء القبض عليهم». وقال إنه غالباً ما عارض التعذيب والقتل وكان ذلك أحد الأشياء التي أبعدته عن صدام. قال علاوي: «إن التعذيب علامة ضعف وليس قوة. وحتى الذهاب ورؤية صدام في السجن مثلاً الآن إذ كان بوسعي أن أقوم بذلك كما فعل الآخرون هو أمر لم أفعله. لم أرد ذلك لأني لا أريد أن استخدم منصبي وسيلة لإهانته أكثر». لقد أوضح أنه لا يتعاطف مع صدام وقال: «لو أن صدام احترم نفسه أو استسلم لكان أفضل، ولكن الطريقة التي أخفى نفسه فيها بعد تدمير البلد وحتى بعدما قتل أبناؤه، لقد أكد لي ذلك أن الرجل هذا مهتم بنفسه فقط، إنه جبان».

لقد ناقش علاوي المفهوم الشائع بين الناس بأنه غير منتم وأنه ربط نفسه بالمصالح الاستخبارية الغربية. قال: «أمثل نفسيً حسب وكنت آخر أعضاء المعارضة في عقد علاقات مع الولايات المتحدة». وشدد على أنه يصارح الأمريكان بالذي يشعر به رغم الدعم الذي حظي به من قبلهم. وأضاف: «كنت الشخص الوحيد الذي تكلم وكتب ضد اجتثاث البعث مثلاً حتى قبل الحرب». وحين علم عن حل الجيش العراقي بعد الحرب فإنه هاجم الفكرة في عدة لقاءات مع القادة السياسيين في الولايات المتحدة والأقطار المجاورة مثل تركيا. وقال: «لقد تحدثت. فأنا دائماً أرى وجود فراغ سيكون خطراً».

فـي يوم السـبت المصادف الثامن مـن كانون الثانـي، كان على علاوي أن يلتقي مع مجموعة من شـيوخ السنّة في المنطقة الخضراء ودعاني لأنضم إليه. أخبرني أن ذلك جزء من جهده الواسع مع السنّة فـي محاولـة منه لتهدئـة زعماء مـن المجتمـع العراقـي معادين جداً للاحتلال الأمريكي. لقد كان البرنامج إشـارة سياسية ذكية. وبتقديم نفسـه إلى السـنّة كشـخصية تحظى بالإجماع وباعتباره صاحب قرار فإنه قد تم تنصيبه كسياسي واختياره لمنصب رئيس الوزراء.

في ذلك المساء أقلني أحد مساعدي علاوي في سيارته إلى بعد عـدة مجمعات عن مكان إقامته. وكان هناك مائة أو أكثر من الشـيوخ يركبـون في أسـطول من الباصـات الصغيـرة، وارتـدى العديد منهم الملابس العربية التقليدية المطرزة والعقال العربي.

ومـع وجـود عـدد كبير من رجـال الأمـن ومن بينهـم الحارس الشـخصي لعـلاوي الـذي سـبق أن رأيته في عمـان، فقـد مضينا في رتـل على الطريق. وضمن عدة مئات من الأقدام جئنا إلى بوابة عالية يحرسـها جنود أمريكان. كنا ندخل المنطقة الخضراء من خلال باب أسود. علق مسـاعد إياد علاوي قائلاً: «ذلك هو مدخل الشخصيات المهمة». سـرنا بالقرب من مقر القيادة القومية السابقة لحزب البعث ووصلنا إلى نقطة سـيطرة يحرسـها جنود أمريكان. وبعدما سـمح لنا بالمـرور صاح أحد الجنود في الطريق بصوت عالٍ على صديق: «إنه حزب البعث قادم». ضحك مساعد علاوي.

وصـل الرتـل إلـى بنايـة مـن عشـر طوابق هـي المقر الرسـمي للحكومة العراقية الموقتة. وكان بعض الحرس من النيبال يحرسـون محيـط المكان، وكان هنـاك بعض الجنود الأمريـكان بعضهم بالزي العسكري وبعضهم بالزي المدني قد وقفوا حول المدخل. سأل أحد الأمريكان نائب المستشـار الأمني لعلاوي مـا إذا كان يجب إخضاع الشيوخ إلى التفتيش الجسدي. قال المستشار: «كلا هؤلاء ضيوفنا». تراجع الأمريكي الذي بدت عليه علامات الشك.

اجتمعنا في قاعة الاجتماعات داخل البناية وجلسنا على الكراسي التي صفت أمام منضدة مزينة. في الصف الأول جلس ثلاثي من رجال الدين السنّة الكبار وهم يرتدون أردية فضفاضة ويعتمرون العمائم. الآخرون كانوا يرتدون الكوفية البيضاء والسوداء. وكان رجل يجلس أمامي يرتدي رداءً من الوبر، وقد ارتدى ثلث الضيوف البدلات الغربية، في حين كان أغلب كبار السن قد صبغوا شعرهم وشواربهم بالأسود تماشياً مع العادة العراقية. وبعد عدة دقائق دخل علاوي وتبع ذلك همس وتحية ودية. ابتسم علاوي وكان يرتدي سترة بليزر إنكليزية. وبعدما حيّا الحضور جلس إلى إحدى الطاولات، وكان بالقرب منه وزير الأمن الوطني قاسم داود. إن داود غالباً ما يرافق علاوي في لقاءاته العامة ونادراً ما يقول أي شيء، وهو يعتبر الذراع الأيمن لعلاوي.

كان المتحدث الأول هو الدكتور عدنان محمد سلمان، وهو رجل دين سنّي يبلغ الثمانين من العمر وأكبر رجل في القاعة عمراً. كان علاوي مراعياً له وقيل لي إنه العراقي المسؤول عن تنظيم الحج السنوي، وهو دور مهم رمزياً في الأوساط الدينية الإسلامية. قال الرجل الكبير إن فكرة المقاومة، وهو المصطلح الذي يستخدمه العديد من السنّة كناية عن المسلحين في العراق، هي فكرة مبررة. وأضاف بأنه يرى أن المجرمين وليس المقاومة هم المسؤولون عن أغلب عمليات الخطف السيئة الصيت. واشتكى من الافتقار إلى الأمن في العراق ومن تجهيز الطاقة الكهربائية الكافية. اليوم الأمر أسوأ مما في السابق. ثم طلب تأجيل الانتخابات. حين انتهى سلمان من حديثه اعتذر لأنه تحدث بشكل فظ وطلب من علاوي ألا يغضب منه. فتظاهر علاوي بالرزانة بسرور.

تحدث رجل آخر وقدم نفسه على أنه عضو في مجلس محافظة صلاح الدين الشمالية التي تضم مدينة تكريت مسقط رأس صدام

حسين. وبدأ حديثه بالقول: «لقد مر العراق بأربعة حروب في الخمس والعشرين سنة الماضية وقلوبهم مجروحة جراء ذلك. الناس حزينون وغاضبون ويعيشون في الظلام ولا يمكنهم أن يروا الضوء... والحكومة بحاجة لأن توضح ما تقوم به وإلى أين تمضي. الناس بحاجة إلى الوظائف». وأشار إلى أنه من غير العدل أن تحمي الشركات الأمنية الأمريكية والأوروبية أنابيب النفط التي تخترق محافظته، وتساءل: «ألا يمكن أن يقوم بذلك العراقيون؟». لقد قال لعلاوي إن الناس في منطقته منقسمون حول قضية الانتخابات: فهناك من يرون أنها مفيدة وهناك من يرون أنها ليست كذلك. وختم حديثه بعبارة «تباً للاحتلال».

ضحك الشيوخ الحضور، إلا أن علاوي لم يضحك معهم. لقد ذهب إلى قاعة استقبال قريبة حيث وضعت منضدة للغداء. وعلى وليمة من الرز واللحم والحمص والزيتون تحدثت مع شيخ من الفلوجة أخبرني لدى سؤالي له عن الأوضاع في منطقته فأجاب: «إنها مدمرة». فقد دمر بيته وبيت شقيقه كما قال. وكان هناك كثير من التوتر بين سكان المنطقة من ناحية والقوات الأمريكية والعراقية من ناحية أخرى. إنه كان يختلف مع قرار علاوي بأمره بالهجوم على الفلوجة في تشرين الثاني لكني حين سألته عما يراه في علاوي قال: «إنّه رجل جيد» كما لو أنه كان يفترض أن ذلك هو ما كنت أريد أن أسمعه. وقد تجنب محاولاتي بأن أكتشف ما إذا كان يخطط لانتخاب علاوي، لكنه قال أخيراً: «نحن نرى فقط مظهر علاوي. لقد التقينا به عدة مرات لكننا لم نعرف ما في داخل قلبه ولا نعرف ما وراء ظهره». لقد رفع يده اليسرى ورأيت أنه فقد ثلاثة أصابع وقال: «لقد فقدت تلك الأصابع كما فقدت ثلاثة أشقاء كانوا يقاتلون في الحرب العراقية الإيرانية. ومع ذلك لم أشعر بالخوف لكني الآن أشعر بالخوف. نحن نخاف من المستقبل».

بعـد الغـداء عـاد الشـيوخ إلـى قاعـة المؤتمـر وقد فتـح الباب الرئيسـي ودخـل (جـون ديميتـري نغروبونتـي)، السـفير الأمريكـي لدى العراق، يتبعه خمسـة سـيناتورات أمريكان وهـم زعيم الأغلبية عن ولاية تينيسـي (بيل فريسـت)، وزعيم الأغلبية عـن ولاية كنتكي (ويـب ميتـش مكونـال)، و(نورم كولمـان) عـن منيسـوتا، و(مايك ديواين) عن أوهايو، و(ماري لاندريو) عن لويزيانا التي كانت العضو الديموقراطـي الوحيـد فـي المجموعة والمـرأة الوحيدة فـي القاعة. حياهم علاوي وقدمهم وأجلس (لانديريو) عن يمينه و(فريست) عن يسـاره من الطاولة التي تواجه الشـيوخ. وتحدث علاوي بالإنكليزية وأخبر السـيناتورات أن الشـيوخ هم من مناطق سـنّية. ثـم تحوّل إلى العربية وشجع الشيوخ على الوقوف وإبداء آرائهم. وقام العديد منهم بذلك بمساعدة اثنين من مساعدي علاوي على الترجمة الفورية .

اشـتكى الرجل الأول من سـلوك القوات الأمريكية وأشـار إلى ميلهـا القيام بعمليات إلقاء القبض العشـوائية وقال إن العراقيين الآن خائفـون حين يسـمعون بالأمريـكان. وطالب بإيجاد فـرص العمل، وأوضح أن العاطلين يسهل تجنيدهم كإرهابيين. فأنصت السيناتورات بانتباه مما أعطى الانطباع بأنهم سارحون في عالم آخر. لقد تجمدت الابتسامة على وجه (لاندريو) رغم أنّهم في بعض الأحيان بدوا غير فاهمين ما يجري بسبب الترجمة.

متحـدث آخر عرف عن نفسـه بأنه كردي مـن الموصل تحدث باقتضـاب وبشـكل متقطع عن التهديـد الايراني للعـراق. المتحدث الثالث قد جعل الآخرين يضحكون حين تحول إلى الإنكليزية وقال: «نحن لا نريد الاحتلال بل نحن نريد التحرير». ابتسـم السـيناتورات بشـكل مـؤدب. ثم بعد حين سـبب صوت قوي نتيجـة انفجار قريب اهتزاز الشبابيك لمدة دقيقة كما لو أن الأمر كان هزة أرضية.

بدا علاوي يشـعر كما لو أن السـيناتورات قد سـمعوا ما يكفي.

فدعا (بيل فريست) للحديث. قدم السيناتور نفسه مع رفاقه الأربعة على أنهم «ممثلون لمائتي وسبعين مليوناً من الأمريكان» ثم قارن ذلك مع الجلسات التي حضرها لتوه مع مجلس الشيوخ حيث يتبادل هو والسيناتورات الآخرون الآراء والمشاعر.

ومضى قائلاً: «إن توقيت الانتخابات هو قرار عراقي. ونحن هنا كي ندعمكم. فنحن نعتقد أنه بالرغم من أنه قراركم فإن توقيت الثلاثين من كانون الثاني للانتخابات هو توقيت مهم. ونحن نعرف أنه قد لا يكون أمراً كاملاً. وهذا هو جزء من الديمقراطية والحرية. لكننا نرى أن هذه الانتخابات هي الخطوة الأولى المهمة في تلك العملية وهي خطوة ستقود إلى التزام أمريكي أكبر بتنمية العراق وبالتربية وفرص العمل التي تريدونها». نهض علاوي بعد ذلك على قدميه وصاحب السيناتورات إلى خارج الغرفة.

ثم عاد من القاعة ليلتقي بممثلين من الموصل وينضم إليهم في محادثات خلف الأبواب المغلقة. إن الموصل التي يبلغ عدد سكانها الثلاثة ملايين نسمة وهي ثاني أكبر مدن العراق، ومنذ هجوم تشرين الثاني على الفلوجة أصبحت المركز الكبير للأعمال المسلحة. فعلى مدار أسبوع كانت هناك شائعات حول خطط لهجوم عسكري أمريكي واسع النطاق على المدينة واعتقدت أن ذلك كان السبب وراء الاجتماع الخاص وراء الأبواب المغلقة. وقد تبع علاوي حوالى عشرين رجلاً إلى القاعة التي قدم فيها الغداء والتي تم تحويلها إلى قاعة مؤتمرات. جلس علاوي على رأس طاولة على شكل حرف (يو) وقد غطيت بشرشف أصفر. وجلس قاسم داود كالعادة بجانبه. وعبر أحد كبار مساعدي علاوي عن قلقه لوجودي، إلا أن علاوي أوضح أن بإمكاني البقاء.

بدأ رجل بالحديث بشكل قوي إلى علاوي حول كيف كانت حركة المقاومة في الموصل مشروعة نوعاً ما طالما أنها تعارض الاحتلال. ووعد بأن العنف سيتوقف لو رحل الأمريكان فقط.

قاطعه علاوي بتحدٍ: «لماذا تقول احتلال؟ من هو المحتل؟ ماذا سيحدث لو رحل الأمريكان؟ وإن رحلوا واستولى الإرهابيون على زمام الأمور فأنت ستكون أول واحد سيطلب من بوش أو أم بوش أن تأتي لتنقذك» وهنا ضحك علاوي.

بدأ رجل آخر بمناقشة علاوي وقال: «للمقاومة عدد كبير من المؤيدين في الموصل». وقال إن المشكلة الرئيسية في الموصل هي قوة الأكراد. «في الموصل نحن نفضل أية قوات أمريكية أو بريطانية أو شخص آخر عدا الأكراد. فالاحتلال في الموصل هو احتلال كردي».

أجاب علاوي: «لدينا فقط بضعة خيارات. أولها هو أن نترك الأمور على حالها، أي نبقى في المشاكل وهذا ليس بالخيار الجيد. الخيار الثاني أن بإمكان الناس في الموصل أن يتصرفوا بشكل جيد مع أنفسهم وإزاء بعضهم. وعند ذاك سيكون هناك أمن واستقرار. لقد ناضلت من أجل الحرية والاستقلال وعرفت ما كنت أحارب من أجله وما كنت أريده. ولكن ماذا تريدون انتم؟ هل تريدون عودة صدام؟ ان صدام يحب هذا القتال الذي يحدث الآن. أما بالنسبة إلى الأمريكان فهذا هو الواقع. نحن لا نستطيع أن نحمي أنفسنا الآن لأننا ضعفاء. لذا فالأمريكان هنا لكي يحمونا. إن عشرة بالمائة فقط من الناس هم الذين يسممون حياة كل شخص هنا ونحن نريد إيقاف هذا السم. نحن لا نريد استخدام القوة لكننا لن نسمح لهذا الوضع بالاستمرار. أنا لدي أصدقاء عديدون في الموصل، أناس نظيفون مثلكم. هل الناس هناك يريدون الوظائف الحكومية؟ إن كان الأمر كذلك فأنا مستعد لأوفرها لهم.

شيخ آخر بدأ بالكلام وكان يحمل إضبارة بلاستيكية أوضح أنها مليئة بأوراق موقعة من قبل عسكريين وعناصر مخابرات أصبحوا بلا وظائف وهم بعبارة أخرى يشعرون أنهم أصبحوا «مستبعدين». أشار

علاوي إلى الإضبارة مبتسماً وقال: «فهل ستعطينني تلك الإضبارة أم هل إنها إضبارة مخابرات؟». وضحك ومعه ضحك الرجال الآخرون من الموصل. ثم وعد الشيخ بإعطائه نسخة عنها. فأجاب علاوي مقتنعاً بالذي سمعه: «حسناً». كما بدا الشيخ مسروراً كما لو أن كلاهما قد عقدا صفقة متبادلة ناجحة مع بعضهما وقال: «هناك سبب مهم جداً آخر وراء تغطية الأمور في الموصل ألا وهو أن عدداً كبيراً من الناس من ضباط الجيش والمخابرات السابقين سيأتون إليك إن أعطيتهم الوظيفة». أومأ علاوي برأسه.

تساءل رجل آخر: «لماذا جئت بنا إلى هنا، لنأكل ونشرب أم لأجل التوصل إلى حلول؟ أنا من سيعطيك الحل، بالنسبة إلى الموصل: إسحب الأمريكان».

أجاب علاوي: «كيف لي ذلك؟».

«قل للأمريكان أن ينسحبوا وأنا أعدك بأني سأجعل كل زعماء العشائر يتقاسمون المدينة إلى قطاعات ويسيطرون على هذا المكان. إني أعدك بأن لا تكون هناك مشاكل بعد ذلك».

ابتسم علاوي لكنه لم يجب. شيخ آخر كان يجلس بالقرب من علاوي قال وبصوت خفيض ودي: «إن سحبتم الأمريكان فلن تجدوا أحداً يسيطر على المدينة».

ضحك الجميع باستثناء الشيخ الذي كان يتحدث. فأجاب علاوي ممازحاً: «حسناً اجلب الشيوخ لي وأنا سأخبر الأمريكان بالانسحاب». ثم ضحك مرة أخرى وضحك معه الرجال الآخرون من الموصل. نهض علاوي ونهض الجميع معه، فقد انتهى الاجتماع.

بعد عدة أيام من لقاء علاوي مع الشيوخ السنّة التقى معي السفير (نغروبونتي) في مكتبه في القصر الجمهوري السابق لصدام داخل المنطقة الخضراء. لقد صادفت فترة (نغروبونتي) في العراق

والتي بدأت مباشـرة بعد رحيل (بول بريمر) في حزيران الماضي مع تسـلم إياد علاوي رئاسـة الـوزراء. وحينما تـم نقل السـيادة العراقية إلى علاوي فإن سـلطة الائتلاف الموقتة قد اسـتبدلت بشكل رسمي بالسـفارة الأمريكيـة. وبخلاف (بريمر) الـذي كان مهيمناً وحاسـماً في العراق خلال الأربعة عشـر شـهراً كرئيس لسطة الائتلاف الموقتة كان (نغروبونتـي) غيـر عنيـد وسـمح لعلاوي فـي أن يصبـح الوجه العـام للاحتلال. لقد أثنى (نغروبونتي) علـى أداء علاوي وقال: «إن جميـع مؤسسـات الدولة قد دمرت أو نهبت عشـية الغـزو ثم أخذت سـلطة الائتلاف الموقتة بزمام الأمور. لكـن لم يكن هناك الكثير مما يسـتطيع علاوي أن يعمل معه حين تسـلم زمام الأمور. فقد كان عليه أن يبنـي الحكومـة وقد بـدأ بعملية بناء الجيش العراقـي الجديد لكن بوتيـرة أبطأ ممـا كان يحب. وعمـل الكثير من أجل اسـتعادة صدقية العـراق مع جيرانه، وقد أدار دبلوماسـية مؤثرة جـداً». ومضى قائلاً: «إنـه يفكر كثيراً بالديمقراطية لكني لاحظت أن هناك خليطاً مهماً بينه لكونـه مناهضاً لصدام وبين الاعتقـاد بأن العراقيين يحتاجون إلى من يحكمهم بيد قوية. إنه يريد حقاً جيشاً قوياً. فهو يعتقد أنه لو كان لديه جيش حقيقي لما حدثت انتفاضة الفلوجة. ولما كان أرسل الدبابات لقمعها».

رغم أن مدة علاوي كانت سـتنتهي رسمياً في نهاية الثلاثين من كانون الثاني، إلا أنه سـيبقى شـخصية مهمة في السياسة العراقية كما قال (نغروبونتي). «أعتقد أنه في الأشـهر الستة الأخيرة أنجز علاوي تحولاً من كونه ثورياً يعيش في المنفى إلى سياسـي وطني. أنا أعتقد يقينـاً أنها الطريقة التي يراه بها العراقيـون أيضاً». مضيفاً: «من المفيد التفكيـر في الكيفية التي سـيكون فيهـا رد فعل الناخبين إزاء سياسـة معينة».

إن العراقيين الذين تحدثت معهم يميلون إلى النظر إلى علاوي

بتحفظ واحترام. ولا أحد يبدو يدعمه بشكل عاطفي وأغلب الناس يشعرون أنهم لا يزالون لا يعرفونه بشكل جيد. إنهم يعتبرونه براغماتياً ماكراً، ورجلاً شديداً ومقتدراً، كان قد أقام معظم علاقاته مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. إن موقف علاوي الجيد مع المسؤولين الأمريكان يعني الكثير بالنسبة إلى أغلب العراقيين الذين تحدثت معهم والذين يعتقدون أن الأمريكان مصممون على وضع علاوي في الحكومة.

(نغروبونتي) استبعد هذه الفكرة وقال: «أليس لدى علاوي الكثير مما يساهم به ؟ نعم أعتقد ذلك بشكل تام. هل هو الوحيد؟ كلا ولكن على العراقيين أن يجدوا هذا الواحد».

أخبرني سياسي عراقي بارز يسعى لأجل مقعد في البرلمان وهو عضو في الائتلاف الشيعي الديني أن الأمريكان كانوا قد تركوا المجال بهدوء للمرشحين البارزين ليعرفوا أن هناك ثلاثة أوضاع ينبغي أن يتوقعوا أن تواجهها الحكومة العراقية المقبلة. قال: «أولاً ينبغي ألا تكون تحت نفوذ إيران. ثانياً يجب ألا تطالب بسحب القوات الأمريكية، وثالثاً يجب ألا تقيم دولة إسلامية». إن ائتلافه الشيعي قد تقدم للفوز بعامة الأصوات في الانتخابات وإن تم ذلك فإنه سيلعب دوراً حاسماً في اختيار الرئيس القادم للبلد. إن المرشح قد فكر بأن الشيعة المنتصرين سيطلبون من علاوي وليس من رجل دين أن يكون رئيس الوزراء.

إن مثل هذه الإشارة قد تساعد على إقناع الأمريكان والسنّة بأن الشيعة لا ينوون إقامة حكم ديني. وقال: «إن بقي إياد في المنصب فإن الأمر يمكن أن يتم على هذه الشاكلة مرة أخرى». وإن ذلك سيجعل الأمريكان سعداء. كما أضاف: «فقد عرف الأمريكان هذا الرجل للخمس والعشرين سنة الماضية. إنهم يريدون شخصاً يعتمدون عليه. إن إياد هو الشيطان الذي يعرفونه».

خلال الحديث الأخير مع علاوي أشرت إلى أنه يبدو مرتاحاً من السلطة التي عهدوا بها إليه. أجاب: «إنه دور يجب أن يكون لنا نحن في العراق. إنها ثقافة. يجب أن تكون قوياً ويجب أن تطرح أفكارك بطريقة قوية، يجب عليك ذلك في مواجهة التحديات والتهديدات. فإن فسحت المجال بأي حال فإن جميع المجتمع سيذهب إلى الدمار. وعندما يتعين عليك التعامل مع الإرهابيين عليك أن تتعامل معهم بطريقة قوية، إذ ليس هناك أي حل وسط». وهنا توقف ثم أوضح: «إن ذلك يعزى إلى خلفيتي. كما تعرف حين تكون دكتوراً في غرفة عمليات وتواجه مريضاً مصاباً فعليك أن تقوم بأفضل قرار وعليك أن تجازف. فليس هناك طريق وسط».

المرشّح

يقول سليل أسرة شيعية مشهورة
إنه لو تم انتخابه فسيكون باستطاعته أن يحكم العراق

عاش طارق عزيز الذي كان مرة مبعوث صدام حسين الأكثر ظهوراً في فيلا مبنية من الطابوق في بغداد على ضفة نهر دجلة مواجهة لمشهد ساحر من الماء وبستان أشجار النخيل على الجانب الآخر، وحيث كان يسكن العديد من جيرانه من كبار الأعضاء في نظام صدام حسين أو من أقرباء صدام. إن مجمع قصر الجادرية الذي يعود إلى عائلة صدام يبعد بضع مئات من الياردات عن ذلك. وكان دار عزيز منبسطاً وواسعاً مع مسبح في الباحة الخلفية لكنه في موقع حساس – فهو قريب جداً من الأعمدة الكونكريتية القبيحة لجسر الجادرية التي تشرف عليه. أما الأرض حول الأعمدة فهي غير مستوية ومليئة بالأزبال مما يجعل زيارة البيت عند الظلام تثير الأعصاب. ولأجل قيادة السيارة على ضفة النهر عليك النزول إلى شارع غير مضاء والقيادة بين الأعمدة ثم تحت متاريس الجسر. ويبدو لي أن الموقع ممتاز لنصب الكمائن، والجسر موقع مثالي لإطلاق القنابل الصاروخية.

إن طارق عزيز محتجز مع أعضاء قياديين آخرين من حكومة صدام حسين – وربما صدام نفسه أيضاً – في سجن تديره الولايات المتحدة قرب مطار بغداد، وأصبح بيته الآن دار إقامة لزعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وهو أكبر تجمع شيعي جيد

التنظيم في البلد. وقبل الحرب كان أعضاء المجلس الأعلى مطاردين وكان يتم تعذيبهم إن قبض عليهم فقد يقتلون أو يسجنون. وأقام أعضاء المجلس في مدن إيرانية مثل طهران وقم، أما مقاتلو المجلس الأعلى فقد عملوا من معسكرات سرية على طول الحدود العراقية الإيرانية.

ومع افتراض إجراء نوع من الانتخابات في العراق هذه السنة، فإن عبد العزيز الحكيم الذي أصبح رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بعد شقيقه آية الله محمد باقر الحكيم الذي اغتيل في شهر آب، له فرصة جيدة في أن يصبح رئيس العراق التالي – إن بقي على قيد الحياة إلى هذه الفترة. فقبل أيام من زيارتي الأخيرة للحكيم في شهر تشرين الأول أطلق أحدهم صاروخاً عليه حين كان في زيارة لإحدى الحسينيات.

الحكيم رجل متزوج وله أربعة أولاد. وحين عاد إلى العراق في أوائل هذه السنة بعد عقدين من النفي في إيران بقيت عائلته في قم، إلا أنها عادت معه الآن ويسكن الجميع في بيت طارق عزيز. أما مساعدوه فيعملون في الطابق الأرضي في غرف متقشفة مؤثثة بمناضد وكراسٍ وليس أكثر من ذلك. وأرضية إحدى الغرف مغطاة بسجادة كبيرة يجلس عليها هؤلاء ويتقاسمون الوجبات ثم ينامون على السجادة لدى انتهاء عملهم.

أما الغرف العلوية حيث يلتقي الحكيم بضيوفه فمزينة بأسلوب ديكور شائع في العراق. فالسجاد فارسي ملون والكراسي مترفة تشبه العرش والأرائك محفورة بشكل باروكي وذات خلفية مذهبة. أخذت إلى غرفة فيها طاولة اجتماعات ضخمة حيث كان الحكيم يترأس نوعاً من مراسيم التخرج لشباب أبلوا بلاءً حسناً في ورشة ما يسمى بـ «الولاء والإسناد».

كان الحكيم الذي ارتدى العمامة السوداء والجلباب الرمادي

الذي هو رداء رجل الدين الشيعي على رأس الطاولة أمام مايكرفون يتحدث ربما إلى مجموعتين من الشباب وامرأة واحدة. كانت المرأة تجلس نحو الخلف في كرسي دفع نحو الحائط. يبدو أنها كانت في العشرينات من عمرها وكانت ترتدي تنورة طويلة وحجاباً. وكان الحكيم يتحدث معهم حول كيف كان الشيعة على مفترق تاريخ مهم كتاريخ ثورة العشرين إثر الانتفاضة العربية ضد المستعمرين البريطانيين التي أدت كما قال إلى سلسلة من القرارات السياسية التي حددت طريقة حكم العراق منذ ذلك الحين. كما أشار إلى الاضطهاد المستمر للشيعة.

إن اضطهاد الشيعة في العراق يمتد إلى عام 1638 على الأقل حينما استولى السلطان العثماني على بغداد. وقد أقيم التشيع كدين لدولة فارس المجاورة في القرن السادس عشر، وقد تحارب العثمانيون السنّة مع الشيعة في مناطق وادي الرافدين لمئات السنين. وأحكم العثمانيون السيطرة حتى الحرب العالمية الأولى، ورغم اعتناق أكثر من نصف السكان للمذهب الشيعي إلا أن السنّة بقوا مهيمنين على شؤون السياسة. وقد ساند الإنكليز هذا التقليد مباشرة بعدما أقاموا دولة العراق عام 1920. فقد نصّبوا ملكاً هاشمياً سنّياً هو فيصل. وعقب الإطاحة بالملكية عام 1958 بقيت السلطة السياسية بيد السنّة مع استثناءات قليلة وإلى حين الإطاحة بصدام حسين في نيسان.

وقال الحكيم مخاطباً الشباب الشيعة الجادين الذين أبلوا جيداً في درس الولاء: «سينظر إليكم الناس كقادة لهم. ونحن قد خطونا خطوة كبيرة إلى الأمام مع تأسيس مجلس الحكم» – وهو هيئة إدارية عراقية مؤلفة من خمسة وعشرين عضواً أقامتها سلطة الائتلاف الموقتة في الصيف الماضي – «الذي وافق عليه شقيقي الراحل آية الله محمد باقر الحكيم رحمه الله. لكن الأمر يعود الآن لنا لاتخاذ

الخطوات التالية لكي تأخذ الأغلبية الديمقراطية» أي الشيعة «مكانهم في المجتمع الذي عوملوا فيه كمواطنين من الدرجة الثانية لأكثر من ألف وأربعمائة سنة». لقد كان يحسب من عام 661 بعد الميلاد حينما تم اغتيال (علي) صهر النبي محمد وخليفته الصحيح حسب الشيعة. وقال الحكيم: «إنها كانت الرغبة الكبيرة لآية الله الراحل أن يكون الأمر على هذه الشاكلة». ثم وقف الجميع وسلم الحكيم شهادات الدبلوم للخريجين الثلاثة الأوائل. الاثنان الأولان كانا شابين أحنيا رأسيهما ليقبلا يده بينما دمدم هو بكلمات الامتنان. الثالثة كانت المرأة التي تقدمت من الحكيم وركعت على الأرض أمام قدميه. عقد الشباب ألسنتهم في الغرفة في عدم الموافقة على هذا العرض وأشار الحكيم إليها لتنهض. وسلمها الدبلوم ثم أسقطت نفسها على الأرض مرة أخرى وطقطق الشباب بألسنتهم مرة أخرى. نهضت وكان وجهها محمراً وأخبرها الحكيم أنها كانت مثالاً محبوباً لدى النساء الشيعيات. ابتسم ولوّح بيده تحية لهم وغادر هو وحراسه الشخصيّون الغرفة.

لقد اقترح المساعد الذي رافقني أن أشاهد الحكيم وهو يمنح مقابلة إلى قناة العربية، وانتظرنا إلى حين قيام فريق التلفزيون بتثبيت المعدات بينما تحشد جماعة الحكيم هناك مرتبين الأثاث وواضعين الأزهار الاصطناعية على طاولات الشاي. جلس الحكيم مقابل ستارة وطرح أسئلة حول الشائعات التي أطلقت عن مقتله وتحدث عن أهمية إعطاء سلطة الحكم إلى العراقيين وكيف يكتبون الدستور. لقد كانت رئاسة مجلس الحكم الحاكم دورية وهي تتغير كل شهر، وكان دور الحكيم أن يكون رئيساً في شهر كانون الأول حين كانت القضية الأكثر إلحاحاً التي تواجه المجلس آنذاك هي كيفية تطابق المطالب المتعارضة للولايات المتحدة ورجال الدين الشيعة حول انتخاب حكومة موقتة.

القضيـة الكبيرة الثانية هي كيفية التعامل مع وضع أمني متدهور فـي العراق. فالحكيـم لا يعتقد أن القوات الأجنبيـة ضرورية. وأخبر المحـاور في قنـاة العربيـة «إن التنظيمات التي قاومـت النظام لعقود هـي الآن ممثلة بمجلـس الحكم. فلدينا الآن مثـلاً منظمة بدر». وقد تشكلت منظمة بدر، وهي الجناح العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسـلامية، عام 1983 بعد فترة قصيـرة من ذهاب عبد العزيز الحكيم وشـقيقه إلى المنفى في إيران. وقد كانـت تدعى فيلق بدر في حينها. وتـم تدريـب أفراد فيلـق بدر من قبـل الحـرس الثـوري للجمهورية الإسـلامية في إيـران وحاربوا إلى جانـب إيران في الحـرب العراقية الإيرانيـة. وإن كلاً مـن المجلس الأعلـى للثورة الإسـلامية والفيلق يحظيـان بدعم الحكومة الإيرانية. في عام 1991 ومباشـرة بعد حرب الخليج حين سـاهم الشيعة في الجنوب في انتفاضة ضد حكم صدام احتـل فيلق بدر مدينـة البصرة لفترة قصيرة ونفذ أعمـالاً انتقامية ضد البعثيين هناك. وقال الحكيم: «إن لديهم التنظيم والخبرة للتعامل مع الوضع الأمني». وقد حاول أن يشـير إلى شـبح الحرب الأهلية على غرار الأسـلوب اللبناني التـي يأتي بها العديد من العراقيين وبشـكل خـاص السـنّة منهم كلما تمت مناقشـة منظمة بدر. وقـال: «حين تتم كتابة الدستور يصبح بالإمكان دمج الميليشيات في القوات المسلحة الوطنية، ونحن بودنا أن نرى عراقاً لا يحمل فيه أفراد الشرطة أسلحة في الشارع».

فـي الليلـة التـي أعقبت قيـام الحكيـم إجـراء المقابلة فـي قناة العربيـة عـدت إلـى الفيـلا. جلـس الحكيم فـي كرسـي مزخرف في إحدى الغرف المؤثثة بشـكل صارخ في الطابق العلوي، وجلست أنا في كرسي مماثل قربه. وقدمت لنا القهوة التركية وجاء أحد الحراس الشـخصيين للحكيـم بولاعة وسـجائر (فهـو لا يدخن علنـاً). وكان يرتدي الحذاء الأسود نفسه ذي الكعب المطاطي الرخيص الذي كان يرتديه في اليوم السابق. إن الحكيم شخصياً غير متباهٍ، فملابسه أنيقة

لكنها غير مترفة وهي مناسبة فقط لشخص هو سيد، أي من أحفاد النبي محمد، وسليل إحدى أعرق العوائل الدينية الشيعية وأعلاها مكانة في العراق. إن لآل الحكيم مكانة خاصة كعائلة للشهداء. أما أفراد العائلة ممن بقوا في العراق في الثمانينيات فقد عوملوا بوحشية خاصة من قبل صدام، فقد تم قتل أكثر من خمسين منهم.

ويتكلم عبد العزيز الحكيم في رتابة صبورة ولا يكشف عن غضبه أو انفعاله علناً. ويبدو مثل قس أو قاض أكثر من كونه سياسياً، رغم أن دوره كان دائماً سياسياً. فوالده الذي توفي عام 1970 كان متورطاً في انتفاضة ضد البريطانيين في العشرينيات، وكان يمثل المرجعية الروحية القيادية في العراق في الستينيات، أي رئيس الحوزة في النجف، وهي مركز التعليم. ويحمل آية الله العظمى علي السيستاني هذا المنصب الآن. إن شقيق عبد العزيز الأكبر قد قتل في المنفى في الخرطوم عام 1988. أما الشقيق الذي قتل في شهر آب وهو آية الله محمد باقر الحكيم فقد كان عالماً دينياً تبنى رغم قراره بالذهاب إلى إيران شعار الخميني بالإسلام السياسي، وأرسل مليشياته لمحاربة العراقيين الآخرين في الحرب العراقية الإيرانية مما أدى إلى إبعاد العديد من الشيعة العراقيين بما في ذلك بعض رجال الدين من زملائه. وكان عبد العزيز المساعد السياسي الاقرب لشقيقه وكان قائداً لفيلق بدر.

في التسعينيات وبعد حرب الخليج انخرط آل الحكيم مع ارتباطاتهم في إيران بمحادثات هادئة مع الولايات المتحدة. وكان حامد البياتي مبعوثهم في لندن الذي يعمل الآن في بغداد مع عبد العزيز هو الدبلوماسي الرئيس لديهم. فالمجلس الأعلى كان من بين التنظيمات التي قدم لها الكونغرس الأمريكي الدعم المالي من خلال قانون تحرير العراق عام 1998. لكن آل الحكيم لم يأخذوا الأموال، إلا أنهم استمروا في علاقاتهم الودية مع حكومة كلينتون

ثـم بعـد ذلك مع حكومة بوش. في شـهر آب 2002 وخلال التسـارع للذهاب إلى الحرب إلى العراق زار عبد العزيز واشـنطن حيث التقى بنائب الرئيس تشيني ووزير الدفاع رامسفيلد. لقد عارض آل الحكيم الغزو الأمريكي إذ كانت لديهم خططهم لتغيير النظام وإنهم أوضحوا موقفهم بعدم التدخل. في شـباط وقبل شهر من بدء الحرب أقام أكثر مـن ألف مقاتل من بدر قاعدة في كردسـتان العـراق. ولم تكن وزارة الدفـاع الأمريكية مسـرورة لذلـك وحذرت أنه في حـال وجدت فيه مقاتلي بدر في الميدان مع أسلحتهم فإنها ستعتبرهم قوة معادية.

وحين عاد الشـقيقان آل الحكيـم إلى العراق في الربيع الماضي تبنيا سياسـة عدم المواجهة مع قوات التحالف وساعدا على استقرار المناطـق الشـيعية فـي جنـوب العراق. وقـد مثل عبـد العزيـز مقعد المجلـس الأعلـى للثورة الإسـلامية في مجلس الحكم واسـتمر في معالجـة أغلب المفاوضات مع الأمريكان. واسـتأنف آيـة الله حياته كرجـل ديـن في النجـف وكان يـؤم الصلاة أيـام الجمعة فـي ضريح الإمـام علي. فـي 29 آب انفجرت سـيارتان ملغومتان خارج الضريح وقتلت آية الله وحوالى خمسـة وثمانين آخرين. وكانت تلك الحادثة الأكبر من حيث القتل الجماعي منذ نهاية الحرب.

وبعـد اغتيـال شـقيقه بـدأ عبد العزيـز بتأكيـد مواقفه السياسـية بشـكل علني أكثـر وأقوى. فقد أنحـى باللائمة علناً علـى الأمريكان لسـوء الأوضاع في العراق التـي جعلت من عمليـة الاغتيال ممكنة، وقـد جاء برجاله من فيلق بدر في اسـتعراض قوة حول النجف. وفي تشـرين الأول بعد أن قصفت إسـرائيل ما ادعي بأنه معسـكر تدريب للجهاد الإسلامي في سوريا، سافر عبد العزيز إلى دمشق حيث التقى ببشار الأسد وأعلن أن أي هجوم من قبل إسرائيل ضد سوريا سيعتبر هجومـاً ضد العـراق. كما أخذ عبـد العزيز جانب القـادة الأكراد في معارضتهم للخطة الأمريكية بإرسال قوات تركية إلى العراق.

في تلك الليلة في منزل طارق عزيز القديم قال الحكيم إنه آسف لعدم قدرته «بسبب الظروف الأمنية» على الظهور علناً بصورة أكثر. فقد قال ممازحاً ومشيراً إلى هجوم بصاروخ مؤخراً: «لقد أصبح من الصعب حتى أداء الصلاة» كما ترجم ذلك أحد مساعديه.

سألته: «هل تصورت حين التقينا لأول مرة أن الأمور ستكون على هذه الشاكلة؟». لقد تحدثنا في طهران قبل شهرين من غزو الولايات المتحدة للعراق. فأجاب أنه كان يقول دائماً إنه ستكون هناك مشاكل إن احتل الأمريكان البلد: «الشعب العراقي لم يكن يتوقع أن تكون الولايات المتحدة هنا بهذه الطريقة. فقد كنت أرغب أن تكونوا معنا حينما دخلنا أول مرة إلى العراق وترون كيف استطعنا السيطرة على العديد من المدن وحافظنا على الأمن خلال تلك الأيام».

جاء الحكيم مرة أخرى بمنظمة بدر مدعياً أن مئات الآلاف من الرجال قد نزلوا إلى الشوارع في الخريف الماضي لتأبين شقيقه. وقال: «إن هؤلاء الرجال أيديهم مقيدة وإنهم لم يعطوا الفرصة للعمل». وقال إنه وعدد آخر من أعضاء مجلس الحكم – بما في ذلك جلال الطالباني زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني المقرب منه – قد قدموا ميليشياتهم كبديل للقوات الأمريكية. وقال: «كل ما قلناه هو امنحونا الفرصة، ولماذا يقتل عدد أكثر من مواطنيكم إن كان العراقيون راغبين في القيام بذلك».

قال الحكيم إن العراقيين كانت لديهم مشكلتان رئيستان مع الأمريكان: الأولى، أن لبعضهم صورة عنا ليست واقعية، والثانية، أن بعضهم لم يفهم السلوك الحضاري والاجتماعي لشعب العراق. فهناك افتقار للمعرفة عنا. لكن شيئاً فشيئاً بدأ الأمريكان في رؤية الضوء. وقال: «في لقاءاتنا مع المسؤولين الأمريكان وجد الكثيرون أن الواقع مختلف عما تصوروه في البداية». وهنا توقف وأعتقد أني رأيت ابتسامة.

إن القلق الكبير لدى الولايات المتحدة حول الشيعة العراقيين هو أنهم قد يتحولون كثيراً مثل الشيعة المتشددين في إيران. فقد كان ذلك في ذهن جورج بوش الأول عام 1991 حينما لم يتدخل لوقف مذابح صدام للشيعة الذين ثاروا ضد حرب الخليج. ويقول مسؤولو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية إنه في الوقت الذي يدينون فيه بالفضل للإيرانيين لأنهم قدموا لهم الحماية والدعم في الثمانينيات والتسعينيات، إلا أنهم الآن مستقلون عن طهران وتراجعت آمالهم عن الثورة الإسلامية في العراق. لكن الحكيم لا يزال له صلات ودية مع إيران. ففي كانون الأول حينما رفع رئيس مجلس الحكم قضية تعويضات الحرب العراقية الإيرانية (حيث كانت إيران تريد مائة مليار دولار) فقد دعمها. إلا أن الدليل على اعتدال الحكيم وبراغماتيته هو تعاون المجلس الأعلى للثورة الإسلامية مع سلطة الائتلاف الموقتة. وقال لي ضابط مخابرات أردني سابق مؤخراً: «لو أراد الشيعة لأحرقوا الشرق الأوسط برمته، إلا أنهم سيقومون بذلك فقط إن شعروا بالتهديد».

ورغم التاريخ الطويل من العداء بين السنّة والشيعة إلا أن الطائفية لم تكن القوة المنظمة المركزية في المجتمع العراقي في الوقت الحديث. فإلى وقت متأخر يعرف أغلب العراقيين أنفسهم بالقومية أو العشيرة أو بما يعيشون فيه من مجتمع حضري أو ريفي أو بالواقع الإيديولوجي الذي ليس بالضرورة دينياً. إلا أن الانقسامات الطائفية قد أدخلت عنوة خلال نظام صدام لأن البعثيين قد اضطهدوا المجاميع السياسية التي كانت شيعية حتى وإن كانت ثانوية ولأن الشيعة عانوا خلال حرب صدام مع رفاقهم في الدين من إيران. في الثمانينيات أعدم صدام آلاف الشيعة. كما أن مئات الألوف قد اتهموا بكونهم من التبعية الإيرانية وتم ترحيلهم عنوة إلى إيران.

أصبح الدين في شكله المؤسساتي أكثر أهمية في الأسابيع التي

أعقبت سقوط صدام. فقد كان هناك فراغ مفاجئ في السلطة وقد تم ملؤه من قبل المنظمات الشيعية التي كان بوسعها أن تتعامل مع القضايا العملية، بينما كان الأمريكان يتخبطون محاولين الحصول على مأربهم. أما القوات الموالية للزعيم الشيعي الشاب المتطرف مقتدى الصدر فقد سيطرت بسرعة على منطقة شاسعة شمال شرق بغداد تعرف بمدينة صدام. وقد أقاموا سيطرات في الشوارع واستولوا على المستشفيات وأعادوا تسمية المنطقة باسم مدينة الصدر تخليداً لاسم والد مقتدى الذي كان آية الله والذي اغتيل على الأرجح بأوامر من صدام قبل عدة سنوات، وبقوا يتمتعون بالسيطرة الفعلية هناك إلى الوقت الحاضر. فجيش المهدي أو جيش الله هم مجاميع غير مدربة من الشباب الرعاع الذين دعموا قوة الصدر في أجزاء من جنوب العراق. وتحرك مقاتلو الحكيم من منظمة بدر واحتلوا عدة مدن شمال شرق بغداد وحاربوا الموالين لصدام في مدينة بعقوبة. وقد وصلت قوة طوارئ من البحرية الأمريكية إلى المنطقة بعد عدة أسابيع وجرت مناوشات طفيفة مع قوات بدر قبل أن تستعيد هذه القوة السيطرة على بعقوبة. ومع المحافظة على ظهور قليل، فقد بقي أفراد منظمة بدر في عدة مدن رئيسية أخرى على طول الحدود وفي بغداد وفي بعض المناطق المتعددة في الجنوب.

إن إحدى أكبر الفصائل لمنظمة بدر للتطوير والإعمار وهو الاسم الرسمي لميليشيا الحكيم الآن تعمل بعيداً من مقر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في البصرة وفي منطقة الائتلاف التي تديرها القوات البريطانية. وبعد أيام قليلة من تحدثي مع الحكيم سافرت إلى البصرة مع سائق ومترجم اسمه سلام وكان الجو غائماً رطباً. وحين غادرنا بغداد علقنا في زحمة مرورية لمدة ساعة بالقرب من وحدة سيطرة أمريكية تعج بأمريكان مدنيين مسلحين ربما من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أو القوات الخاصة. وكان الرجال والأطفال العراقيون يمشون من سيارة إلى سيارة ويبيعون الموز

بعلامة تشيكيتا. فاشترينا بعض الموز، وحين أكلت واحدة أخذ سلام قشر الموزة ورماه من السيارة. وقال: «لا تهتم يا سيد جون هذا هو العراق الجديد». نظرت من النافذة ورأيت قشور الموز في كل مكان.

سرنا بالسيارة نحو الجنوب لمدة ست ساعات، وعندما اقتربنا من البصرة بعد الظهر رأينا شاحنة كبيرة تشتعل فيها النيران على الجانب الآخر من الطريق حيث كانت ألسنة اللهب تلتهم جسم الشاحنة بالكامل. كان عدة رجال يتراكضون حول الشاحنة ويبدون مهتاجين. وقد مرّ رتل من الجنود البريطانيين في تلك اللحظة ولم يتوقفوا كما لم نتوقف نحن.

لعدة قرون كان الزوار يمتدحون سحر البصرة وجمالها. فقد كتب الرحالة العربي ابن بطوطة في القرن الرابع عشر عن البيئة الحضرية للمدينة وعن ساحاتها الأنيقة وبساتينها المثمرة، إلا أن ذلك كان قبل وقت طويل، غير أن البصرة استطاعت أن تستبقي سحرها حتى القرن العشرين. ففي أوائل الثلاثينيات وصفت (فريا ستارك) المدينة على أنها واحة رومانسية ترعرعت «تحت أشجار النخيل وانسابت ناعمة ومخملية كالقطيفة الخضراء». وبعد عشرين سنة أخرى كانت كتيبات الدليل لا تزال تشير إلى البصرة على أنها بندقية الشرق. إلا أنها لم تعد كذلك. فالبصرة اليوم هي عبارة عن حي فقير كبير أجرد ليس فيه أشجار وفيها مساحات واسعة تملؤها الأزبال، والمظهر الأكثر بروزاً في مركز المدينة هو حفرة تفيض منها مياه المجاري. ويشير السكان المحليون بامتعاض إلى أن الكثير من بساتين النخيل الأسطورية في البصرة قد قطعت أثناء الحرب العراقية الإيرانية. فقد قصفت المدينة مراراً خلال الصراع الذي دام منذ عام 1980 حتى عام 1988، وقد قصفت البصرة في حرب الخليج الأولى ثم مزقت إرباً في الانتفاضة الشيعية التي أعقبت ذلك. وفي السنوات

الاثنتي عشرة التالية ضعفت هذه المدينة (مع بقية العراق) تحت وطأة حصار الأمم المتحدة. فقد هوجمت لعدة مرات من قبل الطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية، كما عوقبت أكثر عن طريق سياسة الإهمال المقصود من قبل نظام صدام. وخلال الحرب في الربيع الماضي قصفت المدينة مرة أخرى، وكان هناك بعض القتال بين القوات البريطانية وقوات صدام. وحين اختفى المدافعون البعثيون نهبت البصرة من قبل الغوغاء.

لقد كانت المدينة هادئة نوعاً ما إلى وقت متأخر حين نزل عشرات الألوف من الشيعة إلى الشوارع احتجاجاً على خطط التحالف بشأن الانتخابات. ومع ذلك فقد كانت هناك هجمات قليلة نسبياً ضد القوات البريطانية التي أصبحت مسؤولة هناك. فالبريطانيون ظاهرون إلا أنهم حافظوا على وجود أكثر استرخاء من نظرائهم الأمريكان في شمال المدينة، وعادة ما كانوا يسافرون في أرتال صغيرة من عجلتين أو ثلاث وحتى بدون خوذ أو سترات واقية. على أية حال هناك عنف كبير تحت السطح وأغلبه كان إجرامياً. وفي ليلتي الأولى في المدينة سمعت إطلاق نار فخرجت إلى الشرفة الصغيرة من غرفة الفندق الذي نزلت فيه لأرى ما يحدث. لقد كانت المدينة مظللة بالسواد لأن تجهيز الكهرباء كان أسوأ مما هو عليه في بغداد، لكن بوسعي أن أرى بعض الطلقات التنويرية تخرق عباب السماء وأسمع دوي معركة بالأسلحة يجري على مبعدة ثلاث أبنية إلى يساري. ثم كان هناك إطلاق نار في الاتجاه الآخر وأصبح مسير السيارات مرئياً. فقد كان السائقون يطلقون مزامير سياراتهم والرجال يلوحون بالأسلحة ويطلقون النار عشوائياً من النوافذ المفتوحة للسيارات، فأدركت أن ذلك كان حفلة عرس.

في الصباح التالي استفسر سلام عن إطلاق النار الغامض وعاد بقصة مربكة حول انتقام فخذ عشيرة من أحد رجال الأمن كان قد

قتـل أحد أبنائهم وكان سـارقاً. وكانت هذه العشـيرة تطلق النار على المناطق المجاورة كما قال، وقد قتل العديد من الناس. بعد فترة قليلة مـن ذلك الصباح وبينما كنت أقف في الشـارع متحدثاً بهاتفي النقال (الثريـا) مـع زوجتي فـي إنكلترا، رأيـت ثلاثة أو أربعة مسـلحين من إحدى الميليشيات الإسلامية في البصرة وهم يدخلون إلى دار قريب باحثيـن على ما يبدو عن مسـؤول بعثي سـابق. سـمعت طلقة وغادر المسـلحون الدار مع شـقيق المسـؤول حيث قرروا كما يبدو خطفه. وتجمع حشد من الناس حول البيت وسارت ثلاث عجلات عسكرية بريطانية ببطء بالقرب من ذلك من دون أن يخرج أحد للاستفسار.

يقـع مقـر المجلـس الأعلى للثـورة الإسـلامية فـي البصرة في شـارع مغلق في منطقـة مجاورة من البيوت الواسـعة القبيحة المظهر الملبسـة بالآجر. ويحتل المجلس الأعلى بيتاً يعود إلى مسؤول بعثي هـرب من المدينة حين دخلهـا البريطانيون. ويقوم على حماية البيت عدد من الشـباب يحملون أسـلحة أوتوماتيكية حيث لم يسمحوا لي بالاقتـراب من المكان إلى حين أن قمـت بالاتصال ببغداد وتحدثت مـع أحـد مسـاعدي عبـد العزيـز الحكيم علـى الهاتف. لقـد أوضح للحرس أني كنت ضيفاً لدى سـماحته كمـا يعرف الحكيم عادة لدى أتباعـه فسـمحوا لي بالدخـول. وقـد قادوني نحو مكتـب صغير غير مرتـب كان يعج بالذباب والأقدام المتعرقـة. إذ من العادة في العراق خلـع الأحذية قبل الدخول إلى الدار، وكان العديد من الرجال يأتون ويذهبون بجواربهم.

اعتذر مسـؤول في بدر لعدم التقائه بي في الفندق حين وصلت إلى المدينة. فقد كان يتعامل مع قنبلة وضعت في سـيارة خارج مبنى وزارة التربية كما قال. ثم كان عليه إلقاء الضوء على هذه المشكلة على محطة التلفزيون التـي تديرها قوات التحالف في البصرة حيث أطلق رئيس البرامج أحد المذيعين العراقيين ليستفسـر عن سياساته. وكان

مـن الواضـح أنه يميل إلى جانب المذيع. قـال: «إنهم يضعون برامج تصور نسـاء مغريات وأشـياء أخرى غيـر صحيحة بالنسـبة للعوائل. فالعديد من الناس يأتون إلى هنا ويسألوننا عما يحدث في التلفزيون. فالمواطنون كما تعرف يأتون إلينا بكل مشـكلة لديهم. ونحن نتوسط بينهم وبين قوات التحالف حول الأمن وكل شيء آخر».

إن مواكبة الخطوط الغامضة للسـلطة كانت دائماً مسـألة شائكة بالنسـبة إلى المجلس الأعلى للثورة الإسـلامية. فقد اشـتكى السـيد حسين الحسيني وهو رجل دين ملتح ويرتدي العمامة السوداء والرداء الأسـود أنه «حين يريد البريطانيون القرار بشـأن القيام بشيء ما فإنهم يقومـون بذلـك على الفـور بدون استشـارتنا». ثم كانـت هناك قضية الأمـوال. وادعى الحسـيني «أن الأمريـكان والبريطانييـن لا يقدمون الأمـوال للبرامج الاجتماعية – فقط في حالة قيام الأمريكان بتدريب الشـرطة – لكـي يتم القيام بأي شـيء مـن قبل الناس أنفسـهم. نحن نعمـل إلا أن الأمـر مجرد لعب حيـن يكون الأمريـكان والبريطانيون معنييـن، وكأن العراق جهـاز تلفزيون والأمريـكان والبريطانيين هما جهاز التحكم عن بعد له».

إن قوات التحالف ليست الفئة الوحيدة التي لها أجندة. بل هناك حزب الدعوة، وهو حزب شيعي تم تأسيسه في أواخر الخمسينيات، وكذلـك أتبـاع مقتدى الصدر الزعيم الشـيعي الشـاب الـذي يحمل أفـكاراً أكثر تطرفاً مـن الحكيم.ثم هنـاك الحزب الشـيوعي العراقي المحـرم سـابقاً، ناهيـك عن حزب ثـأر اللـه، وهي جماعة إسـلامية أقامـت مكاتب لهـا في البصرة مؤخرا. (ويشـك فـي أن هذا الحزب ينفـذ عمليات قتل انتقامـي ضد البعثيين وقد هوجمـت مكاتبهم بعد فترة قليلة من مغادرتي). وقال الحسـيني: «إن الجميع لديهم آراؤهم التي تختلف عن آراء حزبنا وهي لا تتفق معنا».

إن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية يقدم تنوعاً من الخدمات

الاجتماعية للشيعة في جنوب العراق. فرشيد أبو أحمد وهو رجل خجول ملتح في أواسط الثلاثينات جلس في غرفة على سجادة وأخذ يطقطق بمسبحة صلاة ملونة يبدو غير مدرك لدوره حتى ذكرته بأن عبد العزيز الحكيم كان قد خول لنا اللقاء، ثم أوضح أنه المشرف على نشاطات بدر في المنطقة. وقال إن هذه النشاطات تنطوي على «كل جانب من الحياة بما في ذلك توفير الأمن كرجال شرطة إضافيين على الرغم من أنه تم تجريدنا من السلاح». (في مايس أخبر بول بريمر المسؤول الإداري الأمريكي لسلطة التحالف الموقتة الميليشيات بضرورة نزع السلاح، ويبدو أن هناك اتّفاقاً ضمنيّاً على تجاوز حقيقة أنهم قاموا بذلك).

وعدد رشيد النشاطات التي قام بها رجال بدر التي شملت أعمال الشرطة في حقول النفط المحيطة وتوفير الأمن للمعامل المحلية التي قد تتعرض إلى النهب والقيام بالدوريات على طول شط العرب، وهي القناة المائية التي تكونت نتيجة التقاء نهري دجلة والفرات التي تشكل الحدود بين العراق وإيران لأن شط العرب يسير قرب البصرة نحو الخليج العربي. وقال رشيد متفاخراً: «فقد ألقينا القبض مؤخراً على اثنين وأربعين طناً من السكر المسروق وأربع سفن تحمل الزيت المسروق، كما وجدنا وأعدنا العديد من السيارات المسروقة إلى دوائر الدولة. لذا أعتقد أن بدر أصبحت مشهورة». وقال إن مهندسي بدر كانوا يساعدون على استعادة تجهيز الماء والكهرباء إلى المناطق المدنية المجاورة.

سألت رشيد عن مقترح الحكيم إلى قوات التحالف بأن يأخذ مقاتلو بدر وحلفاؤهم من البيشمركة مسؤولية حملة قوة الطوارئ من الأمريكان.

قال: «أعتقد أن بوسعنا القيام بذلك. إن بإمكاننا ضمان الأمن في العراق ولن تسمع طلقة واحدة. بعض الأحزاب السياسية

الأخرى سوف تتعاون معنا، ومعاً سيكون بمقدورنا التخلص من البعثيين خلال يوم واحد، إذ يمكننا القيام بذلك بسهولة، ويمكننا أن نعمل الآن ضدهم، لكن قوات التحالف لا تسمح لنا بالقيام بذلك».

حين ذكرت أن البعثيين يتم اغتيالهم على طول الوقت في البصرة ابتسم رشيد وقال: «إن الله يعاقب المسيئين لكي يعيش الناس بسلام».

لقد رتب لي رشيد أبو أحمد زيارة مركز بدر في الفاو، وهي مدينة صيد تبعد خمسين ميلاً جنوب شرق البصرة قرب مصب شط العرب. لقد أخذني إلى هناك رجل طويل محبوب يدعو نفسه الشيخ سمير. وكان الشيخ غامضاً مثل جميع رجال بدر الذين التقيتهم وكل ما حصلت منه عن حياته – في نسخة مترجمة من قبل سلام – هي أنه كان مدرّس رياضيات وقد أجبر على الهرب إلى إيران عقب انتفاضة الشيعة المجهضة عام 1991 في الجنوب.

إن شبه جزيرة الفاو كانت مسرحاً لأعنف المعارك الدموية في الحرب العراقية الإيرانية حيث مات الآلاف من العراقيين والإيرانيين. وقد كان حوالى ثلث شبه جزيرة الفاو محتلاً من قبل الجنود الإيرانيين حتى استطاع صدام الذي استخدم معلومات الأقمار الصناعية التي قدمتها له الولايات المتحدة والغاز السام على إخراجهم منها. وقدنا السيارة عبر المناطق المدمرة والممزقة بالأشكال غير الطبيعية من حفر كبيرة وثقوب بالأرض حفرت كمصائد للدبابات ومواضع المدفعية والخنادق الدفاعية التي تمتد إلى أميال. لم يكن هناك لا ناس ولا حيوانات ولا حتى شجر.

بعد خمسة أميال مررنا قرب العديد من المظليين البريطانيين الذين كانوا يشرفون على عدد من رجال الشرطة العراقية تحت التدريب وهم يرتدون بدلات الخاكي. وحين اقتربنا قال الشيخ: «هؤلاء هم رجالي» وأومأ إلى العراقيين الذين كانوا يفتشون السيارات

التي أوقفوها. وقفنا في الطريق بينما فتش اثنان من العراقيين سيارتنا – التي كانت عبارة عن شاحنة بيك أب جديدة مع صفين من المقاعد – مهتمين بإبداء الاحترام للشيخ الذي بدأ بأخذ الصور لهم.

وعلى مسافة خمسة أميال أكثر على الطريق، كان هناك نصب كبير عن الحرب. فبينما قدنا السيارة ظهر عدة رجال وبدأوا بالصياح والتلويح إلينا. أوقف الشيخ السيارة ووضع عتلة التروس على الإرجاع وقال لي بالإنكليزية: «بدر. رجالنا». ركضوا نحونا وقبلوا الشيخ ثم ركبوا في الشاحنة التي أوقفوها وراء النصب وتبعونا في بقية الطريق إلى الفاو. لقد لاحظت أن العديد منهم كانوا يحملون مسدسات وأسلحة أخرى يخفونها في ملابسهم.

إن مدينة الفاو هي مدينة من الإسمنت والطين يقطنها ما يقرب من ثلاثين ألف شخص وتحيط بها الصحراء من جانب وشط العرب من جانب آخر. في مكتب بدر وهو مجمع بناء اصفر اللون على حافة المدينة تم استقبالي بحرارة من قبل رئيس مركز بدر شريف أبو حسن الذي دعاني إلى مكتبه، وهو عبارة عن غرفة صغيرة مظلمة مؤثثة بطاولة وكراس ذات نابض مكسور. أما الجدران فقد بنيت بالطابوق ولعل الديكور الوحيد كان عبارة عن سجادة صلاة معلقة على الجدار رسم عليها صورة محاكة للشهيد الحكيم.

لقد ولد شريف وترعرع في الفاو كما قال، وقد اختفى في الثمانينيات خلال الحرب العراقية الإيرانية إلا أنه ساهم في انتفاضة عام 1991 عقب ما أسماه بـ «حرب الكويت». ومثل العديد من الشيعة العراقيين فقد هرب إلى إيران. وكان قد انضمَّ إلى لواء بدر هناك وكان قد عاش في مدينة قم المقدسة حيث يقيم آل الحكيم، ولكنه كان يدخل ويخرج من العراق في عدة مناسبات ليقوم بعمل سري للمنظمة.

قاطعنا الشيخ سمير الذي كان يجلس بهدوء قربنا قائلاً: «أريه

جراحك». وبدا شـريف مرتبكاً قليلاً فدفع بيده اليسرى التي أصيبت بتلف العصب وأراني ساقه حيث لا تزال شظية قنبلة في ساقه.

قال شريف: «أنا الآن مسؤول بدر في شبه جزيرة الفاو وعملي هو مساعدة الناس الذين يعيشون هنا وأغلبهم من الصيادين والفلاحين». وذكـر كيـف تم إلقـاء القبض علـى عـدة زوارق كانت تهـرب النفط وكذلـك إلقـاء القبض على سـفينة كان على متنها سـتمائة رأس غنم مسروق، إضافة إلى إلقاء القبض على أشخاص كانوا يحاولون سرقة أسلاك الطاقة الكهربائية. سألته عن علاقة رجاله بالجنود البريطانيين فعبـس وجهه. لقد كان هناك موقع عسـكري بريطاني صغير في الفاو ليس ببعيد كما قال «لكن هناك فقط خمسـة وعشـرين بريطانياً وليس لدينـا أية علاقات معهم بل فقط المشـاكل. إنهـم لا يثقون بالأحزاب الإسلامية وأعطوا لعدد قليل منا فقط الرخصة لحمل السلاح». ولهذا السـبب كما أوضـح فإن رجاله كانوا ينتظروننـا مختفين وراء النصب على الطريق الصحراوي، لهذا السبب أيضاً كانوا يخفون أسلحتهم.

قـال شـريف: «نحـن الوحيديـن الذين نقـوم بأعمال الشـرطة. فلـو كانت هناك سـرقة سـيارة أو خطف فـإن البريطانييـن لا يقومون بـأي شـيء – بـل إن بدر هي التي تقـوم بذلك». كمـا كان هناك مركز شـرطة الفـاو وفيه رجال شـرطة عراقيّون كما قال، إلا أنـه كان يتعين على جماعة بدر مسـاعدتهم. وقال: «إنهم يعملون دائماً معنا. فلدينا جميع الأضابير الاستخبارية عن كل واحد هنا». لقد كانت العلاقات مع الشـرطة جيدة ليس لمجرد أن بعض رجال الشرطة هم أعضاء في منظمة بدر.

وبينمـا كان رجـال شـريف يعدون الغـداء أخذني إلـى الميناء، وهـو مرفـأ صغيـر طينـي ملـيء بالقـوارب المسـطحة. وكان الهواء مشبعاً برائحة البحر غير النتنة ورائحة الأسماك المجففة. إن الجانب العراقي من شـط العرب مليء بونشـات التحميل التي تشبه مجموعة

عضلات. بينما سحبت زوارق الصيد إلى ضفة القناة أو استقرت في مسافن بدائية. وقد بنيت مثل السفن العربية القديمة (الدحوس) مع ساريات مائلة وقيدومات مدببة. وقد زينت جميع الزوارق بالرايات الخضراء والسوداء الشيعية.

كانت إيران عبر النهر ربما على مسافة ثلاثمائة ياردة، وكان بوسعي أن أرى النقطة الحدودية مع أبنية لشرطة الجمارك وطريقاً معبداً ومصابيح قوية على أبراج عالية. وتمتد الأهوار الرائقة مثل تلك التي افترض أنها كانت تنتشر حول البصرة قبل أن يجففها صدام امتداد الأفق. وظهرت حوامة بيضاء كبيرة جاءت عكس التيار بسرعة. قال شريف إنها العبارة الإيرانية وإنها تبحر يومياً بين الكويت وميناء عبادان الذي يبعد أربعين ميلاً عن شط العرب مما يجعل الرحلة تستغرق ثلاث ساعات. كما ظهر زورق سريع جاء من الجانب الإيراني ليقطر العبارة، ورافقه بعد دقائق زورق صغير من الجانب العراقي. وقد دار الزورقان حول بعضهما بشكل بسيط وتحدث سائقاهما ثم عادا إلى بلديهما. قال شريف عن الزورق العراقي: «هؤلاء نحن – بدر».

لقد كان هناك زورق شحن خشبي كبير تم طلاؤه بالأخضر يقبع في مسفن حيث يحرسه ستة أو سبعة من رجال بدر الشباب وهم ملتحون ويرتدون الدشاديش والسراويل الفضفاضة ويحملون رشاشات الكلاشنكوف والمسدسات. قال شريف إن مالك الزورق الذي تم بناؤه في الهند هو رجل من الإمارات العربية المتحدة وهو يمتلك أسطولاً على شاكلة هذا الزورق. لقد كان ذلك أحد زوارق تهريب النفط التي ألقي القبض عليها من قبل رجال شريف. وقد أودع طاقم الزورق في السجن في البصرة. وسار شريف حول الزورق وفتح بعض البوابات التي تخفي حاويات النفط وأراها إلى الشيخ سمير الذي أخذ كاميرته ووقف لالتقاط الصور مع شباب بدر. وقد قاموا بتلميع أسلحتهم ودخنوا بعض السجائر وتضاحكوا.

لقد حل المساء الآن، وحين بدأ الضوء الأزرق الخافت بالتلاشي أصبحت مياه شط العرب رمادية متوردة ثم اختفت ألوانها تماماً، فعدنا إلى قاعدة بدر. وبناءً على إصرار شريف بتناول غدائنا المتأخر لم نخرج من الفاو إلا إلى ما بعد حلول الظلام. لقد نمت في الطريق إلى البصرة واستيقظت فجأة لمرة واحدة حين حاد الشيخ سمير بالسيارة بشكل حاد لتجنب سيارة متوقفة في الطريق. قال إنه كان يعتقد أنها وضعت هناك عن قصد من قبل مجرمين يريدون سرقتنا وسرقة سيارة البيك أب الجديدة. قال متفاخراً: «لاحظت أنا لم أخفف السرعة». كان متفاخراً بنفسه وأنا امتدحته لأعصابه.

إن منظمة بدر ما كانت لتجد بيئة ملائمة كبيرة في المجتمع العراقي لو لم تقرر الولايات المتحدة حل الجيش العراقي في أواخر الربيع الماضي، مما جعل مئات الألوف من الجنود بلا عمل، وهذا قد دفع بهم بشكل قاطع إلى الشوارع وهم غاضبون. وهذا الأمر ترك مهمة الحفاظ على النظام بيد قوات التحالف التي لم تكن ناجحة في ذلك بشكل ملحوظ. وقد حذر آيات الله في حوزة النجف وفي وقت مبكر من مخاطر تشجيع الميليشيات على تسنم المسؤوليات التي كانت في السابق هي من اختصاص الجيش، إلا أن التحذير يبدو موجهاً إلى قوات مقتدى الصدر المتطرفة وليس إلى منظمة بدر التابعة للحكيم. (ويعتقد بشكل واسع أن أتباع الصدر هم الذين اغتالوا عبد المجيد الخوئي في النجف في نيسان الماضي، والخوئي هو رجل دين أيد غزو قوات التحالف).

ويترأس الحوزة أربعة من آيات الله الذين تكون لآرائهم أهمية هائلة – خصوصاً آراء المرجع الأعلى آية الله العظمى السيد علي السيستاني. وقال لي أحد رجال الحكيم حين كنت في البصرة: «نحن شيعة كما تعرف، والشيعة يتبعون زعماءهم. وحتى لو أراد السيد عبد العزيز اتخاذ قرار فإنه سيأخذ برأي آية الله العظمى السيستاني».

ويصدر السيستاني آراءه على شكل رسائل. وهو لا يتكلم علناً أو يتحدث إلى المسؤولين أو الصحفيين الأجانب، إلا أنه يبعث برجال دين قلائل ليمثلوه. وحين كنت في البصرة قمت بزيارة أحدهم وهو السيد علي عبد الحكيم (وهو ليس من أقارب عبد العزيز الحكيم حسب علمي) والذي يعيش في دار بجدران كبيرة في ضاحية المدينة قرب الحامية العسكرية البريطانية الرئيسية. وحين قدنا السيارة إلى هناك ظهرت لنا مجموعة من المسلحين من الظلال وأحاطت سيارتنا وفتشت عن السلاح.

تمت مرافقتنا إلى غرفة فيها كراسٍ وضعت حول الجدران مع صورة للإمام الحسين – وهو شهيد الشّيعة الأعظم الذي ذبح من قبل السنّة في كربلاء عام 680. وفي الحال دخل علينا السيد علي عبد الحكيم، وهو رجل ذو لحية بيضاء وأنف كبير وأذنان بارزتان. مرق الرجل بشكل غير حذق وصافح كل واحد بشكل ودي قبل أن يجلس على الأريكة.

قال السيد علي عبد الحكيم: «إن الوضع العراقي معقد جداً. فحين دخلت قوات التحالف إلى العراق لم يكن لديهم معرفة كاملة بالحقائق هنا. إنهم لم يفهموا بشكل محدد أهمية بيانات آية الله العظمى السيستاني». ومضى قائلاً: «بدأت قوات التحالف بإدراك أن الشعب العراقي لا يمكن فصله عن آراء زعمائه الدينيين. فالناس – وهذا في طبيعتهم – لا يحبون ما يفرض عليهم من الخارج».

سألت السيد علي عبد الحكيم ما إذا كان من الممكن قيام آية الله السيستاني بإعلان حول الوضع الأمني. قال: «السيد السيستاني قد أنحى باللائمة على قوات التحالف لفقدان الأمن في البلد وقال إنه لا بد أن يسمح للقوات المحلية باستعادة النظام. لكن ذلك لم يحدث. إن ما قلته إلى السلطات البريطانية هو أننا لسنا أفارقة. فلدينا علماء وأساتذة وباستطاعتنا القيام بالأشياء بأنفسنا. فنحن لسنا أناساً

بلا تاريخ. نحن علمنا الحضارة إلى الغرب حين كان الغرب يقبع في العصور المظلمة. لقد أخبرتهم في إحدى المرات، دعوني أستعيد الأمن في البصرة بإسناد بدر والعشائر».

وكان للسيد علي عبد الحكيم مثال عملي عن كفاءة هذه الفكرة: «فبعد سقوط البصرة كان اللصوص يذهبون يومياً إلى مصنع الفولاذ للسرقة، وطلب مدير المصنع من بدر مساعدته. فطلبت بدر من البريطانيين ستين إجازة سلاح للرجال الذين أريد وضعهم في المصنع كحرس، إلا أن الموافقة جاءت فقط بعشرين رخصة. وحتى بهذه الأسلحة القليلة استطاعوا إنقاذ المصنع».

قال السيد علي عبد الحكيم: «إن آية الله السيستاني يريد استعادة الأمن إلى العراقيين، إلا أن الدولة ليست بأيدينا الآن». رفع كتفيه وابتسم. ورغم ما كان قد قاله إلا أنه بدا مستاءً كما لو أن القضايا التي كنا نناقشها كانت مجرد تفاصيل يمكن حلها مع الوقت.

في بغداد ليس قبل وقت طويل من إلقاء القبض على صدام حسين، التقيت برجل أعمال سنّي سأدعوه ناجي. لقد أعطي اسمه لي من قبل ابن عمه وهو مناهض لصدام وكان قد ترك العراق قبل عدة سنوات واستقر في الأردن. إن ناجي شاب ممتلئ في الثلاثينات من العمر ويتكلم الإنكليزية بطلاقة. وكان ابن عمه قد أخبره بالتعامل معي كصديق لمساعدتي بأيّة طريقة وأخبره بأن يتحدث معي براحة تامة. لقد التقاني ناجي في البيت حين كنت أمكث وقدمني إلى صديق له وكان رجلاً في أواخر الأربعينات قال عنه ناجي إنه دكتور، على الرغم من أن ذلك في العراق لا يعني بالضرورة شخصاً يحمل درجة أكاديمية. لقد كان صديق ناجي يحمل الدكتوراه في الهندسة. وكان قد عمل لدى الدولة وهو الآن عاطل عن العمل.

قال ناجي إن لديه مشاكل مع سلطة الائتلاف الموقتة. فقد ادعى أنه قد فاز مؤخراً بمناقصة لاستعادة وإعادة توضيب دائرة عامة

سبق وأن نهبت في بغداد وإن شركته كانت قد أكملت العمل بشكل مقنع وبوقت قياسي لكنه لحد الآن لم يتسلم أجوره. وقال إن هذا الشيء يشكل شكوى مألوفة بين رجال الأعمال الذين يتعاملون مع قوات التحالف. لقد كان ناجي بشكل عام غير سعيد من الاحتلال الأمريكي. وقال إن مقاومة الأمريكان كانت بشكل واسع نتيجة الإهانة التي شعر بها العراقيون. وقال إن حوالى 40 % من المقاومة مكونة من الموالين لصدام، بينما البقية من المجاميع السنّية. وقال ناجي: «إنهم يقبلون بأيّة حكومة سنّية وليس هناك أي حل آخر».

لقد كان ناجي يفضل عودة الملكية الهاشمية التي حكمت العراق بين عام 1921 حين أسسها البريطانيون وعام 1958 حينما كان هناك انقلاب عسكري. «فملك العراق يمكن أن يكون مثل القاضي على السلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية للحكومة. لذا فإن كان رئيس الحكومة شيعياً مثلاً وتم القيام بشيء سيء للسنّة فإن الملك سيكون هناك لمنعهم».

الدكتور لم يقل الكثير لكن ناجي كان يطرح أحياناً أسئلة إليه بالعربية وخصوصاً حين كان يتكلم إلي حول العمليات المسلحة في العراق. وحين أعادوني إلى البيت بالسيارة سأل ناجي ما إذا كان هناك شخص يساعدني على الالتقاء بالبعثيين أو ربما بضباط جيش سابقين. أخبرته أني مهتم بالالتقاء ببعض الناس المعنيين بالحركة المسلحة – ليس الجنود بل المخططين والمنظمين. تحدث ناجي والدكتور بالعربية لعدة دقائق فقال ناجي: «حسناً سنرتب ذلك. سنمر عليك غداً».

في اليوم التالي قدنا السيارة إلى الضواحي الغربية من المدينة بالقرب من معسكر أمريكي، وكان هناك العديد من البيوت على الطراز البابلي الجديد المفضل لدى صدام. وأدركت أن الطريق هو نفسه الذي سلكته من بغداد إلى الفلوجة في الماضي. قال ناجي إن

المنطقة المجاورة كانت الغزالية وهي منطقة يعيش فيها العديد من ضباط الجيش السابقين في عهد صدام. وقال بطريقة متأمرة حين توقفنا أمام أحد البيوت: «كل شخص هنا هو مع المقاومة».

أخذنا الدكتور إلى غرفة المعيشة المؤثثة بجهاز تلفزيون والعديد من الكراسي التي صفت إلى حافات الغرفة، وكان هناك كتابة قرآنية على الجدار وكان هناك العديد من طاولات الشاي المزينة بأغطية محاكة إضافة إلى منافض الدخان وعلب المناديل الورقية. جلست في مواجهة الباب الأمامي.

خرج الدكتور وعاد مع ثلاثة رجال. تصافحنا وابتسم اثنان من الرجال، إلا أن الرجل الثالث الذي كان ممتلئاً وقوي البنية مع سحنة داكنة بدا غير مرتاح. ابتعد وجلس على كرسي قرب الباب وحدق بي بشكل صريح. كان يرتدي كنزة وبنطلوناً ويبدو لي أنه كان في الثلاثينات من العمر. أحد الرجال الآخرين الذي كان أشيبا وله شوارب جلس أمام الجانب الآخر من الباب. كان يرتدي جاكيتة ناعمة على دشداشة رمادية. أما الرجل الثالث فقد كان طويلاً جداً وأصغر سناً ربما في بداية الثلاثينات وله شعر جميل. كان يرتدي قميصاً أزرقَ غالي الثمن مع أزرار لؤلؤ وجاكيتة خضراء فاتحة اللون وبنطلوناً ازرق غامقاً. وكان يداعب مسبحة صلاة زرقاء.

قدمت نفسي لكي أريحهم وأخبرتهم أني كنت في العراق قبل وخلال الحرب الأخيرة. ثم وبعد بضع كلمات بالعربية لم يترجمها جميعها ناجي حاولت إقامة قواعد أساسية. فقد أوضحت للرجال أني كنت بحاجة لأن أدعوهم باسم معين بحيث أتمكن من تحديد بياناتهم في ملاحظاتي فأعطوني جميعهم أسماء وهي في الواضح كانت أسماء كاذبة. فالرجل القوي أعطاني اسم أبو بروان واختار الرجل الطويل ذو الشعر الجميل اسم أبو عبد الله. لقد ابتسموا وتندروا في ما بينهم حول الأسماء التي اختاروها. ثم أريتهم هاتفي

النقال الذي كان مغلقاً ثم التقطت جهاز تسجيل كنت قد جلبته معي وسألتهم ما إذا كان بوسعي أن أسجل بعض أحاديثهم. هز الرجل القوي رأسه، وقال الرجل ذو الشعر الجميل بإنكليزية ضعيفة إنهم لا يريدون التسجيل. حسناً قلت سأدوّن ملاحظات فقط.

بدأت بسؤالهم كيف شعروا إزاء ما وصفه الرئيس بوش للمقاومة العراقية بأنها عصابة مجرمين. أراد أبو أحمد، الرجل ذو الشعر الأشيب الإجابة على ذلك. قال: «لماذا تفترض أن المقاومة بدأت في هذه المنطقة وفي أماكن مثل الرمادي والفلوجة والموصل؟ هذه مناطق سنّية. قبل الحرب كان الناس الذين يعيشون هنا يسيطرون على الجيش والحكومة. هل تعتقد أن المقاومة تأتي من هؤلاء الناس أو من الناس البسطاء؟ بطبيعة الحال تأتي المقاومة من هذه المنطقة وهي مكونة من ضباط وأطباء ومحامين وصحفيين».

وأردف الرجل ذو الشعر الأشيب أبو عبد الله متحدثاً بالإنكيزية إلا أنه يحول أحياناً إلى العربية التي كان ناجي يحاول ترجمتها بأفضل ما يمكن. قال: «العالم قرية صغيرة. لدينا الإنترنيت وأنظمة الاتصالات ولدينا الناس أصحاب المعرفة ولدينا علماء. يعتقد الأمريكان أنهم يتعاملون مع مجتمع أحمق. إنهم فخورون بجنودهم وأسلحتهم وهم مندهشون من استجابة الناس الذين يعارضونهم. لكني لست مندهشاً حين أرى أن الأمريكان يخسرون الحرب الآن. وسأخبرك أنهم سيواجهون خسائر أكثر في وقت قريب. إن المفاوضات مع مجلس الحكم ستفشل. هل تعرف لماذا؟ لأن مجلس الحكم لا يمثل المجتمع العراقي. ففيه ما يقرب من عشرين حزباً، وكل حزب له هدف مختلف. فهل تعتقد أنهم سيعملون معاً؟ لا أعتقد ذلك».

جلس أبو عبد الله إلى الأمام وتكلم مباشرة معي بالإنكليزية: «أنا لا أثق بك يا صديقي. تصور لو أن أحداً من أوروبا أو المكسيك

جاء إلى بلدك بأسلحة – هل تثق به؟». هززت رأسي بما كنت آمل أن يبدو طريقة موافقة إلا أني لم أحب الطريقة التي كان يجري الحديث بها. توقف أبو عبد الله لوهلة: «لكن ذلك لا يعني أني ساقوم بأي شيء ضدك. يمكن أن تكون من المخابرات البريطانية أو وكالة المخابرات المركزية. أنا لا أمانع لأننا نريد لأقطارك أن يكون لديها هذه المعلومة».

استمر أبو عبد الله بقوله: «إن قتل الأمريكان في العراق شيء اعتيادي يا صديقي. فإن لم يقتلوا فإن ذلك شيء غير طبيعي».

سألته: «من هم الانتحاريون؟».

أجاب مبتسماً بشكل واسع: «إنهم عراقيون. هل تتذكر أنصار الإسلام؟ – الأكراد العراقيون الذين كانت لديهم معسكرات إسلامية في شمال العراق حتى تم قصفهم من قبل الأمريكان خلال الحرب. إنهم عراقيون، وقد درب صدام كذلك ستة آلاف من المجاهدين كما تعرف من العراق وكل العالم – إنهم أناس يؤمنون أنها حرب دينية». انحنى مرة أخرى إلى الأمام: «هل تعتقد حقاً أن المقاومة تتكون من خمسة آلاف شخص؟». لقد كان ذلك تقييم وزارة الدفاع الأمريكية. هز أبو عبد الله رأسه بامتعاض: «رامسفيلد!» ثم بصق. «العمل الوحيد الذي يمكن أن أعطيه إياه هو أن يكون سائقاً لي».

قال ناجي إن الوقت قد حان للصلاة. خرج الدكتور من الغرفة وعاد ببعض السجادات الخاصة بالصلاة. لقد وضعها بطريقة مائلة على الأرض في وسط الغرفة ولأكثر من عشر دقائق كان ناجي وهو وثلاثة مسلحين آخرين ينحنون ويسجدون ويدمدمون بالصلاة.

حين عادوا إلى مقاعدهم وجاء الدكتور بالقهوة التركية وبعض المعجنات العراقية الصغيرة والبيبسي كولا – سألت أبو عبد الله إن كان يقاتل من أجل صدام.

أجاب: «كلا. أنا أحببته لكنه كان لصاً. لقد أحببته لأنه كان يقاتل ضد الأمريكان».

سألته: «إذاً من هي الجماعة التي تنتمي إليها؟».

حدق بي بصلابة: «أي جماعة؟» ثم ابتسم بسخرية: «من أعطاك الفكـرة أن لدينا جماعة؟ لا ترتكب خطـأ يا صديقي. ليس لدينا صلة بأولئك الناس الذين يقتلون الأمريكان. نحن نعرف الناس».

لـم يبدو لـي أن الرجـال كانت لديهـم معلومات محـددة كافية حـول أغلـب الهجمات. فاقترح أبـو عبد الله مثلاً بأن إيران وسـوريا متورطتـان بالهجمات الإرهابية ضد الأمـم المتحدة واللجنة الدولية للصليـب الأحمـر لأن كلا البلديـن كانا يرغبان بجعـل الأمريكان لا يتقدمون بسـرعة في العراق. وقال إن ايران قد أمرت باغتيال الحكيم لأن آيـة اللـه كان قـد خانها بالتعـاون مع قوات التحالـف. لكن حين سـألت عن التسـعة عشـر إيطالياً الذين قتلـوا في هجـوم بالقنابل في الناصريـة فإن جميـع الرجال في الغرفة بما في ذلـك ناجي والدكتور ضحكـوا بصوت عالٍ. قال ناجـي ولا زال يضحك: «إن ذلك بالطبع كان من قبل المقاومة السنّية».

في هذه اللحظة لم يعد لدي أوراق أكتب عليها، فنهض الدكتور وغادر الغرفة وعاد بدفتر ملاحظات جديد. لقد كان فيه شعار تجاري هو عبارة عن أيدي متشـابكة مع درع مزين بالنجوم والأشـرطة. وقد طبعـت عبـارة «الوكالـة الأمريكيـة للتطويـر الدولي» حـول حافات الدرع. ضحك الدكتور وأشار: «احتفظ به – إنه لك».

سـألت الرجـال حول الخطـط الأمريكيـة لنقل السـلطة. كيف يشـعرون بشـأن تـرؤس الحكومة من قبـل عبد العزيـز الحكيم؟ قال أبـو أحمـد: «لـو توجـد انتخابـات ويختـار النـاس أي شـخص مـن الشـيعة وبضمنهم الحكيم كرئيس فأنا سـأوافق على ذلك وستتوقف المقاومة».

هز أبو بروان الذي لم يقل أي شيء في ذلك المساء رأسه وقال: «كلا. أنا أعتقد أن المقاومة ستسـتمر ضد الحكومة الشـيعية الجديدة والأمريكان».

وافق أبو عبد الله وقال: «أن يعطي الأمريكان السلطة إلى الشيعة لأنهم يعتقدون أنهم أكثر من السنّة فإن المقاومة لن تتوقف. فالسنّة العراقيون سيرفضون ذلك لأن الأمريكان قد جاؤوا بعبد العزيز وأعطوه كل شيء – الرجال والسلاح والوظائف – كل شيء أراده. إن الشعب العراقي لا يريد عملاء مزدوجين أي أناس يعملون لبلد آخر».

وعند نهاية الحديث سألت كل رجل من الرجال أن يخبرني بشيء عن نفسه. قال أبو أحمد إنه كان ضابطاً في الجيش وكان لديّ راتب جيد وسيارة وسائق».

أما أبو بروان القليل الكلام فقال إنه لا يريد أن يقول ما كان يقوم به. تحدث مع ناجي بالعربية لوهلة. ثم قال ناجي لي: «إنه يريدني أن أقول إنه كان عاطلاً عن العمل قبل ذلك وهو عاطل عن العمل الآن».

أما أبو عبد الله الذي تحدث بالإنكليزية مباشرة معي فقال ببساطة مع ابتسامة: «أنا رجل أعمال».

سألت الرجال إن كانت لديهم أية افكار عن حل لمشاكل العراق.

قال أبو أحمد: «إن أحد الأحزاب ينبغي أن يكون حزب البعث. أعتقد أن لديه أهدافاً جيدة إلا أن الناس الذين كانوا في السلطة قد أعطوا صورة سيئة عنه. لكن لا يزال للبعثيين قاعدة واسعة في العراق. وأعتقد أن العراق ينبغي أن يكون بنظام ملكي حيث يأتي الملك من أية عائلة هاشمية سنّية – لكنه عراقي».

دمدم أبو بروان الذي كان ينظر إلى الأرض وقد شبك يديه: «نفس الشيء».

قال أبو عبد الله: «أعتقد أن الحل يقضي بذهاب الأمريكان. فأنا لا أعتقد أن أمريكا تعرف ما يجري هنا».

تصافحنا مرة أخرى وغادر الرجال الثلاثة الغرفة مع الدكتور الذي عاد بسرعة. قال ناجي إن علينا الانتظار ليتمكن الرجال من المغادرة من دون أن يراهم أحد. وبعد قرابة خمس دقائق نهضنا وغادرنا المنزل. لقد حل الظلام وكان الشارع مهجوراً. وبينما كان ناجي والدكتور يقوداني إلى البيت أخبراني شيئاً عن الرجال. فأبو أحمد، الضابط السابق كان يجهز المسلحين بالأسلحة. وأبو بروان غير الودّي كان عضواً نشطاً في الحركة المسلحة ومقاتلاً في السابق في الحرس الجمهوري الخاص لقصي صدام حسين. أما أبو عبد الله الذي كان بقية الرجال على معرفة أقل به فقد كان عراقياً يعيش في السابق خارج العراق ربما في كندا في السنوات الاثنتي عشرة الماضية وكان قد عاد إلى العراق بعد الحرب، وكان من الإسلاميين الأصوليين كما أوضح ناجي وهو قريب في تفكيره من الوهابية. كان ذلك كل ما يعرفانه عنه.

من الواضح أن المسلحين الثلاثة كانوا جزءاً من شبكة من السنّة المناهضين لأمريكا، والعديد منهم كما يتضح مراقبون من قبل الولايات المتحدة حين تم التضييق في البحث عن صدام. ولا أعرف ما حدث لهم بعد أن ألقي القبض عليه، إلا أني أتصور أنهم في سجن مطار بغداد مع طارق عزيز.

في 18 كانون الثاني، أي قبل يوم من لقاء بول بريمر والوفد العراقي الذي ضم عبد العزيز الحكيم بكوفي عنان في الأمم المتحدة لمراجعة عملية الانتخابات، وحين انفجرت شاحنة مفخخة خارج بوابة القاتل، وهي البوابة الرئيسية للقصر الجمهوري لصدام حسين والذي أصبح الآن مقر قوات التحالف. وقد قتل خمسة وعشرون شخصاً على الأقل جراء الانفجار غالبيتهم من العراقيين الذين تم تشغيلهم من قبل التحالف – أناس هم خونة بنظر المسلحين كالرجال الثلاثة الذين تحدثت معهم. إن أغلب الشيعة والسنّة

العراقيين متحدين في كرههم للقوات الأجنبية على أرضهم وإن هذا الإحساس الذي ينبع من ولاءات عرقية ودينية يجعل من الممكن بالنسبة لحكومة شيعية أساساً أن تحافظ على السلام في العراق.

إن مثل هذه الحكومة لن تكون بالطبع علمانية كما ترغب الولايات المتحدة. فقد تنتهي بأن تكون قريبة من كونها ثيوقراطية وليس كما يتصور أغلب الشيعة. لقد كان هناك تلميح عن ذلك في 29 ديسمبر حين أبطل مجلس الحكم برئاسة عبد العزيز الحكيم آنذاك القانون المدني في العراق الذي ينظم الشؤون المحلية مفضلاً عليه القانون الديني. وحسب النظام الجديد فإن الأئمة الشيعة والسنّة ستكون لهم صلاحية على الزواج والمهر والطلاق وتسوية النفقة والإرث. وقد تظاهرت مجاميع من النساء في ساحة الفردوس للاحتجاج على القانون الذي ألغى حقوق النساء العراقيات اللاتي كن يتمتعن بها لأكثر من أربعين سنة. إلا أن الشيعة ليسوا كتلة متراصة ويبدو من غير المحتمل أن يتم تشكيل أية حكومة عراقية مستقبلية دينية على النمط الإيراني حيث إن رجال الدين منقسمون في ما بينهم وهم أضعف مما كانوا عليه.

وفي ما يتعلق بالانتخابات فإن الحكيم كان يعمل كرئيس. ففي ديسمبر حين كان رئيساً لمجلس الحكم التقى بدونالد رامسفيلد في العراق وقضى عشرة أيام يجتمع فيها مع رؤساء دول ووزراء خارجية إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وروسيا وسوريا والإمارات العربية المتحدة.

لقد ذكرني الحكيم أنه في المؤتمر الذي عقد في لندن قبل أشهر من بدء الحرب بأن جميع الأطراف السياسية كانت قد اتفقت على أن «الهوية الإسلامية للشعب العراقي» يجب أن تحترم من قبل أية حكومة مستقبلية. وقال إن شيئاً لم يتغير وإنه لا يزال مقتنعاً أن العراق يمكن أن يكون مستقراً بوجود حزب شيعي في الحكم. ومضى

الحكيم قائلاً: «سأخبرك بقصة توضح السبب. فقبل الإطاحة بالنظام هرب أحد أقوى الشخصيات التي كانت مع صدام حسين من العراق وانضم إلى المعارضة. وأصبح يلتقي بشقيقي آية الله الحكيم، وأخبره "نحن خائفون منك" فأخبره آية الله :لماذا؟" قال: :نحن خائفون بسبب الجرائم التي ارتكبناها ضدكم". ثم ذكر المذبحة في الحلة – أخبرنا عنها ولم نكن نعرف حتى إنها كانت قد حدثت فعلاً. «لقد أمسكنا بالعديد من الناس وقسمناهم إلى ثلاثة مجاميع» كما قال: «ذلك كان في عام 1991 بعد قمع ثورة الشيعة». المجموعة الأولى كنا متأكدين من أنها كانت مكونة من أناس مذنبين. أما المجموعة الثانية فقد كانت لدينا شكوك بهم بينما كانت المجموعة الثالثة بريئة. اتصلنا بالقيادة العليا نسألهم عما يجب أن نقوم به إزاء هؤلاء. فقالوا لنا إن علينا أن نقتلهم جميعاً وهذا ما قمنا به».

أما فحوى هذه القصة كما أوضح الحكيم فهي أن الرجل الذي كان برتبة فريق في الجيش والذي اعترف بتنفيذ الجرائم لم يعاقب لأنه انضم إلى المعارضة ولأن آية الله قد قتل في الصيف الماضي كما قال، وقد أقيمت مراسم التشييع في كل أنحاء العراق، «وحتى في الفلوجة» – في المثلث السنّي. وقال: «في كل تاريخ العراق ليس هناك سجل للعراقيين وهم متورطون فيه بحرب أهلية ضد بعضهم لأسباب عرقية أو دينية. بل إنه تاريخ حكومات غير عادلة. ولم تكن المشاكل بين الناس».

في ما وراء الاندفاع

هل يمكن أن ينجح ذلك؟

تقع محطة (ثرشر) الأمنية المشتركة في ضواحي غرب بغداد في منطقة الغزالية في قصر من عهد صدام بأعمدته التي بطول عشرين قدماً ونافورته الجافة الآن. إن هذا القصر يبدو الآن مثل قطعة كيك ولكن بطبقات من الإسمنت والحجر، ويحيط بهذا القصر وداريـن آخرين جدران عازلة. وقد أنشئت هذه المحطة الأمنية في آذار الماضي كجزء من اندفاع القطعات التي تم تشكيلها من قبل الجنرال ديفيد بيترايوس القائد الأمريكي في العراق. إن تحريك الوحدات إلى خارج القواعد الكبيرة وإلى داخل المحطات الأمنية المشتركة – وهي مخافر صغيرة في أخطر مناطق بغداد – يعد أمراً مهماً بالنسبة إلى استراتيجية مقاومة الإرهاب، كما أن)ثرشر(تعتبر الآن مكاناً آمناً للجنود الأمريكان والجنود العراقيين. وفي هذا الخريف وعلى سطح القصر وبين أكياس الرمل وساريات الاتصالات ومعدات الممارسة الحمايوية وعن طريق مظلة القناص، أشار النقيب جون بروكس آمر المحطة إلى بعض المعالم الأرضية المحلية. وقال مشيراً إلى منطقة حشائش قريبة: «لقد تم انتخاب هذا الموقع لأنه كان المكان الرئيسي الذي ترمى فيه الجثث في الغزالية. فقد كانت هناك قرابة إحدى عشرة جثة في الأسبوع تم تشويه أغلبها بشكل وحشي».

كان جامع أم المعارك الكبير بمجموع مناراته المميزة التي تشبه صواريخ سكود قريباً من المكان. لقد اختفى صدام حسين في الغزالية خلال القصف الأمريكي في حرب الخليج الأولى وبنى جامعاً تعبيراً عن امتنانه للمنطقة المجاورة («فلا يزال في الغزالية الكثير من عسكريي صدام المتقاعدين» كما قال بروكس). وفي نيسان 2004 اتخذ المسلحون الجرحى الذين شاركوا في معركة الفلوجة ملاذاً لهم في الجامع. وتحاذي الغزالية الحافة الشرقية لمحافظة الأنبار التي هي مركز الحركة المسلحة السنّية التي أصبحت البوابة الاستراتيجية لبغداد لدخول المسلحين والمجاهدين الأجانب. وفي زيارة سابقة للغزالية في كانون الأول 2003 التقيت بمسلحين في بيت آمن في منطقة مجاورة. لقد أخبروني أنهم كانوا ينوون قتل الأمريكان. ومنذ ذلك الحين مع استثناءات قليلة كانت الغزالية منطقة محرمة على الغربيين لا سيّما الصحفيّون الذين يخاطرون باحتمال خطفهم وقتلهم. كما أن الدوريات الأمريكية في الغزالية عادة ما تتعرض إلى الاستمكان.

يبلغ النقيب بروكس الثامنة والعشرين من العمر، وهو بقامة متوسطة وبجسم مشدود وشعر قهوائي قصير. وأشار من السطح إلى المكان الذي تم فيه قتل العريف (روبرت ثرشر) من قبل قناص في شباط الماضي وقد سميت المحطة باسمه. في ذلك الحين كانت السرية تعمل خارج معسكر فيكتوري، وهو القاعدة الرئيسية التي تضم رقعة كبيرة من بغداد بما في ذلك المطار. لقد كان (ثرشر) في الثالثة والعشرين وانضم إلى الجيش من الثانوية.

برغم تأثير الحركة المسلحة إلا أن الغزالية بقيت على ما كانت عليه منذ عقود – منطقة طبقة وسطى في بغداد كبحت فيها التوترات الطائفية بشكل أو بآخر مقارنة بأجزاء أخرى في بغداد. إن غالبية الساكنين في تلك المنطقة كانوا من السنّة، لكن كما قال بروكس:

«كان هنـاك أصحاب مهن ومثقفون من السـنّة والشـيعة أيضاً وكانت الجوامـع لكليهمـا». وقـد تغيـر ذلك فـي شـباط 2006 عندما قصف المسلحون السـنّة الحضرة العسكرية التي تعود إلى القرن التاسع في سـامراء والتي تعد واحدة من أقدس الأضرحة بالنسـبة إلى الشـيعة، فنشـب عنـف طائفي عبـر العراق. فالمسـلحون الشـيعة ومـن بينهم جيـش المهدي تحركـوا إلى الغزالية من الشـعلة وهي منطقة شـيعية فقيـرة مجـاورة تقـع إلى الشـمال من الغزاليـة. وردّ السـنّة على ذلك بتحولهـم إلى المسـلحين المتشـددين وإلـى المجاهديـن الأجانب مـن تنظيـم القاعدة فـي بـلاد وادي الرافدين الذين تدعوهـم القوات الأمريكية بالقاعدة في العراق.

قـال النقيـب بروكس: «لديك متطرّفون سـنّة فـي المنطقة قبل سـامراء رغـم أن القاعـدة في العـراق بعد سـامراء أصبحـت قوية. فلديهـم فـرق الموت الخاصة بهـم. وكانوا يختارون الناس بشـكل منتظم بسـبب مواقع بيوتهـم أو علاقاتهم. وكانوا يعذبونهم بشـكل وحشـي ويقتلونهـم ويدفنـون جثثهـم. لذا هربـت العوائل الشـيعية والعديد من السـنّة ممـن لديهم الإمكانية المادية مـن هذه المناطق. وفي بداية هذه السـنة كانت الغزالية تحت السـيطرة الفعلية للقاعدة فـي بـلاد وادي الرافديـن. كما أنها كانـت تحت هجوم المسـلحين الشـيعة». وقـال النقيب بروكـس في معرض إشـارته إلـى العبوات الناسـفة التي تسـببت في مقتل غالبية الجنود الأمريكان في العراق: «إن عشـرين دولاراً وبطاقة شـحن للهاتف النقـال يمكن أن تدفعها لأحدهـم ليضع لك عبوة ناسـفة. وقد أدرك النـاس أنهم قد أدخلوا شيئاْ لم يعد بوسعهم السيطرة عليه».

في تشرين الثاني الماضي وبعد أن قبل استقالة وزير دفاعه دونالد رامسـفيلد أعطى الرئيس بوش لفريق حربه الجديد المكوّن من وزير الدفاع روبرت غيتس والجنرال بتريوس فرصة تغيير الاستراتيجية في

العـراق، وفي آذار بدأ الاندفاع. وتطلبـت الخطة زيادة 30000 جندي إضافي في بغداد مما جعل العدد الفعلي يزداد إلى قرابة خمسين ألفاً. وتـم فتح 34 محطة أمنية مشـتركة في بغداد، ثـلاث منها في الغزالية: الأولى باسـم (كازينو) شمال الغزالية، والأخرى في الجنوب الغربي هـي محطـة (ثرشـر)، والأخيرة تـم افتتاحها فـي أيار الماضي باسـم (مافريك) وهي في الجنوب الشرقي.

لقد أشـار بروكس إلى بيت كبير بشبابيك مكسورة عند الجزء الأسـفل. ورجالـه يدعونـه بـ (البيت العلبـة) المـدور لأنهم حين تحركـوا أول مـرة أطلـق القناصة النـار عليهم مـن الداخل. فردوا على ذلـك بقصف البيت بمدافع الدبابات. وقال: «لـم تطلق علينا النـار بعد ذلك». لقد بدأ رجال بروكس بالعمل المكثف عن طريق الأفـراد للقيـام بدوريات منتظمـة أثناء النهـار والقيـام بمداهمات تعرضيـة أثنـاء الليـل. وقـد قتـل عريـف في سـرية بروكـس يدعى (وليـام بوشـنيل) في إحدى هذه الدوريات في شـهر نيسـان. وفي السـابق كانوا قد مشـطوا الغزاليّة ثـم عادوا إلى معسـكر فيكتوري المحصّـن جـداً. ومع هـذا الاندفاع أصبـح الجنـود الأمريكان في حضـور دائـم في المنطقـة المجـاورة. وبعدما تحـرك الرجال أقام الجيـش الأمريكـي جداراً إسـمنتياً بطول ميلين فـي الغزالية لفصل السـاكنين الشـيعة عـن السـنّة أولاً، ولغـرض إقامة محيـط عازل. وقـال بـروك إن نجاح وحدته قـد أصبح ممكناً من قبـل زملائه في محطـة (كازينو) الأمنية الذين فصلوا المسـلحين الشـيعة من مدينة الشـعلة عن المناطق المجاورة.

في أواسـط الصيـف خفّ العنف في الغزالية بشـكل كبير. وفي هـذا الخريف حين وقفت على سـطح محطة (ثرشـر) فـي الليل كان بوسعي أن أرى الانفجارات في البعيد وكتل النار في السماء ليلاً. في إحدى الأمسيات هزّ انفجار عنيف البناية أعقبه إطلاق نار من أسلحة

أوتوماتيكية أضاءت الشوارع مباشرةً. إلا أن أغلب التفجيرات كانت بعيدة عن الغزالية بحيث لم يتسنَّ سماعها. وتضاءل عدد رمي الجثث في المناطق المجاورة إلى «الصفر عملياً قياساً بمستويات ما قبل سامراء» كما قال بروكس. ولم تخسر سريته أي عدد من الرجال بعد ذلك. وحين تحدث بيترايوس أمام الكونغرس في أيلول اختتم حديثه بالإشارة إلى الغزالية كمثال على التقدم الذي أحرزه الجيش في العراق.

كما أن الاستراتيجية الجديدة كانت تعني كذلك إعداد الأساس للقوات الأمنية العراقية لتحل محل الأمريكان، كما أن جميع المحطات الأمنية المشتركة كما تشير أسماؤها تشمل قوات مشتركة من الأمريكان والعراقيين. إلا أن العراقيين لا ينتمون جميعهم إلى القوات الحكومية الرسمية. فمع الدعم الأمريكي كان بضعة آلاف من المتطوعين السنّة المسلحين ممّن يدعون بحماية الغزالية يقومون بواجبات الشرطة بالتدريج. ومثل هذه القوات السنّية التي وافق عليها الأمريكان كانت قد بدأت بالانتشار والظهور في كل مكان. وقد انضم إلى العديد منهم المسلحون السابقون استياءً من الشيعة. وقد أخبرني أحد المسؤولين في أحد الأحزاب الشيعية الكبيرة «أن بعض هذه الجماعات المسلحة كانت إلى حد يوم أمس قوات معادية كانت تهاجم الحكومة العراقية وقوات التحالف وكل من له علاقة بالحكومة. لقد كانوا يعتبرون إرهابيين. فما الذي حصل؟». لقد كان سؤالاً غالباً ما سمعته في العراق.

يُعتبر العقيد جاي بي بيرتن رجلاً طيباً شديد البأس، وكان آمر لواء المشاة الأول (الخنجر) الذي يغطي جميع شمال غرب بغداد ولديه أربعَ عشرةَ محطة أمنية بضمنها ثلاث في الغزالية. وقال العقيد بيرتن: «لقد بدأنا بسؤال أنفسنا السؤال التالي: ما الذي يسهل دخول القاعدة إلى منطقة يقطنها أناس هم عرب علمانيون معتدلون؟».

وقال إن الجواب كان الخوف من المسلحين الشيعة. ومضى العقيد بيرتن قائلاً: أعتقد أننا في مرحلة زيادة فرصة إعادة الناس الذين يريدون أن يكونوا جزءاً من الحل. ويتم ذلك بالتحدث إليهم، اللعنة أن ذلك يشبه مدينة تالاهوما بولاية تينيسي حيث مسقط رأسي (تالاهوما معسكر عمل تأسس عام 1852 وكان لساكنيه دور كبير في الصراعات والمواجهات التي تفجرت خلال الحرب الأمريكية الأهلية). إنه يشبه التمترس والجلوس في الرواق الخلفي واحتساء الشاي والإنصات إلى الصراصير والكلام، في الوقت نفسه، وهنا نحن نتحدث عن الإصغاء إلى الناس الذين سحبوا الزناد ضد القوات الأمريكية؟ اللعنة، نعم، لأننا نحارب عدواً مركباً مشتركاً وهو: القاعدة».

قال بيرتن: «إن مهمة لوائه كانت إلحاق الهزيمة بالقاعدة وتفعيل عملية الانتقال إلى السلطات العراقية، وهذا هو الطيف الكامل من العمليات الذي يعني كل شيء من محاربة الإرهاب إلى تثبيت أنابيب الصرف الصحي». وقال بيرتن: سواء تم تحقيق ذلك أم لا، وما إذا كانت المكاسب ستبقى أم لا، فإن كل ذلك معلق بالتقدم السياسي نحو المصالحة الوطنية بين العراقيين. «نحن في نافذة ضيقة جداً ولدينا بعض القرارات المهمة ينبغي صنعها. أما أي طريق سيتخذه العراق فإن ذلك سيعتمد على ما نفعله».

في (ثرشر) أخبرني النقيب بروكس: «إن الكلمة الطنانة الجديدة هي «الدعم». فقد تعلمنا من تجاربنا أنه لأجل التطوير المدعوم فإننا نحتاج إلى الأمن. فإن كان بوسعهم توفير قوة أمنية محلية لهم فإن ذلك سيفي بالغرض. وذلك سيسمح لنا بالعودة إلى ديارنا».

ولا تعتبر الغزالية المنطقة الوحيدة في العراق التي تغير فيها هذا المنظر. فآخر مرة كنت فيها في البلد، أي قبل عشرة أشهر، كان

العنف على ما يبدو أمراً لا يمكن السيطرة عليه مع اختفاء أعداد كبيرة من الناس، وكان القتل يحدث في وضح النهار. وأغلب العراقيين الذين أعرفهم تحدثوا بحدة حول الكيفية التي يتحصن فيها الأمريكان والقادة العراقيون بينما تعم الفوضى حولهم. في شباط خطفت الاغتيالات الطائفية المتبادله حياة قرابة ثلاثة آلاف مدني عراقي. وفي شهر تشرين الأول هبط معدل القتلى إلى خمسمائة وثمانية وسبعين. وتماماً مثل أية إحصائية للجثث في العراق فإن هذه الأرقام كانت موضع جدل، إلا أن أحداً لم يناقش مسألة تضاؤل العنف بشكل كبير. كما أن موت الجنود الأمريكان قد تناقص بشكل كبير هو أيضاً من أقصى رقم في شهر مايس بلغ مائة وستة وعشرين جندياً حين بدأ الاندفاع، إلى تسعة وعشرين في الشهر الأخير. في ذلك الحين على الأقل بدا الأمر كما لو أن الاندفاع قد أعطى ثماره.

كان الاندفاع بشكل ما عبارة عن حالة جراحة طبية طارئة. فبعض أسوأ الأحياء السنّية في بغداد مثل الغزالية والأعظمية والعامرية قد تم التعامل معها، لكن كثيراً من محافظة ديالى الممتدة من شمال شرق بغداد حتى الحدود الإيرانية وكذلك كركوك التي أصبحت معروفة بسبب ادعاء الأكراد بها لمواردها النفطية، فقد بقيتا ساحتين رهيبتين للمعارك. في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول، وهو اليوم نفسه الذي وجدت فيه جثث مشوهة لأكثر من عشرين شخصاً خارج بعقوبة في محافظة ديالى، قتل انتحاري يقود دراجة ثمانية وعشرين شرطياً في المدينة. كما كان لا بد من وجود قوات أمريكية مهمة في الأحياء الشيعية الفقيرة من بغداد ومدينة الصدر والشعلة التي يسيطر عليها المسلحون الشيعة. ويدعي العديد منهم أنهم أفراد في جيش المهدي بقيادة مقتدى الصدر الذي غالباً ما كانت خبرته السياسية واستخدامه التعبوي للعنف مصدراً دائماً للإرباك بالنسبة لمخططي الحرب في وزارة الدفاع الأمريكية. في الواقع يعزو المحللون الكثير

مـن التقلص الأخير في موت المدنيين العراقيين إلى الاندفاع بل إلى قرار مقتدى الصدر في شـهر آب بتوجيه أمر إلى جيش المهدي الذي يعتقـد أنه المسـؤول عن مقتل العديد من السـنّة فـي الصراع الطائفي الشيعي- السنّي في بغداد وما حولها بـ «تجميد» نشاطاته لستة أشهر. لقـد كان الهـدف الواضح للصدر هـو تجنب أية تصعيـد لمعركة بين جيش المهدي وميليشـيا شـيعية أخـرى ولإعادة تأكيد سـيطرته على رجالـه. وتزامـن هذا الاندفاع كذلـك مع ما يدعى بالصحوة السـنّية، وهـي عبارة عن قـرار اتخذه رجال العشـائر في الأنبـار للتحالف مع الأمريـكان لمحاربـة القاعدة في بـلاد وادي الرافديـن - وهو أمر لم يكـن متوقعاً فـي خطة بترايوس. وقد انضم السـنّة فـي مناطق أخرى إليهـم، رغـم أن العديـد لم يفعلـوا ذلك. ولا تـزال القاعـدة في بلاد وادي الرافديـن نشـطة ولا يـزال (العديد مـن) المجاهدين الأجانب باقين في البلد. في الثالث عشـر من أيلول اعتبر أبو ريشة، وهو زعيم عشـائري سـنّي تـم اغتياله في ما بعـد، كمحفز لهـذا التحالف، وكان الرئيـس بـوش قـد التقاه فـي الأنبار قبـل أسـبوع. لقد كان أبو ريشـة شـخصية مؤثرة وكارزمية، ورغم أن شـقيقه الأصغر قد حل محله إلا أن أغلب العراقيين الذين تحدثت معهم رأوا أن موته خسارة جسيمة، واستغربوا كم سيعيش شقيقه بعده. ولا يزال هناك أمل أن القاعدة قد يتم تحييدها، مما يعني إزاحة مظهر شرير واحد على الأقل من مظاهر الحرب المتعددة الأوجه.

إن اندمـاج مجموعـة عوامـل مثـل الاندفـاع والصحوة السـنّية وتجميـد الصـدر لجيشـه قد سـاعد على اسـتقرار المناطق الرئيسـية السـاخنة للعاصمة. ومـن غير الواضح إن كان بالإمكان توسـيع هذه المكاسب أو تعزيزها بقوات قليلة، إلا أنه بات من المؤكد أن زيادات أخرى وحدها لن تفوز بالحرب. كما أن إضافات في عديد القوات هو أمر غير مخطط له. فقد وعد الرئيس بوش بسحب العديد من القوات التـي جيء بها لغـرض الاندفاع فـي تموزالمقبل. ويبدو أن مسـتقبل

العـراق في هـذا الوقت هو رهن النسـيان غير المحـدد. ولعل أفضل شـيء يمكن قوله هو أن الولايات المتحدة قد اشـترت أو اسـتعارت مجـالاً صغيراً لتعمل عليه. لكن هناك ثمنـاً أكثر وضوحاً من الأثمان الأخرى.

وقبـل أيـام قليلـة مـن إدلاء الجنـرال بيترايـوس بشـهادته أمام الكونغـرس التقيت مع الشـيخ زيـدان العوادي، وهو زعيم عشـائري سـنّي مـن الأنبـار، وكانت آخر مـرة رأيته فيهـا عـام 2004 حيث كان ممتلئـاً بالعـداء للولايـات المتحـدة ولـم يخـف سـراً فـي تعريـف نفسـه على أنه مـن «المقاومة»، وهو الوصف نفسـه الـذي وصف به المسـلحين السـنّة المتشـددين. لقد كان الشـيخ زيدان مطلوبـاً هارباً متهمـاً من قبـل الأمريكان بكونه يدعم التمـرد، وكان يعيش في منفى طوعي في الأردن. ولكن حين تحدثنا هذا الخريف في شقة في عمان أخبرني زيدان أنه التقى مؤخراً مع مسؤولين من المخابرات والجيش الأمريكي لأجل إجراء محادثات غير رسـمية لأنه يوافق على ما يقوم به الأمريكان الآن، أي بالسـماح لرجال العشائر من السنّة بالانخراط في سلك الشرطة.

سـألت زيدان عن أي نوع من الصفقات كان قد طرحها بشـأن الصحـوة السـنّية. قـال: «إنها ليسـت صفقـة لأن النـاس أدركت أن مصيرنـا مرتبـط بالأمريـكان ومصيرهـم مرتبط بنا. ولـو نجحوا في العـراق فـإن ذلك سـيعتمد علـى الأنبار. وقـد قلنا ذلك دائمـاً. فقد خسـرنا وقتـاً كثيـراً وخسـرنا أمريـكا، لكـن الصحـوة جـاءت الآن وهـي تحمـل خيطـاً فـي يدهـا. ولأول مرة يقـوم الأمريكان بشـيء صحيح». قال زيدان: «إن العشـائر السـنّية في الأنبار لم تعد بحاجة للانتقـام الدموي من القـوات الأمريكية». وقال: «لقد أخذنا انتقامنا ونحـن الذيـن جعلناهـم يزحفـون على بطونهـم والآن نسـمح لهم بالنهـوض». وأضـاف: «إن اسـتقرت الأنبـار فيجب علينا السـيطرة

علـى بغداد وسـنقوم بذلك». ولا بد أن يكون هناك قتال شـديد قبل اسـتعادة العاصمة من الشيعة كما قال. «وسيقوم أهل الأنبار بالتعهد بهـذا التطهير. ففيما فشـل العالم بأسـره من القيام بـه فعلناه بين ليلة وضحاها. وبغداد ستكون أسهل».

يبـدو أن الكثيـر مـن اللاعبين في العـراق مثل زيـدان قد أعدوا أنفسـهم للمعركة القادمة. وبينما أصدر الشـيعة تحذيرات حول نوايا السـنّة مع الأمريـكان إلا أن مجمل الحديـث كان عن جيش المهدي وراعيته سـيئة الصيت إيران التي اتهمها بترايوس بشـن حرب بالنيابة في العراق. وكانت هناك إشارات إلى القاعدة كقوة مستنفذة.

قال العقيد بيرتن: «إن القاعدة هي أمر سهل مقاتلته نسبياً. فأنت تحاربهـم فقط وتحـول دون حصولهم على أي تقـرب». لكن جيش المهـدي كما قال «أصعب». وبجميع الحسـابات فإن جيش المهدي والميليشـيات الشـيعية الأخرى كانت قد تخللت ضمن قوات الأمن العراقية وإن الحزب السياسي للصدر كان شريكاً متذبذباً في حكومة رئيس الـوزراء نوري المالكـي التي يهيمن عليها الائتلاف الشـيعي. وقـال بيرتـن: «لقـد بدأنا بالتحقيـق مع قـوات الأمن العراقيـة وبدأنا نرصدهـم ونرصد قادتهم وكذلـك نرصد أفراد الحكومـة العراقية». (وقـد شـملت حالة واحـدة سـيئة الصيت للتـورط الرسـمي بالقتال الطائفـي وكيل وزيـر الصحة ومدير أمـن وزراة الصحة. ففي شـباط ألقـي القبض علـى رجال هم شـيعة وموالـون لمقتدى الصـدر بتهم تنظيم جرائم قتل لمئات السـنّة في مستشـفيات بغـداد – بما في ذلك مرضى وأقاربهم وموظفو الصحة).

وبالإشـارة إلى جيش المهدي كما يفعـل أغلب الأمريكان قال بيرتن: «تحدثـت مع بعض هؤلاء كما تعرف. ولدي الاتصال بالبريد الإلكترونـي مع بعضهم. وأخبرني شـيخ فـي الكاظمية مؤخراً أني لو

أطلقت سراح ثلاثة من أفراده فلن تكون هناك هجمات على القوات الأمريكية» ورفع حاجبيه.

إن سيطرة السلطات الشيعية على الخدمات الحكومية كان يعني أن هناك مقداراً كبيراً من التمييز المؤسساتي ضد الجماعات السنّية. فمدينة الغزالية السنّية مثلاً تعاني من نقص كبير في الطاقة الكهربائية، وحين كنت هناك رأيت أن ساكنيها لا يتمتعون في الغالب إلا بساعتين في اليوم فقط من الكهرباء مقارنة بأربع ساعات في منطقة شيعية مجاورة. وقام الأمريكان بطرق متعددة من السياسة لتحسين هذا الوضع، إلا أنه لم يكن من السهل القيام بذلك. وقال بيرتن: «من ناحية الشيعة هناك الكثير من الأموال يتم تداولها والخدمات الأساسية جيدة حقاً. إلا أنها ليست كذلك في الجانب السنّي».

لقد كانت الاستراتيجية الجديدة مثل أغلب الاستراتيجيات السابقة المستخدمة في العراق خلال فرضها من قبل الأمريكان. فالعديد من السياسيين الشيعة في حكومة العراق كانوا غاضبين من قرار الولايات المتحدة بعزل مناطق بغداد وتجنيد مجاميع من المتطوعين السنّة وتسليحهم من دون استشارتهم – مما يقلل من شأن سلطة حكومة الائتلاف الهشة التي يهيمن عليها الشيعة. وقد يكون ذلك جزءاً من الهدف. فالعراق مع مائة وسبعين ألفاً من القوات الأمريكية على أرضه هو ليس بلداً ذا سيادة وإن الولايات المتحدة تستخدم قوتها العسكرية لصياغة المشهد السياسي العراقي. وبتقوية يد السنّة تكون الولايات المتحدة قد أجبرت حكومة المالكي على دمج سنّة أكثر في القوات الأمنية – وهي الخطوة الحقيقية نحو المصالحة الوطنية.

إن احتمال وجود ندٍّ مساو من الصحوة السنّية هو أمر تعقد بسبب حبائك الأحزاب والميليشيات الشيعية السياسية، وإن ذلك

يتطلب انقساماً ضمن المجتمع الشيعي – أي حرب أهلية ضمن الحرب الأهلية. كما أن إيران ستكون عاملاً كبيراً. فلو أخذنا بالاعتبار ادعاء الصلات الوثيقة للصدر مع المتشددين الإيرانيين وكذلك العداء المتزايد بين إيران والولايات المتحدة فسيستحيل التكهن بتحركاته المستقبلية. إن صراعاً خفياً بشكل كبير يدور بين إيران والولايات المتحدة. وقد تدخلت إيران في العراق من خلال الدعم المالي والعسكري لمجاميع الميليشيات الشيعية وبشكل مباشر أكثر بإرسال الضباط والمسؤولين إلى هناك. لقد كان لزعماء الشيعة في العراق صلات قوية مع إيران منذ وقت بعيد، حيث عاش العديد منهم في المنفى في عهد صدام، وقد حاولوا ومعهم الأكراد وبدون نجاح إيجاد تعاون أكبر بين إيران والولايات المتحدة حول قضية الأمن في العراق. وفي الوقت ذاته يشعر العديد من السنّة بعدم الثقة بأي تعامل مع إيران.

لقد طرح الشيخ زيدان رؤية عن كيفية تأثير الصراع قائلاً: «أعتقد أن أمريكا ستكون قادرة على الشروع بحرب أهلية شيعية – شيعية في الجنوب – مع العرب الشيعة من العشائر تدعمهم الولايات المتحدة والشيعة الفرس تدعمهم إيران». وقال إن تلك ستكون مناسبة للأمريكان «لقطع رأس الحكومة الإيرانية وميليشياتها في العراق». ويمكن للسنّة أن يقدموا المساعدة في هذا القتال كما أشار.

إن سيناريو زيدان يعتمد بمدى كبير على كيف سيختار الأمريكان والإيرانيون صياغة صراعهم المستمر من أجل النفوذ. إلا أن آراء زيدان يشاطره فيها العديد من أفراد المجتمع السنّي حيث لا تزال المواضع المتشددة تمسك بزمام الأمور. في إحدى نقاط السيطرة في الغزالية تحدثت مع أحد أفراد الحماية، وهو شاب سنّي في السادسة والعشرين من العمر، عرّف عن نفسه أنه الضابط أحمد. أخبرني أنه يعتقد أن تطهيراً للشيعة من بغداد مثل الذي اقترحه زيدان

هو فكرة جيدة. وحين سألت الضابط أحمد كيف أن منطقته تحولت من كونها قلعة للعصيان إلى نموذج للتعاون فقد كان جوابه غامضاً. قال: «حين بدأ أفراد حماية الغزالية بعملهم اختفى الإرهابيون. ولا نعرف أين هم الآن». وقال إنه كان في مكان ما خلال القتال ثم عاد فقط حين انتهى.

لقد وجدت أن قصة الضابط التي كانت من الماضي القريب – والتي حاول فيها أن يختفي حتى تظهر الأمور للعيان – غير مقنعة. ففي أغلب محادثاتي مع العراقيين العاملين مع الأمريكان كانت هناك مجهولية حول نواياهم الحقيقية. فالأمريكان الذين قادتهم الحاجة الملحة لإقامة أمن أكبر لأجل سحب قواتهم يبدون من دون شك راغبين في أخذ حلفائهم الجدد بالمعنى الظاهري.

شنّ بروكس ورجاله من محطة (ثرشر) الأمنية عدة غارات خلال عدة مرات في هذا الأسبوع، وعادة ما تكون بعد حلول الظلام. وتعتبر هذه الغارات جزءاً مركزياً من استراتيجية الاندفاع. في منطقة (ثرشر) تكون هذه الغارات بناءً على معلومات من سكنة المنطقة ممن يتصلون على خط ساخن وعلى مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم حيث ينقل هذه المعلومات مترجمون عراقيون يدعون (Terps) مموّهون. وخلال الدوريات اليومية يوزع رجال بروكس قصاصات من الورق كتب عليها أرقام هواتف. وقال بروكس: «نقول لهم إن هدّدك أحد اتصل بنا. وتعتبر الدوريات الراجلة هي المفتاح. فحين ترى شخصاً يمشي في شارعك هو غير أن ترى وجهاً عابراً فإنه أمر مختلف». وكآمر في سلاح الدروع فقد كان الشيء الأول الذي تعين عليّ القيام به هو إخبار طاقم الدبابة بالخروج والتمشي «وجدت ذلك مضحكا». قال بروكس إنه أراد أن يكون آمر دبابات منذ أن كان طفلاً («أنا أحب الدبابات»). وبعد الثانوية في مدينة سبرنغديل في ولاية أركنساس كان قد ذهب إلى

المعهـد العسـكري في نيومكسـيكو في روزويل، وبعـد ذلك انضم إلـى الحرس الوطني في أركنسـاس. وكان في فصيلة تدريب ضباط الجيش الأمريكي خلال هجمات الحادي عشـر من سبتمبر وشارك في الغزو الأمريكي للعراق كآمر دبابات. وقد قضى أحد عشر شهراً في دورته الثانية البالغة خمسة عشر شهراً. وقد قيل له ولرجاله إنهم قـد يعودون إلى الوطـن لأجل أعياد الميـلاد، إلا أن أحداً لم يحقق أمله. في إحدى الأمسـيات ذهبت في غـارة كان بروكس قد أعطاها اسـماً حركياً هـو (عملية شـرائح الضأن) لأن الهدف الرئيسـي كان رجلاً له لحية كبيرة. قدنا عجلة البرادلي المدرعة من (ثرشـر). كان الأمريكان قد فرضوا مفرداتهم على جغرافية المنطقة وذلك لجعلها مفهومة لديهم، فالغزالية كانت مقسـمة إلى ثلاث مناطق هي كازينو وثرشـر ومافريك – وكافة الطرق المؤدية إليها كان يشـار إليها بلغة وزارة الدفـاع مثـل الصقـر الأحمـر وكارادين وفيرنـون وسيسـيل وحليـف اربي جي وطريق الضغـط العالي وهكذا. وقليل من الجنود الأمريكان يعرفون كيف يشير الناس المحليّون إلى هذه الطرق.

حين فتحت الباب الهايدروليكية الخلفية لعربة البرادلي رأيت الجنـود العراقيين والأمريكان يركضـون هنا وهناك ويصرخون وقد سـحبوا أسـلحتهم. تبعـت بعـض الجنود إلـى الـدار المقصود. في المطبـخ كان جندي أمريكي شـاب بكامل بزته القتاليـة ينحني فوق رجـل مطـروح ووجهـه علـى الأرض. كان الجنـدي يسـب ويلعن حين كان يحاول ربط أيدي الرجل وراء ظهره بالقيود البلاسـتيكية. وكانـت هنـاك صحـون طعـام أكل نصفها علـى المنضدة مـع جهاز هاتـف نقـال رنّ عـدة مرات. وفـي غرفة مجـاورة كان هنـاك رجل آخـر مرمـي على الأرض. ودخـل مراهق يبـدو أنه الشـقيق الصغير للرجليـن إلـى المطبخ وبـدأ بالاعتراض. فكبّلـه الجندي الأمريكي أيضاً. وصرخ الجندي الذي طوّح بوجه الشـاب على الأرض وبلغة انكليزيـة: «Shut the fuck up! Move your fucking head».

ظهرت امرأة في منتصف العمر ترتدي ثوباً مزهراً تولول حين تم اقتياد الأخوة الثلاثة إلى الخارج. وقد أجبروا على الركوع وأيديهم المكبلة وراء رؤوسهم. وحمل مترجم ملثم صورة قرب وجه كل واحد منهم. وبينما كان الجنود الأمريكان يفتشون المراهق الذي ظهر الزغب على حنكه وتمتم: «هذا ليس شريحةالضأن».

اقتيد الرجال الثلاثة في الشارع بشكل قاس من قبل الجندي الشاب. (كان هذا الجندي الوحيد الذي رأيته يتصرف بهذه الطريقة. ثم حينما قام بتوبيخ النساء في بيت آخر أخبره أحد الضباط بأن يهدأ). وبعد استشارة أكثر بين الأمريكان ومترجميهم الملثمين تقرر أن أحداً من المحتجزين الثلاثة ليس هو الهدف المطلوب للمداهمة. فقطعت قيودهم وقيل لهم إن بإمكانهم العودة إلى بيوتهم.

حول الأمريكان الآن انتباههم إلى ثلاثة رجال آخرين كانوا يجلسون في حاجز، واحد منهم كان شخصاً بالغاً متيناً. وكان معه شاب نحيف ملتح في بداية العشرينيات ورجل آخر في الثلاثينيّات.. لقد أوضحوا أنّهم كانوا يجلسون في الخارج في الهواء الطلق ليتبادلوا أطراف الحديث ويدخنوا السجائر. نهضت عوائلهم مع العديد من الأطفال من النوم. أطلق الأمريكان سراح الولد الذي كان عمره أربعَ عشرةَ سنة ليذهب إلى أبيه إلا أنهم أخذوا الاثنين الآخرين معهم إلى (ثرشر). تسلقت إلى عجلة البرادلي مع أكبر المحتجزين الاثنين سناً وقد أجلس على مصطبة بالقرب مني وكبلت يداه وكان يرتجف. انحنى الرامي في عربة البرادلي إلى الخلف وأمسك بفانيلة المحتجز وسحبها على رأسه مثل اللثام. جلس الرجل المشوش متصلباً وفتح فمه أمام الثوب على وجهه كما لو كان يساعد نفسه على التنفس.

كنت أعرف شخصاً عراقياً بدأ العمل مع الأمريكان في إحدى

القواعد التي كانت بإمرة العقيد بيرتن منذ أن تم الشروع بالاندفاع. سأدعوه كريم. إنه شيعي ويعيش في منطقة من بغداد تقع شرق الغزالية فيها خليط من السنّة والشيعة. قال كريم إن لديه صديق سأدعوه عامر (أسماء أخرى في حسابهم قد تغيرت أيضاً) دعا الأمريكان إلى أكثر من أربعين مداهمة نجم عنها إلقاء القبض على دزينة من الإرهابيين.

قال كريم في البدء إنه رحب بجيش المهدي لأنه قدم سياقاً من الحماية ضد المتطرفين السنّة. إلا أن الميليشيات قد حولت نفسها إلى شيء أشبه بالمافيا تسلب الأموال وتخطف الناس وتقتلهم من الشيعة والسنّة. فرجال جيش المهدي في منطقتهم الذين يعتبرونهم أصدقاء ليس لديهم أية فكرة أنهم قد حولوهم إلى منتقمين. ثم أخبرني كريم أنَّ جيش المهدي لم يكن وحده الذي كان يخدعه بل الأمريكان كذلك، ولذلك فإنه يجيز لنفسه ما يفعل.

كان عامر صديق كريم لمدة طويلة. فقبل ثلاثة أشهر كان عامر وشقيقه الكبير جعفر يركبون سيارة (Van) تعود إلى صديق يدعونه السيد، حينما أوقفتهم مجموعة من المسلحين. عرف عامر أنهم رجال جيش المهدي وافترض أنهم سيأتون ليلقوا التحية. وحين أوقف السيد السيارة فجر إطلاق نار كثيف زجاج السيارة. انبطح عامر قدر ما يستطيع حين أفرغ رجال جيش المهدي رشاشاتهم الكلاشنكوف، ولم يصب عامر لكن جعفر والسيد قتلا على الفور.

في تلك الليلة أخبر عامر كريم أنه أقسم في المشرحة وعلى جثة أخيه بالانتقام. وأقسم بأنه سيقتل مائة رجل من جيش المهدي – عشرة لكل إصبع من أصابع جعفر. وقد أيدته والدته أم جعفر وتوسلت لكريم أن يساعد ابنها فوافق.

القلق الأول لديهم كان التأكد أن جيش المهدي لا يشك بهم. وفي جنازة جعفر صرخوا بشجب غاضب على عشيرة سنّية كانت

تسكن بالقرب منهم. فانتشر الخبر أن عائلة عامر وأصدقاءه قد أنحوا باللائمة على السنّة في مقتل أخيه.

كما قرر كريم وعامر أن الأمر سيكون أسهل عليهم تنفيذ القتل إن حظيا بثقة الأمريكان. ذهب كريم إلى قاعدة عسكرية أمريكية قريبة وتحدث مع النقيب الذي أخبرني باسمه. «أخبرت النقيب قائلاً: أنت تساعدني وأنا أساعدك، وأنا أحب بلدي وجيراني. إن جيش المهدي قتلوا العديد من أصدقائي والعديد من الجنود الأمريكان أيضاً. إني أريد أن أتعاون لمواجهتهم». أعطى كريم الضابط أسماء اثنين من الرجال الذين قتلوا جعفر. وقال النقيب إنه لو تم حجزهم فإن كريم سيكسب بعض المال. فرفض: «لو أخذت المال فإن ذلك سيجعلني جاسوساً وأنا رجل محترم ولستُ جاسوساً».

جعل كريم الضابط على صلة مع عامر الذي وجّه الجنود الأمريكان إلى بيوت الرجلين المسلحين. كانت العملية غاية في النجاح. قال كريم: «لقد وجدوا العديد من المسدسات والرشاشات. فأخذوهم وحققوا معهم وكانوا مقتنعين بأنهم قتلة. كان أحدهم صغيراً بعمر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً، وكان قد قتل خمسة أو ستة أشخاص. كان مبتدئاً. وهو الآن يقبع في سجن بوكا، وهو سجن أمريكي في المنطقة الجنوبية من العراق.

أخبرني كريم: «عندئذ بدأ القتل» وكان أول ضحية لهم هو والد المسلح الصغير. وحين سألته ما إذا كان للأب أية علاقة بمقتل جعفر فبدا غير مهتم وقال: كلا إلا أن الرجل كان ضابط مخابرات في عهد صدام وربما كان قد قتل الناس أيضاً. (في عرف العشيرة في العراق يعتبر أقارب الرجل أهدافاً مشروعة). وكان الأب يعمل كسائق تكسي. قال كريم لشقيقة عامر أن تلوح للأب حين تترك الدار وتطلب منه أن يوصلها إلى مخزن في إحدى ضواحي منطقة سنّية.

«فتبعناه أنا وعامر. فخرجت وعبرت الشارع فأخبرت عامر، قم بذلك الآن».

قاد عامر السيارة أمام سائق التكسي وقاطعه: «وخرج عامر من السيارة وأطلق النار عليه في الوجه. لقد وضع خمس طلقات دمدم وأربع طلقات اعتيادية من مسدسه طراز سيغسور. لقد كانت طلقة دمدم واحدة كافية لقتل الرجل. أخبرته أن يطلق فقط أربع طلقات وأن يحتفظ بالبقية لأي تحسب إلا أنه أطلقها جميعاً». (بعد ذلك وحسب قول كريم «اعتذر عامر. وقال لم أستطع أن أمنع نفسي لقد كنت مجنوناً»). بعد ذلك ذهبا إلى شيخ سنّي كان كريم يعرفه وكان شقيقه مع المسلحين. لقد خطف الأخ ورجاله ستة من ميليشيات جيش المهدي بمن فيهم أربعة كانوا في المجموعة التي قتلت جعفر. لقد أخذوهم إلى بيت في المنصور وهي منطقة سنّية. وقال كريم: «لقد تم ربطهم وغطيت وجوههم وضربهم عامر كثيراً ولست أنا». «لقد ادعينا أننا من المجاهدين السنّة وأخبرتهم: إن اخبرتمونا بالحقيقة فسنطلق سراحكم وإن لم تخبرونا فسنقتلكم. بالطبع لم تكن تلك الحقيقة».

قال الرجال إن السيد كان هدفهم وصادف أن جعفر كان في السيارة. «قالوا إنهم قتلوا السيد لأنه كان عضواً في بدر» – الجناح العسكري للمجلس الأعلى للثورة الاسلامية وهو تنظيم منافس للتيار الصدري – «وكان يعمل مع الأمريكان. لكن ذلك غير صحيح. لقد قتلوه لأنه كان غنياً ولم يحترم جيش المهدي. لقد كانوا يشعرون بالغيرة».

أخبرني كريم أنه غادر قبل انتهاء الاستجواب ولم يتحدث مع عامر إلى حين اليوم التالي. «حين رآني قبلني وقال: تركت ثلاث جثث قرب السكة واثنتين في شارع القناة حتى يتم أخذهم إلى المشرحة».

«قلت رقم 6 أين هو؟» قال عامر: «أخذه أخو الشيخ لأنه يعتقد أنه قتل ابن عمه».

استمر القتل. وبعد خمسة عشر يوماً ذهبا إلى أم جعفر أي أم عامر. قال كريم: «أخبرتها عن من تم قتله وعن من هو في السجن وكانت سعيدة جداً». ثم قالت: «تريدوني أن أكون مرتاحة جداً؟» طلبت منهم أن يجلبوا لها أجزاء من جثث الرجال الميتين. وقام عامر بما طلبت.

قال كريم: «قطع عامر أذن رجل حين كان لا يزال حياً، لكني أقسم أن عامر لم يقتل أي واحد بريء».

قال كريم إن عامر وبمساعدة منه كان قد قتل ثمانية عشر إلى عشرين رجلاً. وبعد فترة أخبرت عامر أن يوقف ذلك. وكانت زوجتي أيضاً غاضبة مني. لم أكن أحب القيام بذلك، ولكن كان يتوجب علينا القيام به. كان علينا قتل هؤلاء الأشخاص لأنهم كانوا يقتلون العديد من الناس. وحين قتل بعضاً منهم احتفل جيراني بل حتى إن بعض رجال جيش المهدي قد احتفلوا بذلك».

ذكر كريم نقيباً أمريكياً كان عامر قد عمل معه وقال: «عامر صديق لنقيب لكنه لم يكن يعرف بذلك». وأضاف: «كان عامر صديق جيش المهدي – صديقه الحقيقي. ولا بد أن أكون صادقاً معك فإن لم يكن الأمر من أجل مقتل جعفر فلا بد أن يكون ذلك».

قال عامر لكريم إنه لن يتوقف عن القتل حتى يصل إلى هدفه بقتل مائة ضحية. قال كريم: «كان جائعاً للقتل وأعتقد أحياناً أنه قد أصيب بالجنون».

في الأيام التالية أكدت أن عامر كان يعمل مع الجيش الأمريكي، كما سمعت أنه قد تم استخدامه من قبل متعاقد عسكري خاص كبير. إن قضية عامر تقلل من شأن واحد من العديد من المخاطر لخوض حرب على أرض تكون فيها الحضارة واللغة غير مفهومة لدى أغلب

الجنـود. إن الجيش الأمريكي لا يسـعه سـوى القيام بالشـيء القليل من دون مسـاعدة الحلفاء المحليين على كل مسـتوى من المتعاونين أمثـال عامـر إلـى القـادة السياسـيين. فخـلال مداهمـات الأمريكان المسلحة بدت نقطة الضعف لديهم واضحة للعيان. فغالباً ما يصحب الأمريـكان المترجمين الملثمين الأشـباح. وهؤلاء غالبـاً ما يعملون علـى رؤوس أقلام مصادرها غامضـة ومن دون أن يعرفوا ما وراءها. ومن بيـن العراقيين الذين التقيتهم ممن كانـوا يعملون مع الأمريكان بـدت الدوافع تتراوح من الدوافع المالية – وظيفة وراتب جيد – إلى الدوافع الوطنيـة أو كلاهما. ولكن بنطاق أكبر فإن ولاءاتهم المطلقة يجب أن تؤخذ على محمل الإخلاص.

لقـد كانت هناك بعـض الإرباكات المعلنة مثلاً حينما رشـحت قـوات المارينـز الأمريكيـة ضابطـاً برتبـة لـواء سـابق فـي الحـرس الجمهـوري العراقـي لقيادة ميليشـيا ما تسـمى لـواء الفلوجة وذلك لمحاربـة المسـلحين هنـاك عـام 2004. واتضـح أن هذا اللـواء كان متورطـاً بشـدة فـي أعمال العنـف في عهد صـدام ضد الأكـراد. فتم اسـتبداله بسـرعة، وبعد أشـهر تم حل اللـواء حين وقع ضمـن دائرة الشك لمساعدته المسلحين.

إن روح القتل لدى عامر قد تبرز هذا النوع من المشاكل بالنسبة إلـى الجيـش الأمريكـي – بافتـراض أن ضحاياه هم حقاً «سـيئون». فـي الحـروب يتطلب القتـل نوعاً مـن المنطق العكسـي، وفي بعض الأحيـان يمكـن النظر إليه كجزء من الحل. وقـد أوضح العقيد بيرتن لـي أنه لم يتأسـف في أن يسـمع أنه فـي المنطقة التي تحـت إمرته تم «مسح» قائد ميليشيا شيعي سيء الصيت حسب تعبيره. فلو انتهى هذا القائـد فإن ذلك يعنـي أن منطقة كبيرة كانت متأثرة بـه قد أبعدت عن نفوذه». وأشـاد بيرتن على أية حال بأن اغتيال قائد الميليشـيا الشيعي كان ضمن سلسـلة مـن القتول الانتقامية الطائفيـة. وكان يتعين وضع

المنطقة تحت «سياسة عدم التحرك». (وكما حدث فقد علمت أن قائد الميليشيا قد قتل من قبل الشخص نفسه الذي ساعد عامر على خطف ستة من ضحاياه – أي الذين قام بتعذيبهم قبل أن يقتلهم).

بعدئذ أخبرت العقيد بيرتن أني كنت قد سمعت عن عراقيين يعملون لصالح الأمريكان ومعهم وهم متورطون بقتول الانتقام. فأجاب: «دعني أضع الأمر بهذه الطريقة: أنا أعرف أننا نعمل مع أناس وفروا لنا معلومات أدت إلى إلقاء القبض على مجرمين والاستيلاء على مخازن أسلحة. بعض هؤلاء الناس نفسهم قد دعونا وقالوا إنهم يعرفون أين يمكن أن نجد بقايا أناس كنا نبحث عنهم. هناك شكل من العدالة في العراق هو تقليدي، إلا أننا نقوم ما بوسعنا لنسبق ذلك».

إن الثأر العشائري وقتل الشرف هما سمة محددة لحرب العراق منذ أن بدأت. إن قصة عامر قد تكون غير اعتيادية في معيار طموحاته – مائة شخص لأجل أخيه – إلا أن مثل هذه الجرائم مألوفة. على الأقل بعض الاندفاع الأولي للعمليات المسلحة في العراق حصلت في نيسان 2003، حين قامت القوات الأمريكية في الفلوجة بقتل (عدد لا أعرف تحديده) من المتظاهرين، وقد قام أقارب القتلى بالانتقام بقتل الأمريكان. في العوائل العشائرية غالباً ما تكون الأم الرئيسة هي التي تشجع على الثأر كما فعلت أم عامر.

لقد كانت أم جعفر امرأة كبيرة وسيمة. وحين وصلت إلى بيتها مع كريم كانت ترتدي عباءة سوداء، ولاحظت وجود وشم عشائري أزرق على حنكها ويديها. دعتني للجلوس على أريكة وجلست إلى جانبي على كرسي. وكانت بنات جعفر الثلاث يراقبننا. وحين سألت أم جعفر إن كانت تريد الانتقام لموت ابنها، نهضت من كرسيها واقتربت وقبلت أعلى رأسي.

قالت: «نعم أريد الانتقام. أنا أم فقدت ابنها لأجل لا شيء».

وبدأت تبكي بانتحاب متكسر عالٍ. وحين استعادت وضعها أشارت أم جعفر إلى حفيداتها «انظر ليس لديهن أب. لماذا؟».

مضت أم جعفر تخبرني أنها أخذت أجزاء من أشلاء ضحايا عامر ولفتها في قطعة قماش وذهبت بها إلى قبره في مدينة النجف المقدسة ودفنتها هناك. «كنت أتكلم مع ابني وأقول له: خذ هذه من الذين قتلوك، لقد انتقمت لك». وقالت بعدما حركت يدها في دائرة أفقية: «لقد وضعتها حول القبر. لقد أخذت يد واحدة وعين واحدة وحنجرة واحدة وأصابع قدم وأصابع يدين وآذاناً وأنوفاً» (أخبرني كريم أن اليد جعلت البيت ذا رائحة نتنة لعدة أيام.) سألتها كم رجلاً من جيش المهدي قد قتل عامر؟ قالت: «لا أعرف ثمانية عشر أو عشرين. ولكن ما زال قلبي يؤلمني حتى وإن قتلناهم جميعاً فلن أستريح».

ومضت أم جعفر قائلة: «الأمريكان قبضوا عليهم ووضعوهم في السجن. وهذا حل واحد، ولكن يجب أن يقتلوا». ثم استدارت نحوي وقالت: «قل للقوات الأمريكية أنا مستعدة أن أقاتل معهم ضد جيش المهدي. أنا امرأة لكني مستعدة لذلك، فحين جئتم إلى هنا فإننا كنا سنضحي بكل شيء لأجلكم لأنكم لم تقتلوا ابني. إنني أصلي للأمريكان – حتى وإن كانوا مسيحيين ويهود – وأصلي على محمد ليحميكم».

قبل أيام قليلة أخبرتني أم جعفر أنها كانت في جنازة مقاتل من جيش المهدي وكانت قد سمعت أحد رفاقه يقسم بأنه سينتقم لأجله: «قال: إذا كنت في السابق أقطع رقابهم فاليوم سأقطع أفواههم»، ألسنتهم، وقامت بحركة قطع عبر فمها.

رنّ هاتف كريم الخلوي فأجاب وبدأ يتكلم بالعربية. وبعد ذلك أخبرني أن المتحدث كان عامر الذي كان خارجاً مع دورية أمريكية. قال كريم ضاحكاً: «إنهم ألقوا القبض على اثنين من

جيش المهدي وجعلهم العاملون مع الأمريكان يرقصون على فوهة المسدس».

سألت كريم إن كان بوسعي أن ألتقي بعامر؟ فقال كريم إنه سينظر في ذلك.

كانت المحطة الأمنية (مافريك) في الزاوية الجنوبية الشرقية من الغزالية هي الأهدأ بين المحطات الثلاث. وحين زرتها في أيلول كان قد مضى شهران على الانفجار الذي حدث هناك. وكانت لا تزال هناك شوارع خطرة جداً للتحرك فيها. وأخبرني أحد الضباط «أنهم يكرهون الهجمات؛ الهراء اليومي مثل جميع الجنود. ولكنهم يحبون ألا يصابوا أو يفجروا كل يوم» – وهو الأمر المستمر الحدوث وظل على ما هو عليه طوال الصيف في الغزالية... لقد بدا الأمر مثل الإدمان كلما حاولنا مواجهته فإنه يعود... إنه مثل الذهاب لاقتلاع الكوكائين... من دون جدوى.

سرنا بعجلة (هامفي) مع طاقمها عبر محطة (مافريك). لم يكن هناك أناس في الشوارع، وقال الجندي الأقدم في الوحدة: «لا أحب ذلك لأنه يجعلني أتوقع أن انفجاراً ما سيقع». مضت عجلة الهامفي في الميدان وتوقفت حين رأى الجنود علبة معدنية اشتبهوا فيها في طريقهم وقد وضع السائق مسافة آمنة واسعة. وبينما مضينا في طريقنا بشكل بطيء بسبب ثقل وزن عجلة الهامفي البالغ ستة أطنان اقتربنا من شارع غطي بمياه المجاري. صرخ أحد الرجال: «مياه آسنة... أووه» فصاح البقية في الهامفي باستياء مشمئز...

في تلك الأمسية خرجت وحدات من محطة (مافريك) في «مهمة جماعية» ـ وهو جزء من برنامج كان الهدف منه خلق سجل مركزي مع صورة بايومترية لكل رجل عسكري يعيش ضمن هذه المنطقة للمساعدة في تشخيص المتسللين. وقد أغلقت الشرطة العراقية نهايتي الشارع بينما شرع الأمريكان ومن معهم من العراقيين

بتفتيش كل بيت. ويبدو أن الساكنين يعرفون ما كان متوقعاً منهم. فتقدم الرجال بشكل مؤدب وقدموا هوياتهم وأخذ أحد العسكريين صورهم بكاميرا مسح قزحية.

من الناحية النظرية تمثل عمليات كهذه فائدة تحرك الجنود الأمريكان إلى المناطق المجاورة مثل الغزالية حيث يكون بوسعهم بناء علاقات وجمع معلومات قيمة. وكان إجماع تلك الليلة مدنياً بما فيه الكفاية. لكن المداهمات المستمرة والدوريات يمكن أيضاً أن تبعد الساكنين المحليين وترسخ الانطباع عن الأمريكان باعتبارهم قوة قسرية ذات إمكانيات هائلة لمداهمة بيوت العراقيين واحتجازهم حيثما شاؤوا. وفي أسوأ حال فإن تكتيكات الجيش يمكن أن تصبح المحفز الذي يقود العراقيين إلى التمرد.

إن منطقة الغزالية التابعة لمحطة (مافريك) ليس فيها قوة طوارئ، لذا فالجنود كانوا يستخدمون الشرطة العراقية الوطنية التي يهيمن عليها الشيعة. كما يشك بأن الشرطة المحلية في الغزالية تقع تحت سيطرة جيش المهدي. وقد تم مؤخراً إلقاء القبض على قائد الشرطة المحلية واتهم بمساعدة جيش المهدي على تنفيذ عمليات الخطف والقتل. وقد تم تعيين قائد جديد للشرطة هو العقيد إحسان، غير ان الفصائل بقيت مصدر قلق. يقول الملازم ماثيو زيندرهوف الذي قاد المهمة الجماعية: «إن أحداً لا يثق بهم». (الشكاوى تسير في اتجاهين: فقبل يومين وفي منطقة مافريك قامت هناك ناقلة تابعة إلى قوة هالليبرتن بمداهمة العوائق التي يسيطر عليها رجال الشرطة المحلية وقتلت أحد رجال الشرطة بينما أصيب الآخر بجروح بليغة. وقد مضت الشاحنة من دون توقف وتم التحقيق في الحادث).

وفي طريق العودة إلى (مافريك) سار الرتل قرب مجموعة من رجال الشرطة العراقية الذين بدت عليهم علامات الاستياء

عنـد الحاجز فانسـحبوا إلى أمـام دار من الطبقة الوسـطى. ففتح ولد صغيـر الباب مبتسـماً حين رأى المـلازم هولزنـدروف. دخلنا الدار وحيانا رجل في الثلاثين من عمره بشـكل حار سأسـميه عمر والذي يعمـل مهندسـاً مدنيـاً في المنطقـة الخضـراء. وبعد أشـهر قليلة كان هولتزنـدروف قـد أنقـذ وليـداً من عمليـة خطف من قبـل حظيرة في الشـرطة المحلية كانت في الشـارع – وهم الذيـن مررنا بقربهم. فقد ضربوه بشـكل شـديد وربما خططوا لقتله. لقد أوضح هولتزندروف أنـه كان بصـدد زيارة عمر بشـكل منتظـم لكي يعطي إشـارة بأنه كان تحت الحماية الأمريكية.

كان عمر يتصبب عرقاً وهو يسـأل هولتزندروف بلهفة عن سـر انقطاعـه عن تفقـده طوال المدة: أيـن كان. فقد مضى أسـبوعان منذ زيارتـه الأولى. أوضـح هولتزندروف أنه كان في الاسـتدعاء، إلا أنه قـال إنـه طلب مـن رجاله أن يمـروا عليـه كل بضعة أيام. وقـد فعلوا ذلـك، أليـس كذلك؟ أومأ عمر برأسـه وابتسـم، إلا أن يديه ترتجفان وبعـد قرابـة ثلاثين دقيقة ورغم توسـل عمر بالبقاء فتـرة أطول وقف هولتزندروف واعداً بالعودة.

بعد ذلك ناقشـت قضية عمر مع أحـد ضباط الوحدة. إن تطوير قـوة شـرطة محليـة غيـر طائفية هـي جزء أساسـي من خطـة الجيش الأمريكـي لفك ارتبـاط وحداته، لكن كما رأى الضابط فإن الشـرطة كانت لا تزال تشـكل جزءاً من المشـكلة. قال: «رجاءً لا تطبع اسمي وإلا قتلني بترايوس. فيفترض أن تكون الشـرطة المحلية مخلصنا. إذ إن جميع آمالنا معلقة بهم». وأضاف: «إن موازنة الشـيعة والسـنّة تُعدّ أصعب جزء من عملي، قم باصطياد هذا الشـخص السـيئ، اقتل هذا الشـخص السـيئ – حسـناً، هذا ما تدربت على القيام به هنا، إلا أنهم لم يدربوك على ذلك هناك».

إن العقيـد إحسـان رئيـس الشـرطة المعيـن حديثـاً فـي منطقـة

(مافريك) هو رجل دقيق في مراعاة الشكليات، في الثلاثين من عمره. وحين انضممت إليه للتمشي هذا المساء في شارع يبعد بضعة مجمعات من (مافريك) شممت عطر ماء الكولونيا. لقد صاحب العقيد إحسان الرائد روبرت أوبراين الضابط الأمريكي المسؤول عن انتقال فريق الشرطة المحلية المعروف اختصاراً بـ .N.P.T.T.

كان للعقيد إحسان ثلاثة رجال حماية حوله، وحين اتجهنا إلى الشارع الذي كان مزيجاً من البيوت والمحلات أبدى إحسان مودته إلى أصحاب الأكشاك. ومن أحد المحال أخذ قطعة حلوى ووضعها في فمه ثم انحنى ليداعب شعر أطفال صغار. وبينما كان يمضي سائراً تقدم منه أحد الرجال الكبار في السن فتحلق حوله رجال الحماية. اشتكى الرجل من أن سيارة شرطة عراقية قد صدمت سيارته. أنصت إحسان ومن ثم وبصوت عالٍ قال: «أيها الرائد».

تقدم أوبراين قائلاً بشكل يحترم مشاعر الاخرين: «نعم سيدي»... أخبر العقيد إحسان أوبراين أنه أراد إلقاء القبض على رجل الشرطة المعتدي. قال أوبراين: «نعم سيدي» وهو يكتب في دفتر ملاحظاته. وحين مضينا في طريقنا تكرر هذا المشهد مرات ومرات... أعطى إحسان أوامره إلى أوبراين الذي كتبها بشكل غامض. من جانب تبسم أوبراين في اتجاهي وقال: «هذا هو السحر، نعم!».

بعدئذ سألت أوبراين عما يعرفه عن العقيد إحسان. قال أوبراين: «كل ما أعرفه أنه كان قبل أربع عشرةَ سنة في القوات الخاصة في جيش صدام وانضم إلى الشرطة العراقية عام 2003». لقد عرف بعضهما الاخر قبل أسبوع ونصف، ورأى أن إحسان رجل «رائع».

قلت: إن إحسان يبدو متمتعاً بدور الرجل الكبير.

رمقني أوبراين بنظرة وقال بهدوء: «انظر إن ذلك مفيد وهذا ما أحتاجه. إني أريده أن يكون مسؤولاً. بعض المستشارين يريدون

القيادة ولكننا نحتاجهم لـ...»، ثم توقف لبرهة وتابع: «إن الأمر يشبه التزلج على سطح الماء باستثناء أننا هنا نتزلج على قمة موجة عاتية ونحن نحاول فقط ألا نسقط في العمق». ضحك أوبراين وقال: «صدام حسين قال مرة إن وسيلة مقاومة التمرد على النظام هي بتحصين الناس وتوفير حاجاتهم. وهذا ما نحاول القيام به هنا. فلو أحب الناس ما نقوم به أكثر مما يقوم به الآخرون إذاً فلديك الفرصة».

كان الأمريكان يأملون أن يكون رجال حماية الغزالية، وهم جماعة من المتطوعين السنّة، قوة الشرطة الجديدة. ولكن كانت هناك بعض التعقيدات أيضاً: فالجنرال بترايوس قد أبرز الحماية كإنجاز كبير، إلا أن الشيعة كانت لديهم نظرة مختلفة... فقد قال أحد مسؤولي المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق: «إن السياسة المتخذة من قبل الحكومة إلى جانب الائتلاف هي حل جميع الميليشيات المسلحة». وأشار إلى أن القوة الأمنية في العراق كانت عبارة عن «كيان ضعيف ومريض» تسيطر عليه الميليشيات وهو بحاجة إلى الإصلاح. «لكن الحل ليس بجلب قوات عديدة إلى الساحة، قوات يشك بها الناس».

فالأمريكان، كما قال المسؤول الشيعي، كانوا يسلحون المتطوعين السنّة من دون أن يدققوا في خلفياتهم (إن كانت لديهم أية خلفيات).

«فهناك العديد من القصص تشير إلى أن بعض هؤلاء المنخرطين في الصحوات كانوا معروفين كمجرمين خطرين جداً في مناطقهم». وأشار إلى مجاميع التيار السنّي المتشدد مثل كتائب ثورة العشرين والجيش الإسلامي الذي انضم أعضاؤه إلى مجاميع المتطوعين. وأضاف: «وها هم الآن يتمشون مسلحين بالأزياء العسكرية والباجات التي تسمح لهم بالذهاب إلى أماكن يسمح في

الوصـول إليها فقـط للقوات الأمنيـة العراقية، فلا بـد أن تكون هناك آليـات لضمان أن تكون ولاءات الناس إلـى العراق وحكومته – قبل أن تتفاقم قوتهم ويحظون بمناطق نفوذ».

وفـي صباح يوم من شـهر أيلول تجمع فـي الغزاليّة بضعة أفراد مـن حمايـة المنطقة للالتقـاء بالنقيب بروكس. وكان هـؤلاء يرتدون فانيـلات صفراء باهتة وبنطلونات خاكية وقبعات بيسـبول بيج، وهم بذلـك يشـبهون رجـال الحرس فـي مضمـار الغولف. أمـا علامتهم المميـزة الوحيدة فقد كانـت الباجات الصغيرة على الكتف التي ترمز إلى العلـم العراقي. (أخبرني العقيد بيرتن: «هؤلاء الأشـخاص الآن فـي الغزاليـة وهم رجـال جيش زيهم جيـد وحرفيتهم جيـدة وكانت غالبيتهم مـن افراد الجيش العراقي السـابق»). أما قائدهم وهو رجل فـي منتصـف العمر يحمل دفتـر ملاحظات فقد حيـا النقيب بروكس باهتمام.

لقد كان ذلك يوماً مهماً بالنسـبة إلى أفراد الحماية. فبعد ثلاثة أشـهر من إشـراف الجيش العراقي كانوا على وشـك أن يسمح لهم بغلـق الطـرق أمام السـابلة – وهذا يعد نوعاً مـن التحول الذي أقلق المسـؤول الشـيعي. فقد قاد قائدهم بروكس إلى بضعة مواقع حول التقاطـع الـذي اقترحه أن يكـون بمثابة نقـاط سـيطرة للحماية. في بـادئ الأمـر نظـر بروكس حولـه وقال: «أنـت لا تريـد أن تقاتل من هنـا بـل تريد مكانـاً يمكنـك اللجـوء إليه». فأشـار ضابـط الحماية إلـى صف من الأبنية واقترح أن ذلك سـيكون مكانـاً مثالياً كمكتب للحماية حيث سيكون بوسع رجاله أن يرتاحوا. أجابه بروكس: «أنا لا أريـدك أن تتماهـل» وبـدلاً عن ذلك ينبغـي أن يقيموا كشـكاً في السوق مع مظلة.

مضـى النقيب بروكس في طريقه، وجاءه صاحب محل وأشـار إلـى ميـاه المجاري في الشـارع. أجـاب بروكس أنه سيرسـل بطلب

سيارة سحب مياه المجاري لتزيل تلك المياه. واشتكى رجل آخر من الكهرباء، وقال ثالث إن المنطقة المجاورة بحاجة إلى سيارة مياه «لإخماد الأتربة في الشارع». أدار بروكس نظره وقال: «بوسعي أن أصلح الكثير من الأشياء لكني لا أستطيع أن أفعل شيئاً بشأن التراب».

وبعدما تحرك ماضياً في طريقه تقدمت امرأة إلى بروكس وقالت إن ابنها وهو أحد أفراد الحماية قد ألقي القبض عليه مؤخراً. ومنذ ذلك الحين لم تعد تسمع عنه شيئاً.

وبينما كانت تتحدث سمع صوت إطلاق نار من الجانب الآخر من السوق: فأحد أفراد الحماية قد أطلق النار تحذيراً لسيارة لم تمتثل لأمر منه بالتوقف... أرسل بروكس رجاله مع أوامر لمعرفة الوضع: «انظروا ما إذا كان بالإمكان إصلاح الأمر بحيث يكون للناس وقت أكثر للاستجابة». وتحول مرة أخرى للمرأة وأخبرها أنه سيحاول أن يجد ابنها. وقال إنه في بضعة أيام سيتم افتتاح مكتب قريب حيث سيتسنى لسكنة المنطقة الحصول على معلومات حول المحتجزين.

شارف النهار على الانتصاف وكانت الحرارة شديدة وأصبح بروكس يفقد صبره. فقد أحاط به العديد من أصحاب المحال الذين اشتكوا من مكان رمي القمامة القريب من محلاتهم. فأشار بروكس إلى سلة حديدية كبيرة وهي واحدة من حاويات القمامة التي وضعها جنوده في مناطق فارغة حول الغزالية. وأشار إلى أنها شبه فارغة وأن الأزبال قد تراكمت حولها. وتحداهم «لماذا أهتم بأزبالكم إن كان الناس هنا لا يهتمون بها؟». صعدنا بعد ذلك إلى عجلة الهامفي وسرنا في طريقنا. وبينما كنا نغادر السوق صاح بروكس على السائق ليتوقف ونطّ خارجاً من العجلة لاعناً بصوت مسموع. خطا باتجاه رجل جلس تحت شجرة وراء منضدة مليئة بالشكولاته ورقائق

البطاطا والسجائر وبعض اللعب البلاستيكية الرخيصة. أمسك بروكس بلعبة مسدس بلاستيكي ولعبة على شكل بندقية كلاشنكوف أي-47 ودفعها بوجه البائع. وصاح: «ما هذه؟». اشرأب البائع خوفاً بعدما كان مبتسماً حين تقدم نحوه بروكس وقال: «إنها مجرد لعب للأطفال»، وكان لا يزال يجبر نفسه على الابتسام. وكان أحد المرافقين الطوال الملثمين ويدعى ليو يترجم إلى بروكس. فصاح بروكس: «أنت غبي». قال ليو شيئاً بالعربية إلى الرجل. ولوّح بروكس بالمسدس اللعبة بوجه الرجل «ماذا تعتقد سيحدث لو رأى أحد رجالي هذا مؤشراً نحوه في الليل. أنت ستقتل أطفالاً أكثر مما تقتله القاعدة في هذه المنطقة». طالب بروكس بإجابة. تحدث ليو مرة أخرى إلى البائع الذي قال إنه ليس الشخص الوحيد الذي يبيع لعب المسدسات. فهناك محل صغير مقابل مكاتب البلدية في الغزالية وقال: «إن كل شخص يبيع ذلك».

أنصت بروكس بشكل متصلب ثم خطا إلى الوراء وبصق على الأرض مقابل منضدة البائع هازاً يده وقال: «أنت تجعلني أشمئز، أنت قاتل للأطفال» ثم انسحب للمغادرة. لكنه توقف على بعد بضعة أقدام واستدار ثم رفس كيساً من التراب على البائع وصاح: «لنذهب». كان بروكس صامتاً في طريق عودتنا إلى محطة (ثرشر).

وبعودتنا إلى القاعدة سألت ليو عن المقابلة وكيف أنه ترجم «حرفياً» ما كان النقيب قد قاله. «لقد كانت كلماته مهينة جداً كما تعرف ولو كنت قد أخبرته بالضبط كل ذلك لشعر الرجل بالإهانة جداً».

بعد عدة أيام من رؤيتي لأم جعفر رتب كريم لي لقاءً مع عامر. وكان عامر رجلاً ممتلئاً في أواسط الثلاثينيات من عمره برأس حليق ووجه متورد مليء وشارب كث. لقد كان محياه يبعث بالصفاء

ووجـدت أن مـن الصعوبة النظر إلـى عينيه لمدة طويلـة. تكلم عامر برتابـة الواقـع: «كان لجعفر عشـرة أصابـع وكان كل إصبع يسـتحق عشـرة أفراد من جيـش المهدي، لذا قـررت أن أنتقم مـن مائة منهم، ولحد الآن نفذت انتقامي بعشرين منهم».

سـألت :هـل عـد الذين سـاعد الأمريـكان علـى إلقـاء القبض عليهم؟

هـزّ عامـر رأسـه وقال: «بعضهـم الآن في السـجن. ولـو أطلق سراحهم فسوف أقتلهم وإن لم يطلق سراحهم فسوف أقتل أشقاءهم وآباءهـم. اليوم لدي أحدهم في بالي...». تحدث هو وكريم بالعربية لوهلة. فاسـتدار كريم نحوي وقال: «نعم إن هذا الرجل يستحق ذلك فقد قتل قرابة ثلثمائة شخص في بغداد».

ذكر عامر منطقة مجاورة قريبة قائلاً: «أنا آخذ معظم الناس الذين أسـتهدفهم وأقتلهم هناك وإن المنطقة لا تبعد سوى دقيقتين عن حي العـدل وهي منطقة سـنّية. إن جيـش المهدي يعتقـدون أن الناس في حي العدل يقتلونهم». ابتسـم عامر ساخراً بصوت خافت: «إن جيش المهدي يأتون معي كأصدقاء وهم يثقون بي». قال عامر: «إنه سيدعو رجال جيش المهدي إلى مخزن يملكه – لنأكل أو نشـرب أو نتسـابق في الطيور. لقد اختلقت عدة قصص». وحين يكونون هناك يضع لهم مخدراً يدعى براكيسـول في شـايهم أو يرشـه على التمر الذي يقدمه لهم، «فينامون مباشـرة ثم أطلق النار عليهم في الرأس». وأحيانا كان يقطع رقابهم.

قـال: «إن الأمريكان شـرفاء ونظيفون وعليهـم أن يقتلوا هؤلاء الأشخاص لأنهم قذرون. على أية حال إن لم يقتلوهم فسأقتلهم أنا. إن مساعدة الأمريكان على إلقاء القبض على هؤلاء ستساعدهم على عدم الشك بي».

قبل مقتل جعفر كان عامر قد ارتكب أخطاء – احتساء المشروب

والنساء ـ ولكنه بالانتقام أصبح قريباً إلى الله كما قال، وهذا ما جعله يمضي في طريقه. قال: «إن الله يريدني أن أقتل هؤلاء الناس. إنَّ قتل قطة حرام لكنه من الجيد قتل جيش المهدي. فقد شنقوا العديد من السنّة الشرفاء أمامي. ولا أشعر بالفرق بيني وبين السنّة. بل أشعر بالغضب حيال ذلك. فجيش المهدي لم يعد كما كان في السابق. فأفراده يقتلون الشيعي والسنّي لأي سبب كان. وإن ذهبت إلى جهنم فسأكون مرتاحاً لأني قد أخذت انتقامي. بعد أول قتل لم أستطع النوم والله لأني لم أقتل أحداً قط قبل ذلك، لكنني بعدئذ شعرت بأن الأمر اعتيادي».

في الأسبوع الماضي تحدثت مرة أخرى مع كريم. أخبرني أن شيئاً ما قد حدث – إذ هناك الآن سبب للاعتقاد أن جيش المهدي قد أصبح مدركاً لتورط عامر بالقتل. وكان كريم يحثه على مغادرة بغداد ولو لفترة. وإن لم يفعل فسوف يكون هدفاً سهلاً. لوهلة كان عامر يفكر.

في مساء أحد الأيام وأثناء جلوسي مع النقيب بروكس في قاعة الجمناستك في محطة (ثرشر) سألته إن كان قد شعر أن ما يقوم به في العراق سيحظى بالتقدير من قبل أناس في الوطن. قال: «أوه نعم». استدار إلى أحد نواب الضباط الذي كان يجلس بقربه ويدخن سيكاراً: «ما رأيك يا عريف المدفعية كوشران؟».

أجاب كوشران خافتاً صوته وهو يوجه نقداً للسياسيين: «حين تدخل الرصاصة إلى رأسي فإن جميع السياسة تخرج من النافذة. إن فكرتي الوحيدة هي إخراج رجالي الجنود أحياء من هنا».

ردّ بروكس: «شكراً لاقتباسك ذلك من فيلم (إسقاط البلاك هوك) يا عريف كوشران». استدار نحوي وقال: «حين عدت إلى الوطن آخر مرة ذهبنا للتزلج في كولورادو. وأينما ذهبنا كان الناس

يشكروننا. وقال أحدهم: "لستُ مؤيّداً للحرب لكنّني مؤيّدٌ للجنود" إن بوسعي أن أقبل ذلك، فلدينا نظام يسمح لنا بحرية الكلام. اللعنة فقد ارتديت الزي العسكري لأدافع عن ذلك».

يبدو أن بروكس يشعر أن ما يقوم به هو ورجاله في العراق يستحق الثناء. فقد شعر أن البلد الآن بحاجة إلى الجيش الأمريكي وإلى واجباته في حفظ السلام وإلى دوره الحربي. وقال النقيب بروكس وهو يضرب منضدة خشبية أمامه: «لا يزال بين السكان السنّة خوف من الميليشيات الشيعية وخوف من أن يتجدد العنف مرة أخرى. فقد رأينا جهود القاعدة في العراق لإعادة إذكاء فتيل العنف الطائفي، لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث ولن يحدث. ولا يزال هناك الكثير مما يمكن إنجازه على صعيد المصالحة الوطنية في المنطقة. فالغزالية هي مثال مصغر عما يواجهه العراق ككل. وقالت (مجموعة دراسة العراق) إن المصالحة الوطنية أساسية وأنا أتفق مع ذلك. فإلى حين يستطيع العراقيون حل القضايا الطائفية السنّية – الشيعية فإنهم سيواجهون وقتاً عصيباً قبل إحراز تقدم دائم ذي معنى».

سألت بروك إن كان قد خطط للبقاء في الجيش بعد انتهاء دورته. رمقني بنظرة سرية وقال إنه لم يقرر بعد. وقال: «أريد أن أذهب في إجازة حين أعود إلى الوطن ثم أقرر».

وحين سألته عن رأيه كم ستستغرق الولايات المتحدة للبقاء في العراق؟ فكر بروكس لفترة طويلة وقال: «إني لا أكذب عليك بحديث فارغ، إلا أن الأمر يعتمد على ما تقرره الحكومة التي يهيمن عليها المدنيون من أهداف وتخبر الجيش بما سيفعله. وهناك الآن حديث عن خطط لسنوات متعددة بالنسبة إلى وحدتي وليس فقط خطط لسنة واحدة».

استمر بروكس قائلاً: «الأمور تمضي جيداً تماماً. فكل شيء

أردنا تحقيقه على الصعيد المحلي قد أنجزناه. أولها مقاومة الإرهاب وهو أمر مختلف عما يربطه أحدهم بالحرب – أي فزنا بالانتصار هنا. أعتقد أن هذا الفوز سيكون نقطة لن تدركها لأنك هناك في الوطن – أي أنك في نقطة غير محددة ستنظر إلى الخلف وتدرك أنك فزت حقاً».